الفاحشة المعاصرة

في ضوء القرآن والسنة



تأليف

حسام بن ربيع الدرعمي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

الفاحشة المعاصرة

في ضوء القرآن والسنة

تأليف

حسام بن ربيع الدرعمي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

جميع الحقوق محفوظة للكاتب ©

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أمر بالعفاف، ونهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وجعل صيانة القلوب والأعراض من أعظم مقاصد هذا الدين، وحذّر من خطوات الشيطان، وأرشد إلى طريق الاستقامة والطهارة والعفاف.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل الطهر سبب الفلاح، وحرم الفواحش حمايةً للقلوب وصيانةً للمجتمعات، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه، بعثه الله بشريعةٍ طاهرةٍ تحفظ للإنسان دينه ونفسه وعقله وعِرضه ونسله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا. أما بعد؛

فإن من أعظم الفتن التي ابتُلي بها الناس في هذا الزمان تدفُّق السموم المعنوية من كل جانب، وظهور الفواحش في صورٍ جديدة، تستغل تقنيات العصر ووسائل الإعلام الحديثة لإغواء البشر وإفسادهم؛ حتى أصبحت الفاحشة المعاصرة وباءً يهدد الأمم، ويفسد الأجيال، ويقوض دعائم الأسرة والمجتمع.

ولم يعد الأمر مقتصرًا على الزنا الصريح، بل تعدّاه إلى صورٍ متعددة من الانغماس في الفواحش عبر شبكة الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، سرًّا وجهارًا، حتى غدت هذه المنكرات في متناول الناس بضغطة زر، فضعفت الحواجز، وقلّ الحياء، واستسهل كثير من الناس الوقوع في المعاصي.

وقد حذّر الله تعالى عباده من الفواحش تحذيرًا شديدًا

فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (سورة الأنعام)

وقال جل وعلا:
﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (سورة الأعراف)
فجاء النهي عن القربان قبل الوقوع في الفعل، سدًّا للذرائع، وحمايةً للقلوب من الانزلاق والفساد؛ فإن العبد إذا استهان بالمعصية أظلم قلبه، وضعف إيمانه، وحُرم لذة الطاعة.

وقد بيَّن النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أثر الذنوب فقال:
«إن العبدَ إذا أخطأ خطيئةٌ نُكِتتْ في قلبِهِ نُكتةً سوداءَ فإذا هو نزعَ واستغفرَ وتابَ سُقلَ قلبهُ وإن عادَ زيدَ فيها حتى تعلو قلبهُ وهو الرانُ الذي ذكرَ اللهُ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ» رواه ابن ماجه
ومن أخطر ما في هذه الفتنة أنها لم تعد خفية كما كانت، بل صارت تُروَّج في ثوبٍ مزيف، فتُسمَّى تارةً حرية شخصية، وتارةً فنًّا أو تمثيلًا، وتارةً حاجة نفسية؛ حتى اختلط الحلال بالحرام، وضعفت هيبة الذنب في القلوب، وغابت حقيقة آثاره المدمرة على الإيمان والحياء والأسرة والمجتمع.
قال تعالى:
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾
ومن هنا جاء هذا الكتاب نصيحةً صادقة، وبيانًا شرعيًا لخطر الفاحشة والإباحية وآثارها على القلب والسلوك والمجتمع، مع رد أبرز الشبهات المثارة حولها، اعتمادًا على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، مع الاستئناس بأقوال أهل العلم، بأسلوبٍ واضحٍ مختصر، يخاطب القلب والعقل، ويجمع بين التأصيل الشرعي والوعظ التربوي.
وليس المقصود من هذا العمل التشهير بأحد، ولا القسوة على المذنبين؛ وإنما المقصود النصيحة والبيان والتحذير، وفتح باب الأمل والتوبة، فإن الله سبحانه واسع المغفرة، عظيم الرحمة، يقبل التائبين، ويغفر الذنوب جميعًا لمن رجع إليه صادقًا.

قال تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿سورة الزمر﴾

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، نافعًا لعباده، وأن يجعله سببًا في هداية الضالين، وتوبة العاصين، وإحياء الحياء في القلوب، إنه ولي ذلك والقادر عليه .باب مفهوم الفاحشة

أولًا: الفاحشة في اللغة

الفاحشة في اللغة مأخوذة من الفُحش، وهو القبيح الشنيع من قولٍ أو فعل.

قال ابن فارس رحمه الله:

"الفاء والحاء والشين أصلٌ يدل على القبح والخروج عن الحدّ"

وقال ابن منظور رحمه الله:

"الفُحش: المتفاحش من القبيح"

فكل ما بلغ الغاية في القبح والفساد، واستفحشته النفوس السليمة، سُمِّي فاحشة.

ثانيًا: الفاحشة في الاصطلاح الشرعي

تُطلق الفاحشة في الاصطلاح الشرعي على كل ذنب عظيم بلغ الغاية في القبح، وتجاوز حدود الله تعالى.

وغالب استعمالها في النصوص الشرعية يكون في الذنوب المتعلقة بالفروج والشهوات، وعلى رأسها الزنا واللواط، وما يتصل بهما من المقدمات والوسائل.

قال الإمام القرطبي رحمه الله:

"الفواحش: ما عظم قبحه من الذنوب، وأكثر ما يستعمل في الزنا"

وقال ابن القيم رحمه الله:

"الفواحش هي الذنوب التي عظم قبحها، وأعظمها الزنا، وهو أصل كثير من مفاسد الدنيا والدين"

وقد بين العلماء أن الفواحش لا تقتصر على الفعل نفسه، بل تشمل الأسباب والوسائل الموصلة إليه، مثل:
النظر المحرم والخلوة بالأجنبية والتبرج وكشف العورات وإشاعة الفاحشة بين الناس والدعوة إليها أو تزيينها أو الرضا بها
وذلك لأن الشريعة لم تكتف بتحريم الفعل نفسه، بل سدّت كل الطرق المؤدية إليه؛ حفظًا للأعراض، وصيانةً للمجتمع من الفساد.

ثالثًا: الفاحشة في القرآن الكريم

ورد لفظ الفاحشة ومشتقاته في مواضع متعددة من القرآن الكريم، وكلها تدل على عِظم قبح هذا الذنب وشدة خطره.
فوردت الفاحشة بمعنى الزنا ومقدماته
قال تعالى:
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء)
وهنا وصف الزنا بأنه فاحشة، وهذا وصف يدل على شدة قبحه وعظيم خطره.
ولم يأت النهي عن فعل الزنا فقط، بل جاء النهي عن القرب منه؛ وهذا يدل على تحريم كل ما يفضي إليه من المقدمات والوسائل.
قال الإمام ابن كثير رحمه الله:
"ينهى تعالى عباده عن الزنا وعن مقاربته، أي عن أسبابه ودواعيه"
ووردت الفاحشة بمعنى الذنوب القبيحة الظاهرة والباطنة
قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف)
وهذه الآية تشمل جميع أنواع الفواحش الظاهرة كالأفعال القبيحة التي تظهر على الجوارح.
والباطنة كفساد القلب، والشهوات المحرمة، والنظر الذي يقود إلى المعصية.



قال الطبري رحمه الله:
"الفواحش: ما عظم قبحه من الذنوب" (تفسير الطبري)
وورد اللفظ في التحذير من إشاعة الفاحشة في المجتمع
قال تعالى:
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النور)
وهنا تدل الآية على شدة الوعيد لمجرد محبة انتشار الفاحشة بين المؤمنين، فكيف بمن يعمل بها أو يدعو إليها أو يروج لها بين الناس، وفي ذلك تحذير شديد من نشر الفساد الأخلاقي أو تزيينه أو الدعوة إليه.

رابعًا: الفاحشة في السنة النبوية

جاءت سنة النبي مؤكدة لما جاء في القرآن، فحذرت من الفاحشة، ومن مقدماتها، ومن الفحش في القول، ومن المجاهرة بالمعصية، ومن كل طريق يؤدي إلى فساد القلب والجوارح.
وكان النبي ﷺ أبعد الناس عن الفحش في قوله وفعله وخلقه.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
« لم يَكُن رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فاحِشًا ولا متفحِّشًا وَكانَ يقولُ: مِن خيارِكُم أحاسِنُكُم أخلاقًا» متفق عليه
فدل الحديث على أن الفحش يناقض كمال الخلق، وأن المؤمن كلما ازداد إيمانًا وخلقًا ابتعد عن الفحش في لسانه وسلوكه.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«ليس المُؤمِنُ بالطَّعَّانِ ولا اللَّعَّانِ ولا الفاحشِ ولا البَذيءِ» رواه الترمذي
فالفحش في اللسان من معاني الفاحشة في السنة، لأن اللسان إذا فسد بالكلام البذيء، والمزاح الفاحش، ووصف المحرمات، ونشر أخبار الفواحش، كان بابًا إلى فساد القلب والمجتمع.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّ اللهَ يبغضُ الفاحشَ البذيءَ» رواه أبو داود وأحمد

وهذا يدل على أن الفحش ليس مجرد سوء أدب مع الناس، بل هو خُلق يبغضه الله، لأنه يناقض الطهارة والحياء والوقار.

خامسًا: أقوال السلف والعلماء في معنى الفاحشة

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

"الفاحشة: كل ما نهى الله عنه من الذنوب"

وقال الإمام الطبري رحمه الله:

"الفاحشة: كل ما عظم قبحه من الذنوب"

وقال ابن القيم رحمه الله:

"الفواحش هي الذنوب التي عظم قبحها، وأعظمها الزنا"

سادسًا: الضابط الجامع لمعرفة الفاحشة

يمكن معرفة الفاحشة بالضابط الآتي، وهو أن الفعل يكون فاحشة إذا اجتمع فيه عدد من هذه المعاني:

- شدة القبح في الشرع.
- ومخالفته للفطرة السليمة.
- والاعتداء على الأعراض.
- وإثارة الشهوات المحرمة.
- والدعوة إليه أو إشاعته بين الناس.

فإذا اجتمعت هذه المعاني في فعلٍ ما، كان من الفواحش التي شددت الشريعة في تحريمها.

مقدمات الفاحشة

الله تعالى لم يحرم الفاحشة وحدها، بل حرم أبوابها وطرقها ومقدماتها؛ لأن النفوس لا تنتقل غالبًا إلى الفواحش العظيمة دفعة واحدة، وإنما تبدأ بخطوة صغيرة، ونظرة عابرة، وكلمة لينة، ومزاح متساهل، وخلوة مريبة، وتعلق خفي، حتى يضعف القلب، وتسقط الحواجز، ويهون الحرام.

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء)

فنهى الله عن مقدمات الزنا، لا عن فعله فقط، وهذا من كمال الشريعة الإسلام في حماية القلوب والأعراض؛ وهذا لأن من اقترب من أسباب الفتنة لم يأمن السقوط فيها.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(سورة النور)

والشيطان لا يبدأ غالبًا بالأمر بالفاحشة بشكلٍ مباشر، بل يحرك العبد إليها خطوة بعد خطوة، حتى يخرجه من الحياء إلى الجرأة، ومن الإنكار إلى الاعتياد، ومن الاعتياد إلى الوقوع.

أولًا: إطلاق البصر

إطلاق البصر من أخطر مقدمات الفاحشة، لأن العين باب القلب، وما يدخل منها يستقر في الخيال، وتتحرك به الشهوة، ويضعف الحياء، ومن هنا يُفتح طريق التعلق والطلب.

قال تعالى:
﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾
وقال سبحانه:
﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (سورة النور)
فبدأ الله بغض البصر قبل حفظ الفرج؛ لأن من حفظ عينه أعانه الله على حفظ فرجه، ومن أطلق بصره عرض قلبه للفتن ما ظهر منها وما بطن.

عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«يا عليُّ ! لا تُتبعِ النَّظرةَ النَّظرَةَ، فإنَّ لَكَ الأولى ، ولَيسَتْ لَكَ الآخرَةُ» رواه أبو داود والترمذي

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«العينانِ تزنيانِ وزناهما النظرُ» متفق عليه
وقال القحطاني رحمه الله:
إن الرجال الناظرين إلى النسا ... مثل الكلاب تطوف باللحمان
إن لم تصن تلك اللحوم أسودها ... أكلت بلا عوض ولا أثمان
والنظر المحرم ليس أمرًا صغيرًا كما يظنه بعض الناس، بل هو سهم يصيب القلب، وبداية طريق يجر صاحبه إلى ما هو أعظم منه.
وقد قرر أهل العلم أن حفظ البصر أصل عظيم في حفظ القلب، وأن من أطلق نظره دامت حسرته؛ فالعين ترى ما لا تملك، والقلب يتعلق بما لا يحل، ومن هنا تفسد لذة العبد بالحلال والطاعة.

ثانيًا: المحادثات المحرمة

ومن مقدمات الفاحشة المحادثات المحرمة، سواءٌ كانت بالكلام مباشر، أو الرسائل، أو التعليقات، أو المكالمات، أو المراسلات خفية.
وقد يبدأ الأمر بكلمة عابرة، ثم يتحول إلى أُلفة وتعلق، ثم إلى فتنة.

قال تعالى:
﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (سورة الأحزاب)
فنهى الله في الآية عن الكلام الذي يفتح باب الطمع والفتنة، وأمر بالقول المعروف الذي لا ريبة فيه ولا تليين يثير القلوب المريضة.
قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (سورة ق)
والكتابة في الرسائل والتعليقات داخلة في معنى القول، فهي محفوظة عند الله، وإن حذفها صاحبها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّ الرجلَ لَيتكلَّمُ بالكلمةِ لا يرى بها بأسًا يهوي بها سبعين خريفًا»

متفق عليه
فرب كلمةٍ في محادثةٍ، أو مزاحٍ في رسالةٍ، أو تعليقٍ متساهلٍ، يكون بداية فتنة في القلبِ، أو بابًا لعلاقة محرمة، أو سببًا في تضييع الحياءِ.

ثالثًا: الخلوة

الخلوة من أعظم أبواب الفتنة؛ لأنها تجمع بين غياب الرقابة، وحضور الشهوة، ووسوسة الشيطان.
وقد تكون الخلوة في مكان مغلق، وقد تكون في محادثة خاصة عبر الإنترنت، أو اتصال خفي، أو علاقة سرية لا يطلع عليها أحد.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«لا يَخلونَّ رَجُلٌ بامرَأةٍ إلَّا ومعها ذو مَحرَمٍ، ولا تُسافِرِ المَرأةُ إلَّا مع ذي مَحرَمٍ» متفق عليه

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«لا يخلوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ فإنَّ الشيطانَ ثالثُهما» رواه الترمذي وأحمد
وإذا كان الشرع منع الخلوة الظاهرة حفظًا للقلوب والأعراض، فالخلوة الرقمية في هذا العصر داخلة في المعنى إذا جمعت السرية، والتعلق، والكلام المريب، وغياب الرقابة.

قال تعالى:
﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (سورة النساء)
ومن أغلق بابه، أو أخفى هاتفه، أو حذف محادثاته، فليعلم أن الله يرى ويسمع ويعلم، وأن الخلوة التي تغيب عن الناس لا تغيب عن رب الناس سبحانه وتعالى.

رابعًا: التعلق المحرم

التعلق المحرم مرض يدخل القلوب من باب النظر أو الكلام أو المتابعة أو كثرة التفكير، حتى يصير القلب أسيرًا لشخص لا يحل له، يفرح برسالته، ويحزن لغيابه، ويطيل التفكير فيه، وربما يضعف دينه وحياؤه من أجله.
قال تعالى:
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (سورة البقرة)
والقلب إذا امتلأ بتعلق محرم ضعف فيه تعظيم الله، وصار هواه قائدًا له، وربما قدم رضا المخلوق على رضا الخالق.
قال تعالى:
﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة الجاثية)
ومن خطورة التعلق أنه لا يقف عند الشعور الداخلي فقط، بل يدفع صاحبه إلى تتبع الأخبار، وكثرة الرسائل، وإطالة النظر، وتمني الحرام، والاقتراب من الفاحشة خطوة بعد خطوة.
وقد تكلم أهل العلم عن خطورة عشق الصور والتعلق المحرم، وبينوا أنه يفسد القلب، ويشغل الفكر، ويضعف العبادة، ويجعل الإنسان ذليلًا لهواه بعد أن كان عزيزًا بطاعة ربه.



خامسًا: التهاون بالمزاح والكلام

كثير من أبواب الفتنة تبدأ بمزاح متساهل، أو كلمة ذات إيحاء، أو ضحك زائد، أو تعليق لا يليق، حتى تسقط الكلفة والحدود، ويضعف الحياء، ويألف القلب ما كان يستنكره.

قال تعالى:

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ (سورة الإسراء)

وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (سورة البقرة)

وليس كل كلام مباحًا لمجرد أنه مزاح، ولا كل ضحك سالمًا لمجرد أنه عابر؛ فقد يكون المزاح بريدَ الفتنةِ، والكلمة مفتاح التعلقِ، والضحك أول سقوط الحاجز.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ليس المُؤمِنُ بالطَّعَّانِ ولا اللَّعَّانِ ولا الفاحشِ ولا البَذيءِ» رواه الترمذي

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فليَقُلْ خَيرًا أو ليصمُتْ» متفق عليه

وكل كلامٍ يثير الشهوة، أو يفتح باب العلاقة، أو يضعف الحياء، أو يجر إلى التعلق، ليس من الخير، ولو ستره صاحبه بالمزاح وخفة الظل.

سادسًا: متابعة الصور والمقاطع

ومن مقدمات الفاحشة متابعة الصور والمقاطع التي تثير الشهوة، أو تضعف الحياء، أو تعود القلب على رؤية ما لا يحل.

وقد تكون هذه المتابعة في ظاهرها ترفيهًا، لكنها في حقيقتها تغذية للخيال، وإضعاف للقلب، وتطبيع للمنكر.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (سورة الإسراء)

فالعبد مسؤول عما يرى ويسمع، ومسؤول عما يترك من أثر في قلبه، وليس له أن يطلق البصر والسمع ثم يزعم أن قلبه يبقى سالمًا.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النور)

وكل من تابع الفاحشة، أو نشرها، أو أعان على ترويجها، أو جعلها مألوفة بالمشاهدة والتداول، كان له نصيب من هذا الباب بحسب فعله وأثره.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ عَرْضَ الحَصِيرِ عُودًا عُودًا ، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَتْ فيه نُكتةٌ سَوداءُ ، وأيُّ قلبٍ أنْكَرَها نُكِتَتْ فيه نُكتةٌ بيضاءُ ، حتى يصِيرَ القلبُ أبيضَ مثلَ الصَّفا ، لا تَضُرُّه فِتنةٌ ما دامَتِ السمواتُ والأرضُ ، والآخَرُ أسودَ مُربَدًّا كالكُوزِ مُجَخِّيًا ، لا يَعرِفُ مَعروفًا ، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا ، إلا ما أُشْرِبَ من هَواه» رواه مسلم.

وهذه المقاطع والصور تعرض الفتن على القلب مرة بعد مرة، حتى إذا لم ينكرها القلب ولم يبتعد عنها، أُشربها وضعف نوره.

سابعًا: عدم التأدب بالآداب الإسلامية

ومن مقدمات الفاحشة ترك الآداب الإسلامية التي جعلها الله سياجًا للطهر والحياء، مثل الاستئذان، وغض البصر، وحفظ اللسان، وترك الخلوة، والستر، والوقار، والبعد عن مواطن الريبة.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة النور)

وقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ (سورة النور)

وهذه الآداب تحفظ البيوت والقلوب والعورات، وتربي النفوس على الحياء، وتمنع أسباب الفتنة قبل وقوعها.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّ لِكُلِّ دينٍ خُلُقًا، وإنَّ خُلُقَ الإسلامِ الحياءُ» رواه ابن ماجه والطبراني

فإذا ضاع الحياء، وضعفت الآداب، وسقطت الحدود بين الناس، سهلت الفتنة، وكثر التعلق، وجرؤ اللسان، وانطلقت العين، وتهيأت مقدمات الفاحشة.

ثامنًا: التدرج من الصغيرة إلى الكبيرة

من فقه الشريعة الإسلامية أنها حذرت من الخطوات قبل النهايات، ومن المقدمات قبل الوقوع؛ لأن أكثر الكبائر تبدأ بصغائر استهان بها صاحبها.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّ الحلالَ بيِّنٌ وإنَّ الحرامَ بيِّنٌ وبينهما أمورٌ مُشتبِهاتٌ لا يعلمهنَّ كثيرٌ من الناس فمنِ اتَّقى الشُّبُهاتِ استبرأ لدِينِه وعِرضِه ، ومن وقع في الشُّبهاتِ وقع في الحرامِ ، كالراعي يرعى حول الحِمى يوشكُ أن يرتعَ فيه ، ألا وإنَّ لكلِّ ملكٍ حمًى ، ألا وإنَّ حمى اللهِ محارمُه ، ألا وإنَّ في الجسدِ مُضغةً إذا صلُحتْ صلُح الجسدُ كلُّه وإذا فسدتْ فسد الجسدُ كلُّه ألا وهي القلبُ» متفق عليه

فالذي يحوم حول النظر المحرم، والكلام المريب، والخلوة الخفية، والمزاح المتساهل، والمتابعة المثيرة، لن يأمن من نفسه الوقوع فيما هو أعظم، حتى ولو ظن في نفسه القوة.

قال تعالى:
﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (سورة البقرة)

فالسلامة ليست في اختبار النفس عند حدود الحرام، بل في البعد عنها، وسد أبوابها، وقطع أسبابها.

وقد قرر أهل العلم أن الذنب يجر إلى ذنب، وأن المعصية إذا استقرت في القلب ولدت أختها، حتى يتعسر على صاحبها الخروج إلا بتوبة صادقة ومجاهدة مستمرة.

تاسعاً: حفظ المقدمات حفظ للدين والعرض

إن العبد الذي يحفظ نفسه من مقدمات الفاحشة ليس متشددًا، بل هو صاحب فقه في الدين، ومعرفة بضعف النفس، وصدق في طلب النجاة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ (سورة المؤمنون)

وقال سبحانه:

﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة الأحزاب)

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَن يَضمَنْ لي ما بينَ لَحيَيه وما بينَ رِجلَيه أضمَنْ له الجَنَّةَ»

رواه البخاري

فمن ضبط لسانه، وحفظ بصره، وصان قلبه، وابتعد عن الخلوات والمحادثات والصور المثيرة، كان أقرب إلى العفة، وأبعد عن الفاحشة، وأحفظ لدينه في زمن كثرت فيه الفتن وتيسرت فيه أبواب الحرام.باب سهولة الوصول.

باب سهولة الوصول (الهاتف والإنترنت)

إن من أعظم ما غير طبيعة الفتنة في العصر الحديث أن الفاحشة لم تعد تحتاج إلى سعي بعيد، ولا خلوة ظاهرة، ولا مخالطة مباشرة، بل أصبحت قريبة من الإنسان في هاتفه، حاضرة في غرفته، مصاحبة له في ليله ونهاره. وهذا القرب المستمر جعل الابتلاء أشد، والمجاهدة أعظم، والخطر أوسع؛ لأن الحرام إذا سهل الوصول إليه ضعفت مقاومة كثير من النفوس له، ولا سيما مع الغفلة، والفراغ، وضعف الإيمان، وغياب الرقابة.

أولًا: طبيعة الفتنة في العصر الرقمي

كانت الفتنة في أزمنة سابقة تحتاج إلى خروج وسعي وطلب، أما اليوم فقد صارت تدخل على الإنسان من باب هاتفه وشاشته، حتى أصبح الحرام يُعرض عليه قبل أن يطلبه، ويلاحقه قبل أن يسعى إليه. وهذا من أشد صور الابتلاء؛ لأن دوام القرب يُضعف الحاجز النفسي، ويجعل المعصية مألوفة بعد أن كانت مستقبحة.

قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ۝ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾

(سورة النساء)

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله في معنى ضعف الإنسان أنه ضعيف أمام النساء والشهوات، محتاج إلى ما يحفظه ويعينه.

فإذا اجتمع ضعف الإنسان مع سهولة الوصول إلى الفتنة، كان الخطر أعظم، والحاجة إلى التقوى والمجاهدة أشد.

ثانيًا: الهاتف باب للنظر المحرم

إن أكثر أبواب الفاحشة المعاصرة تبدأ من النظر، والهاتف اليوم صار من أعظم وسائل إطلاق البصر فيما حرم الله. وقد ربط القرآن بين غض البصر وحفظ الفرج؛ لأن النظر بريد القلب، وأول طريق الشهوة.

قال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (سورة النور)

وقال سبحانه:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (سورة النور)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«العينانِ تزنيانِ وزناهما النظرُ» متفق عليه

والهاتف إذا صار طريقًا للنظر المحرم، صار بابًا مباشرًا إلى فساد القلب وضعف العفة.

ثالثًا: خطر الخلوة الرقمية

إن الهاتف يصنع نوعًا جديدًا من الخلوة؛ خلوة لا يراها الناس، ولا يشعر بها من حوله، لكنها مكشوفة لله تعالى. وقد يكون العبد بين أهله أو في غرفته أو على فراشه، ثم يفتح على نفسه أبوابًا من الحرام لا يعلم بها أحد من البشر.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ (سورة العلق)

وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (سورة غافر)

وقال تعالى:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (سورة النساء)

فالخلوة بالشاشة ليست خفاءً عن الله، بل هي امتحان عظيم لصدق المراقبة، وميزان يكشف حقيقة الخوف من الله في السر.

رابعًا: سهولة الوصول تُضعف المجاهدة

كلما صار الحرام قريبًا سهلًا متكررًا، احتاج العبد إلى مجاهدة أعظم. فالخطر ليس في وجود الوسيلة وحدها، بل في اجتماع الوسيلة مع ضعف النفس، وغياب الحاجز، وتكرر العرض.

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

(سورة العنكبوت)

وقال سبحانه:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿سورة النازعات﴾

وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (سورة الرحمن)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكارِهِ وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهواتِ» رواه مسلم والترمذي وأحمد

فالطريق إلى النار قد تحيط به الشهوات السهلة القريبة، وأما النجاة فتحتاج إلى صبر ومجاهدة وقطع للأسباب التي تضعف القلب.

خامسًا: خطوات الشيطان في العالم الرقمي

الفاحشة في الهاتف لا تبدأ غالبًا بالفعل الأكبر، بل تبدأ بخطوة صغيرة: صورة، ثم مقطع، ثم متابعة، ثم محادثة، ثم تعلق، ثم انزلاق. وهذه طريقة الشيطان في كل زمان؛ لا ينقل الإنسان إلى الهاوية دفعة واحدة، بل يقوده خطوة بعد خطوة.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿سورة النور﴾

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

(سورة البقرة)

وقال ابن كثير رحمه الله في معنى خطوات الشيطان:

أي طرائقه ومسالكه وما يأمر به

فالمقاطع والصور والحسابات والمحادثات التي تجر إلى الفاحشة هي من خطوات الشيطان في هذا العصر، وإن جاءت في صورة تسلية أو فضول أو متابعة عابرة.

سادسًا: التكرار طريق الاعتياد ثم الإدمان

سهولة الوصول لا تؤدي إلى الوقوع فحسب، بل تؤدي إلى التكرار، والتكرار يورث الاعتياد، والاعتياد يضعف الإنكار، حتى تصبح المعصية مألوفة على القلب.

قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة المطففين)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن العبدَ إذا أخطأ خطيئةٌ نُكِتتْ في قلبِهِ نُكتةً سوداءَ فإذا هو نزعَ واستغفرَ وتابَ سُقلَ قلبهُ وإن عادَ زيدَ فيها حتى تعلو قلبهُ وهو الرانُ الذي ذكرَ اللهُ كَلّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ» أخرجه ابن ماجه، والنسائي وابن حبان

وقال ابن القيم رحمه الله:

المعاصي تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضًا، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها.

وهذا ظاهر في فتن الهاتف والإنترنت؛ فإن من فتح الباب مرة بعد مرة، ضعف قلبه عن الإغلاق، وصار أسيرًا لما كان يظنه أمرًا عابرًا.



سابعًا: اجتماع السر والسهولة والتكرار

من أخطر ما في الهاتف والإنترنت أن الفاحشة فيهما تجمع ثلاثة أمور: السر، والسهولة، والتكرار. فالسر يضعف الحياء من الناس، والسهولة تضعف المجاهدة، والتكرار يضعف القلب.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (سورة الإسراء)

وقال سبحانه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (سورة ق)

فالذي يراه الإنسان في هاتفه، وما يسمعه، وما يكتبه، وما يقصده بقلبه، كل ذلك داخل في الحساب، وليس شيء منه خارجًا عن علم الله ورقابته.

ثامنًا: الوسائل الحديثة قد تكون نعمة أو نقمة

الهاتف والإنترنت في أصلهما من الوسائل، والوسيلة يختلف حكمها بحسب استعمالها. فمن استعملها في العلم، والقرآن، والدعوة، وصلة الرحم، وما ينفع، كانت نعمة عظيمة له. ومن جعلها طريقًا للحرام، كانت نقمة وفتنة عليه.

قال تعالى:

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (سورة الملك)

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (سورة التكاثر)

فالنعم إذا استُعملت في طاعة الله كانت شكرًا، وإذا استُعملت في معصيته كانت كفرانًا للنعمة

والهاتف الذي يُقرأ به القرآن والحديث وغير ذلك من العلوم، وتُطلب به الفائدة، قد يكون باب أجر، والهاتف نفسه إذا استُعمل في الفاحشة صار باب إثم عظيم وفتنة.

تاسعًا: أثر سهولة الوصول في موت الحياء

كثرة التعرض للمشاهد والمحادثات المحرمة تُضعف الحياء شيئًا فشيئًا، حتى يتجرأ الإنسان على ما كان يستحي منه من قبل. وإذا مات الحياء، سهُل على النفس اقتحام أبواب أعظم من الذنوب والفتن.

عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ ممَّا أدرك النَّاسُ من كلامِ النُّبوَّةِ الأولَى : إذا لم تستحْيِ فاصنَعْ ما شئتَ» رواه البخاري

وقال ابن القيم رحمه الله:

ومن عقوبات المعاصي ذهاب الحياء، الذي هو مادة حياة القلب فالذي يعتاد فتح الحرام في هاتفه لا يخسر وقته فقط، بل يخسر شيئًا من حيائه، وكلما نقص الحياء نقصت المناعة الداخلية أمام الفاحشة.

عاشرًا: الفتنة في الجيب امتحان للإيمان

كان الإنسان قديمًا يبتعد عن مواضع الفتنة فيسلم، أما اليوم فقد يحمل الفتنة معه في جيبه، وينام والهاتف قريبٌ من يده، ويخلو به حيث شاء. وهذا يجعل الابتلاء أعظم؛ لأن أسباب الحرام لا تفارق كثيرًا من الناس.

قال تعالى:

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (سورة الأنبياء)

وقال سبحانه:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾

(سورة العنكبوت)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«بادروا بالأعمالِ فتَنًا كقطعِ اللَّيلِ المظلمِ ، يصبحُ الرَّجلُ مؤمنًا ويمسي كافرًا ، ويمسي مؤمنًا ويصبحُ كافرًا يبيعُ أحدُهم دينَهُ بعرضٍ منَ الدُّنيا»

رواه مسلم الترمذي

فالوسائل الحديثة من جملة الفتن التي تُظهر صدق العبد مع الله، وهل يحفظ حدوده في السر كما يحفظها في العلن.

حادي عشر: سد الذرائع في الاستعمال

إذا كان الشرع نهى عن الاقتراب من الزنا، فإن ذلك يشمل كل طريق يفضي إليه، سواء كان طريقًا واقعيًا أو رقميًا. فكل حساب، أو تطبيق، أو محادثة، أو خلوة إلكترونية، أو متابعة محرمة تفتح باب الشهوة، فهي داخلة في معنى الذرائع التي يجب سدها.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

الأصل أن كل ما كان سببًا للفتنة فإنه لا يجوز؛ فإن الذريعة إلى الفساد يجب سدها إذا لم يعارضها مصلحة راجحة

فلا يليق أبدًا بالمسلم أن يفتح على نفسه بابًا يعلم أنه سيضعفه، ثم يزعم أنه قادر على الوقوف عند حد معين؛ فإن من اقترب من الحمى أوشك أن يقع فيه.

ثاني عشر: من أعظم العلاج قطع الأسباب من بدايتها

من فقه العبد بنفسه أن يعرف مواضع ضعفه، وأن يقطع الطريق على الفتنة قبل أن تستحكم. فترك الحسابات المفسدة، وحذف التطبيقات التي تجر إلى الحرام، وعدم الخلوة الطويلة بالهاتف، وضبط وقت الاستخدام، كلها من باب مجاهدة النفس وحفظ الدين.

قال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة)

وقال سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (سورة التغابن)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«احرِص على ما ينفعُكَ واستعِن باللَّهِ ولا تعجِزْ» رواه مسلم وابن ماجه

ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه، ومن باعد أسباب الفتنة كان أقرب إلى السلامة

والعاقل لا يختبر إيمانه بفتح أبواب الفتنة، بل يحفظ قلبه بإغلاقها، ويستعين بالله على نفسه، ويجعل من هاتفه وسيلة طاعة لا طريقًا إلى المعصية.



باب الفراغ

الفراغ إذا خلا من طاعة الله، ومن العمل النافع، ومن المسؤولية الجادة، صار من أخطر الأبواب التي يدخل منها الشيطان على العبد؛ لأن النفس لا تبقى ساكنة، فإن لم تُشغل بالحق شغلت صاحبها بالباطل، وإن لم تُحفظ بالتقوى انفتحت عليها أبواب الخواطر والشهوات والغفلة فأهلكت صاحبها.

وليس الفراغ خطرًا يسيرًا، بل هو مساحة واسعة تتحرك فيها النفس الأمارة بالسوء، وتنشط فيها الوساوس، وتضعف فيها المراقبة، وتكثر فيها النظرات، والمحادثات، والتعلقات، ثم قد ينتقل العبد من مجرد الخاطر إلى النظر، ومن النظر إلى التمني، ومن التمني إلى السعي، ومن السعي إلى الوقوع فيما حرم الله.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ (سورة الشرح)

وهذه الآية تدل على أن الفراغ لا ينبغي أن يكون بابًا للغفلة والبطالة، بل إن العبد إذا فرغ من شأن شُغل بآخر، حتى لا تصير أوقاته ميدانًا للشيطان والهوى.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ منَ النَّاسِ الصِّحَّةُ والفراغُ» متفق عليه

وجمع النبي ﷺ بين الصحة والفراغ؛ لأن الإنسان إذا كان صحيح البدن، فارغ الوقت، ضعيف المراقبة، قريبًا من أسباب الفتنة، كان الخطر عليه أعظم، وكانت خسارته أشد إن ضيع نعمة الله فيما يغضب الله.

أولًا: فتح باب الغفلة

من أخطر آثار الفراغ أنه يورث القلب غفلة عن الله وعن الدار الآخرة فإذا طال على العبد وقتٌ لا يذكر فيه ربه، ولا يراجع فيه نفسه، ولا ينظر فيه في عاقبة أمره، قسا قلبه، وضعفت بصيرته، وهان عليه ما كان يستعظمه من قبل.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ (سورة الأعراف)

وقال سبحانه:

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (سورة الأنبياء)

وقال عز وجل:

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (سورة الكهف)

فالغفلة واتباع الهوى إذا اجتمعا في القلب أفسدا عليه أمره، وجعلا صاحبه يتصرف بلا ميزان صحيح، فيقضي وقته فيما يهيج شهوته، أو يضعف حياءه، أو يهون عليه الفاحشة.

قال ابن القيم رحمه الله:

إضاعة الوقت أشد من الموت؛ لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها.

والفراغ إذا صار غفلةً كان خسارةً في الدين والعمر، ومن أعظم الخسارة أن يضيع العبد وقته فيما يبعده عن الله ويقربه من الفاحشة.

ثانيًا: إطلاق خواطر السوء

الفاحشة لا تبدأ غالبًا بالفعل نفسه، بل تبدأ بخاطر، ثم فكرة، ثم تكرار، ثم ميل، ثم تعلق، ثم إرادة، ثم سعي.

والفراغ هو البيئة التي تكبر فيها الخواطر إذا لم يحرس العبد قلبه.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (سورة ق)

وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (سورة غافر)
فالله يعلم ما يمر بالقلب من خواطر، وما تخفيه النفس من رغبات، وما تختلسه العين من نظرات. والعبد قد يظن أن الأمر مجرد فكرة عابرة، لكنها إذا تكررت في فراغ القلب تحولت إلى شهوة مستحكمة هالكة.
قال ابن القيم رحمه الله:
دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة، فدافع الفكرة، فإن لم تفعل صارت شهوة، فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلًا.
وهذا يبين أن الفراغ ليس حياديًا على الدوام، بل قد يكون بداية سلسلة طويلة من الانحراف، تبدأ بما يستصغره العبد، ثم تنتهي بما يندم عليه.

ثالثًا: اتباع خطوات الشيطان

الشيطان لا يدعو العبد إلى الفاحشة دفعة واحدة في الغالب، بل يسوقه إليها بالتدرج.
يبدأ معه بما يراه صغيرًا كالنظرة، والصورة، والفضول، والحديث، والمتابعة، والرسالة، والمزاح، ثم يفتح بعضها باب بعض حتى يضعف القلب.
قال تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (سورة النور)
فذكر الله خطوات الشيطان؛ لأن طريق الفاحشة له مقدمات، ومن أخطر هذه المقدمات الفراغ الطويل الذي لا يملؤه العبد بما يرضي الله.
قال تعالى:
﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (سورة فاطر)
ومن جهل عداوة الشيطان ترك له أوقات فراغه، فملأها بالوساوس والصور والتخيلات والمداخل الخفية.

والشيطان يجد في القلب الفارغ أرضًا خصبةً للقبول، فإذا اجتمع الفراغ مع ضعف العلم والمراقبة كان الخطر أعظم.

رابعًا: ضعف الحياء والمراقبة

من أكثر ما يفسد القلب أن يطول عليه الفراغ مع الخلوة والغفلة؛ لأن العبد إذا اعتاد أن يخلو بلا مراقبة، وأن ينظر بلا خوف، وأن يتصفح بلا ضابط، ضعف حياؤه شيئًا فشيئًا.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ (سورة العلق)

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (سورة النساء)

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (سورة الفجر)

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سُئل عن الإحسان فقال:

«أن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَراه، فإن لم تَكُنْ تَراه فإنَّه يَراك» رواه مسلم

فالفراغ الذي يخلو من استحضار نظر الله قد يتحول إلى خلوة مع المعصية، فيستحي العبد من الناس ولا يستحي من ربه، ويغلق الأبواب عن الخلق وينسى أن الله مطلع على السرائر.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«استحيوا من اللهِ تعالى حقَّ الحياءِ ، من اسْتحيا من اللهِ حقَّ الحياءِ فلْيحفظِ الرأسَ وما وعى ، ولْيحفظِ البطنَ وما حوى ، ولْيذكرِ الموتَ والبِلا ، ومن أراد الآخرةَ ترك زينةَ الحياةِ الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من اللهِ حق الحياءِ» رواه الترمذي وأحمد

والحياء إذا ضعف في القلب صار العبد أقرب إلى اقتحام ما كان يخافه، وأسرع إلى التهاون بما كان يستعظمه.

خامسًا: كثرة النظر المحرم مع الفراغ

من أعظم آثار الفراغ في زمن الفاحشة المعاصرة إطلاق البصر فيما لا يحل، خاصة مع كثرة الصور والمقاطع والمنصات التي تعرض الفتنة في كل وقت.

فإذا طال الفراغ، وضعفت المراقبة، صار البصر أكثر طلبًا لما يثير الشهوة.

قال تعالى:
﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾
وقال سبحانه:
﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (سورة النور)
فبدأ الله بغض البصر قبل حفظ الفرج؛ لأن النظر من أعظم أبواب الفاحشة، وهو بريد القلب ومفتاح التعلق.

عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
« يا عليُّ ! لا تُتبعِ النَّظرةَ النَّظرَةَ، فإنَّ لَكَ الأولى ، ولَيسَتْ لَكَ الآخرَةُ» رواه أبو داود والترمذي
والفراغ يكثر معه تتابع النظرات؛ لأن العين إذا لم تنشغل بما ينفع، التفتت إلى ما يضر، وإذا تكرر النظر المحرم ضعفت مقاومة القلب، وصار الحرام مألوفًا بعد أن كان مستنكرًا.

سادسًا: فتح أبواب العلاقات المحرمة

كثير من العلاقات المحرمة لا تبدأ بإرادة الفاحشة الصريحة، بل تبدأ من الفراغ العاطفي، أو التسلية، أو الفضول، أو المحادثة الطويلة بلا حاجة، ثم يتحول الكلام إلى تعلق، والتعلق إلى ضعف، والضعف إلى تجاوز لحدود الله.
قال تعالى:
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء)
فنهى الله عن قربان الزنا، لا عن الزنا وحده؛ لأن للحرام مقدمات وطرقات، منها النظر، والخلوة، والكلام المثير، والتوسع في المزاح، والتعلق القلبي.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«لا يَخلونَّ رَجُلٌ بامرَأةٍ إلَّا ومعها ذو مَحرَمٍ، ولا تُسافِرِ المَرأةُ إلَّا مع ذي مَحرَمٍ» متفق عليه

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«لا يخلوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ فإنَّ الشيطانَ ثالثُهما» رواه الترمذي وأحمد

والفراغ يجعل النفس تبحث عمن يؤنسها ولو في غير مرضاة الله، وتطلب حديثًا يملأ وحدتها ولو كان بابًا للفتنة، ولذلك كانت الخلوة والمحادثات الخاصة من أخطر ما يتسع في أوقات الفراغ.

سابعًا: تعظيم أثر وسائل الفتنة المعاصرة

في هذا العصر صار كثير من أبواب الفاحشة قريبًا من الإنسان، يدخل عليه في بيته، وفي هاتفه، وفي خلوته، وفي أوقات فراغه.

ولم تعد الفتنة تحتاج دائمًا إلى الخروج أو اللقاء، بل قد يفتحها العبد على نفسه بالنظرة أو الضغطة أو المتابعة أو المحادثة.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (سورة الإسراء)

فالعبد مسؤول عن سمعه وبصره وقلبه، ومسؤول عما أدخله إلى نفسه من الصور والمقاطع والكلمات والمشاهد.

وكلما زاد الفراغ زاد التعرض لهذه الأبواب، خاصة إذا غابت الرقابة وضعف الحياء.

قال تعالى:

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (سورة ق)

فما يكتبه الإنسان، وما يرسله، وما يعلّق به، وما يقوله في الخفاء، محفوظ عليه. والفراغ في وسائل التواصل قد يتحول إلى سجل طويل من كلمات ونظرات وعلاقات لا ترضي الله.

وقال تعالى:
﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (سورة الحاقة)
فما خفي عن أعين الناس في أوقات الفراغ لا يخفى عن الله، وما ستره العبد عن الخلق محفوظ في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

ثامنًا: الفراغ ورفقة السوء

الشباب مرحلة قوة الشهوة، وسرعة التأثر، وكثرة التطلع. فإذا اجتمع معها الفراغ، ورفقة السوء، وضعف العلم، وسهولة الوصول إلى الحرام، عظم الخطر واشتدت الفتنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«سَبعةٌ يُظِلُّهمُ اللهُ في ظِلِّه يَومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه وذكر منه: شابٌّ نَشَأ في عِبادةِ رَبِّه» متفق عليه
وإنما عظم شأن هذا الشاب لأن دواعي الشهوة في الشباب قوية، ومجاهدة النفس فيها أشد، فمن لم يحرس شبابه من الفراغ والغفلة كان أقرب إلى الانجراف مع الشهوة.
قال تعالى:
﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ (سورة الفرقان)
وقال تعالى:
﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة الزخرف)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«المرءُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ» رواه أبو داود
فالفراغ مع رفقة السوء يجمع بين ضعف الداخل وفساد الخارج؛ يجمع بين النفس الفارغة، والصحبة التي تزين الحرام، والمجلس الذي يهون

الفاحشة، والكلام الذي يميت الحياء، والضحك على المعصية حتى تصير مألوفة داخل القلوب.

ولهذا كان الفراغ إذا صاحبته الغفلة، والشهوة، وسوء الصحبة، ووسائل الفتنة، من أعظم أسباب الوقوع في الفاحشة وانتشارها بين الأفراد والمجتمعات.

باب صحبة السوء

من أخطر الأبواب التي يدخل منها الفساد إلى القلب والسلوك هي صحبة السوء ؛ لأن الإنسان لا يعيش بمعزل عمن يخالط، بل يتأثر بكلام أصحابه، ونظراتهم، ومزاحهم، واهتماماتهم، وطريقتهم في النظر إلى الحلال والحرام.

وقد يكون المرء في بداية أمره مستنكرًا للفاحشة، نافِرًا من مقدماتها، ثم لا يزال يسمع من أهل السوء ما يهوّنها، ويرى منهم ما يطبعها، ويجالسهم على الضحك والحديث عنها، حتى تضعف هيبتها في قلبه، ويصير ما كان يستقبحه بالأمس أمرًا مألوفًا اليوم.

وصاحب السوء لا يفسد صاحبه دفعة واحدة غالبًا، بل يجره بالتدرج: من سماع الكلام الفاحش، إلى الضحك عليه، إلى المشاركة فيه، إلى إطلاق النظر، إلى المحادثات المحرمة، إلى الخلوة، إلى التعلق، ثم إلى ما وراء ذلك من الفاحشة ومقدماتها.

قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ (سورة الفرقان)

فهذه الآيات تصور ندمًا شديدًا على صحبة أضلت صاحبها، وجعلته يتحسر يوم القيامة على خليل كان سببًا في انحرافه عن سبيل الله.

وقال تعالى:

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة الزخرف)

فكل صحبة قامت على معصية الله، وتزيين الحرام، والتعاون على الفاحشة ومقدماتها، تنقلب يوم القيامة عداوة، بعد أن كانت في الدنيا ألفة وضحكًا ومجالسة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«المرءُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ» رواه أبو داود والترمذي
وقال الشافعي رحمه الله:
فَسَل عَن رَفيقٍ قَبلَ أَن تَتَّخِذَهُ .... وَلا تَكُ مِمَّن يَعثُرُ ثُمَّ يُبالِيا
وبين النبي ﷺ أن للخليل أثرًا في دين صاحبه، لا في طبعه فقط؛ لأن كثرة المخالطة تغير الموازين، وتنقل العادات، وتضعف الحواجز بين القلب وبين ما يراه ويسمعه

أولًا: صحبة السوء تضعف تعظيم الحرام

من أعظم مخاطر صحبة السوء أنها تضعف في القلب تعظيم حدود الله. فالإنسان إذا جالس من يستهينون بالنظر المحرم، والكلام الفاحش، والعلاقات المحرمة، والمزاح الماجن، صار سماع الحرام عنده أسهل، ورؤيته أخف، والاقتراب منه أقرب.

قال تعالى:
﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (سورة النساء)
فالجلوس في مجالس الباطل ليس أمرًا هينًا؛ لأن القلب يتأثر بما يسمع، والإنكار يضعف مع التكرار، والمخالطة الطويلة تجعل المنكر مألوفًا بعد أن كان مستنكرًا.

قال تعالى:
﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الأنعام)
وإذا كان الخوض في الباطل يفسد القلب، فإن مجالس الفحش، والسخرية من العفة، والحديث عن العلاقات المحرمة، من أشد ما يميت الحياء ويضعف تعظيم الحرام.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه:
اعتبروا الناس بأخدانهم، فإن الرجل لا يخادن إلا من يعجبه.
فمن جالس أهل الفاحشة ومقدماتها، وألف طريقتهم وكلامهم، أوشك أن يتأثر بهم، فإن النفوس تسرق من الطباع كما تسرق الألسنة من الألفاظ.

ثانيًا: صحبة السوء تزين مقدمات الفاحشة

الفاحشة لا تأتي غالبًا بصورة صريحة في أول الطريق، وإنما تأتي من مقدمات صغيرة يزينها أصحاب السوء: نظرة، ورسالة، ومزاح، ومتابعة، وحديث خاص، وخروج بلا ضابط، وصورة محرمة، ثم يفتح بعضها باب بعض.
قال تعالى:
﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء)
فنهى الله عن قربان الزنا، لا عن الزنا وحده؛ لأن له طرقًا ومقدمات.
وصحبة السوء من أعظم ما يهوّن هذه المقدمات ويجعلها في نظر الإنسان عادية لا تستحق الخوف.
وقال سبحانه:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
(سورة النور)
وصاحب السوء قد يكون من أعوان الشيطان على هذه الخطوات؛ لأنه لا يدفع صاحبه إلى النهاية مرة واحدة، بل يسخر من خوفه أولًا، ثم يجرئه على البداية، ثم يزين له الاستمرار.
وقال بعض السلف:
المعاصي بريد الكفر، كما أن القُبَل بريد الجماع، والغناء بريد الزنا، والنظر بريد العشق، والمرض بريد الموت.

وهذا يبين أن المقدمات لها أثرها، وأن الاستهانة بأول الطريق قد تجر إلى آخره، وصحبة السوء من أكثر ما يلبس هذه المقدمات ثوب المزاح والتجربة والتسلية.

ثالثًا: صحبة السوء تجر إلى إطلاق البصر

من آثار صحبة السوء أنهم يجرون صاحبهم إلى إطلاق البصر، وتتبع الصور، ومشاهدة المقاطع، والتعليق على الأعراض، وتحويل النظر المحرم إلى مادة للضحك والحديث والتسلية.

قال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾

وقال سبحانه:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (سورة النور)

فبدأ الله بغض البصر قبل حفظ الفرج؛ لأن النظر باب عظيم من أبواب الفاحشة، وصحبة السوء تهدم هذا الباب حين تجعل إطلاق النظر عادة جماعية لا يستنكرها أحد.

عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« يا عليُّ ! لا تُتبعِ النَّظرةَ النَّظرَةَ، فإنَّ لَكَ الأولى ، ولَيسَتْ لَكَ الآخرَةُ» رواه أبو داود والترمذي

والنظرة إذا صارت حديثًا بين الأصحاب، ثم تعليقًا، ثم تتبعًا، ثم مقارنة، أفسدت القلب، وحركت الشهوة، وفتحت باب التعلق والطلب.

وقال ابن القيم رحمه الله:

النظرة سهم مسموم من سهام إبليس

وصاحب السوء قد يكثر من رمي هذه السهام في قلب صاحبه؛ يرسل له ما يفسده، ويدعوه إلى ما يثيره، ويجعله يعتاد النظر حتى تضعف مقاومته.



رابعًا: صحبة السوء تفسد اللسان بالكلام الفاحش

اللسان يتأثر بالمجالس، ومن جالس أهل الفحش ألف ألفاظهم، وربما كان في أول أمره يستحي من الكلمة القبيحة، ثم مع طول الصحبة يصير هو القائل والضاحك والناشر.

قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (سورة ق)

وقال سبحانه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (سورة البقرة)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ الرجلَ لَيتكلَّمُ بالكلمةِ لا يرى بها بأسًا يهوي بها سبعين خريفًا»

متفق عليه

فكلمة فاحشة، أو مزاح محرم، أو وصف يهيج الشهوة، أو قصة تنشر الفساد، قد يظنها صاحبها عابرة في مجلس أصحابه، وهي مكتوبة عليه، مؤثرة في قلبه وقلب من يسمعها.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« ليس المُؤمِنُ بالطَّعَّانِ ولا اللَّعَّانِ ولا الفاحشِ ولا البَذيءِ» رواه الترمذي

وصحبة السوء تجر اللسان إلى الفحش والبذاءة، حتى يصير الكلام عن المحرمات مألوفًا، وتصبح الألفاظ القبيحة جزءًا من شخصية الإنسان ولسانه.

خامسًا: صحبة السوء تقتل الحياء

الحياء حاجز عظيم بين العبد وبين الفاحشة، فإذا سقط الحياء سهل الكلام القبيح، والنظر المحرم، والمزاح الفاسد، والعلاقة الآثمة. وصحبة السوء من أسرع ما يضعف الحياء؛ لأنها تسخر من العفيف، وتتهم الحيي بالضعف، وتجعل الجرأة على الحرام علامة قوة أو نضج.

عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« إنَّ ممَّا أدرك النَّاسُ من كلامِ النُّبوَّةِ الأولَى : إذا لم تستحْيِ فاصنَعْ ما شئتَ» رواه البخاري

وهذا يدل على أن ذهاب الحياء يفتح الباب لكل شر؛ لأن الحياء يمنع صاحبه من اقتحام القبيح، فإذا ضعف هذا المانع تجرأ الإنسان على ما كان يستحي منه.

عن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
« الحَياءُ لا يَأْتي إلَّا بخَيرٍ» متفق عليه

وقال تعالى:
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

ومن صور إشاعة الفاحشة أن تنتشر بين الأصحاب ألفاظها وقصصها وصورها ومزاحها، حتى يضعف الحياء العام، ويصبح المنكر مادة للتسلية لا سببًا للخوف من الله.

سادسًا: صحبة السوء تفتح باب العلاقات المحرمة

كثير من العلاقات المحرمة تبدأ من رفقة فاسدة: صديق يعرّف بصديقة، أو مجموعة تزين التواصل بلا ضابط، أو مجلس يخلط بين الجنسين بلا حياء، أو صاحب يدفع صاحبه إلى محادثة لا حاجة لها، ثم تتطور العلاقة إلى تعلق وفتنة.

قال تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ (سورة المائدة)

وقال تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ (سورة النساء)

والخدن هو صاحب العلاقة الخفية المحرمة، وهي صورة تتكرر في كل زمان بأسماء مختلفة: صداقة، حب، تعارف، تسلية، أو علاقة عاطفية، وحقيقتها أنها باب من أبواب الفتنة إذا خرجت عن حدود الله.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«لا يَخلونَّ رَجُلٌ بامرَأةٍ إلَّا ومعها ذو مَحرَمٍ، ولا تُسافِرِ المَرأةُ إلَّا مع ذي مَحرَمٍ» متفق عليه

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
« لا يخلوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ فإنَّ الشيطانَ ثالثُهما» رواه الترمذي وأحمد

وصحبة السوء تضعف هيبة هذه الحدود، وتجعل المحادثات الخاصة أمرًا عاديًا، والخلوة أمرًا هينًا، والتعلق المحرم تجربة لا عاقبة لها، حتى يقع الإنسان فيما كان يحذر منه.

سابعًا: صحبة السوء تجعل المنكر ثقافة جماعية

إذا كان الإنسان وحده قد يستحي من المعصية، فإنه مع صحبة السوء يجد من يشجعه ويضحك معه ويدفعه إلى مزيد من الجرأة. وهنا لا تبقى الفاحشة مجرد ضعف فردي، بل تتحول إلى ثقافة مجموعة: يتواصون بها، ويتبادلون أسبابها، ويخففون قبحها، ويسخرون ممن يرفضها.

قال تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (سورة المائدة)

وصحبة السوء صورة من صور التعاون على الإثم، حين يتعاونون على النظر، أو الكلام الفاحش، أو نشر الصور والمقاطع، أو تيسير العلاقات المحرمة، أو ستر بعضهم على بعض في طريق الباطل.

وقال تعالى:

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (سورة المائدة)

فترك التناهي عن المنكر سبب من أسباب فساد الأمم، وصحبة السوء قائمة على هذا المعنى؛ يرى بعضهم منكر بعض، فلا ينهى، بل ربما زين وشارك وأعان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَن دعا إلى هُدًى كان له مِن الأجرِ مِثْلُ أجورِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن أجورِهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه مِن الإثمِ مِثْلُ آثامِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن آثامِهم شيئًا» رواه مسلم

فصاحب السوء لا يحمل خطر نفسه فقط، بل قد يحمل أوزار من جرهم إلى طريق الفاحشة، أو دلهم على مقدماتها، أو زينها لهم حتى وقعوا فيها.

ثامنًا: صحبة السوء تقلب الموازين

من أخطر ما تصنعه صحبة السوء أنها تقلب الموازين في القلب؛ فيرى الإنسان الفاحشة حرية، والعفة تعقيدًا، والحياء ضعفًا، وغض البصر حرمانًا، والتوبة تشددًا، والعلاقات المحرمة تجربة عادية، والبعد عنها جهلًا بالحياة.

قال تعالى:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (سورة فاطر)

وقال سبحانه:

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (سورة النمل)

وصحبة السوء من وسائل هذا التزيين؛ لأنها لا تكتفي بفعل المعصية، بل تعطيها أسماء حسنة، وتلبسها ثوب المزاح، والحرية، والانفتاح، والتجربة.

وقال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة المطففين)

فإذا تكرر سماع الباطل، ورؤية الحرام، ومجالسة أهله، وموافقتهم، عظم الران على القلب، وضعف نوره، وصار صاحبه أقل تمييزًا بين الحق والباطل.

وقال بعض أهل العلم:

من جالس أهل المعاصي هانت عليه المعصية

وهذا ظاهر؛ فإن القلب ينفر من المنكر أول مرة، ثم إذا تكرر أمامه في مجالس أصحابه ضعف نفوره، حتى يألفه، ثم ربما دافع عنه أو شارك فيه.

تاسعًا: صحبة السوء تعين الشيطان على الإنسان

الشيطان لا يأتي الإنسان وحده دائمًا، بل قد يأتيه في صورة صاحب يوسوس له، ويزين له، ويجرئه، ويضحك من خوفه، ويهون عليه الذنب، ويعده أن الأمر يسير لا عاقبة له.

قال تعالى:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (سورة الزخرف)

والقرين قد يكون من شياطين الإنس كما يكون من شياطين الجن؛ يصد عن سبيل الله، ويزين طريق الفاحشة، ويجعل صاحبه يحسب أنه على حق أو أنه لا يفعل شيئًا خطيرًا.

قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (سورة الأنعام)

فمن الناس من يكون لسانه ومجلسه ورسائله ومزاحه بابًا من أبواب الشيطان، يزين القبيح بزخرف القول، ويغري غيره بما يفسد دينه وقلبه.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّمَا مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ ، وجَلِيسِ السُّوءِ، كَحامِلِ المِسْكِ، ونافِخِ الكِيرِ، فَحامِلُ المِسْكِ، إِمَّا أنْ يَحْذِيَكَ، وإِمَّا أنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وإِمَّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، ونافِخُ الكِيرِ، إِمَّا أنْ يَحْرِقَ ثِيابَكَ، وإِمَّا أنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»

متفق عليه

فالجليس السوء لا يترك صاحبه سالمًا؛ إما أن يحرق دينه وأخلاقه، أو يترك فيه أثرًا خبيثًا من عادة أو لفظ أو نظرة أو تعلق أو جرأة على الحرام.

عاشرًا: صحبة السوء تورث الندم والخصومة يوم القيامة

قد تبدو صحبة السوء في الدنيا أنسًا وضحكًا وقربًا، لكنها تنقلب يوم القيامة ندمًا وعداوة وخصومة، لأن كل علاقة قامت على معصية الله تنقطع بركتها، ويظهر ضررها عند الحساب.

قال تعالى:

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة الزخرف)

وقال تعالى:

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾

(سورة البقرة)

فهذه نهاية الاتباع في الباطل: تبرؤ وندم بعد موافقة ومجالسة ومجاملة.

وقال تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾

(سورة الزخرف)

فالصاحب الذي كان قريبًا في طريق المعصية يتمنى صاحبه يوم القيامة أن يكون بينه وبينه أبعد ما يكون، بعدما رأى أثر صحبته على قلبه ودينه ومصيره.

ولهذا كانت صحبة السوء من أعظم أسباب الوقوع في الفاحشة وانتشارها؛ لأنها تضعف الحياء، وتزين المقدمات، وتطلق البصر واللسان، وتفتح باب العلاقات المحرمة، وتقلب الموازين، وتجعل المنكر مألوفًا في المجالس والقلوب.



باب تعسر الزواج

الزواج من أعظم أبواب العفة التي شرعها الله لعباده، وجعله سكنًا ورحمةً ولباسًا وحفظًا للفروج وصيانةً للمجتمعات. فإذا تيسر بالحلال، انغلقت به أبواب كثيرة من الفتنة، وإذا تعسّر بغير حق، وانسدت طرقه أمام الشباب والفتيات، اتسعت أبواب الشهوة، وضعف الصبر، وكثرت المداخل التي تجر إلى الفاحشة ومقدماتها.

وليس تعسُّر الزواج خطرًا فرديًا فحسب، بل هو خطر إيماني وأخلاقي واجتماعي؛ لأنه يمس فطرة الإنسان، ويؤخر طريق العفاف، ويجعل الشهوة بلا مصرف مشروع قريب، خاصة في زمان كثرت فيه المثيرات، وسهلت فيه وسائل التواصل، وانتشرت فيه صور التبرج والعلاقات المحرمة، وضعفت فيه كثير من الضوابط.

قال تعالى:﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (سورة الروم)

فجعل الله الزواج سكنًا، وإذا حُرم الإنسان من هذا السكن أو تأخر عنه مع حاجته إليه، اضطربت نفسه، واشتدت عليه الفتنة، وطلبت الشهوة طريقًا تسكن إليه، فإن لم يضبطها الإيمان والتقوى، مالت إلى ما حرم الله.

وقال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (سورة البقرة)

فالزواج ستر وسكن وقرب مشروع، فإذا ضُيّق الحلال، قويت دواعي الحرام، وصار الإنسان أضعف أمام أبواب الفتنة.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يا معشر الشبَّاب من استطاع منكم البَّاءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بًالصوم فإن الصوم له وجاء»

متفق عليه

فبين النبي ﷺ أن الزواج من أعظم ما يعين على غض البصر وحفظ الفرج، وهذا يدل على أن تعسيره وتعطيله قد يكون سببًا في ضد ذلك: إطلاق البصر، وضعف الحصانة، وكثرة التعرض لمداخل الفاحشة.

عن أبي حاتم المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إذا جاءَكُم مَن تَرضَونَ دينَهُ وخُلقَهُ، فأنكِحوهُ، إلَّا تَفعلوهُ تَكُن فِتنةٌ في الأرْضِ وفَسادٌ كبيرٌ، وفي روايةٍ : عَريضٌ : قالوا : يا رَسولَ اللَّهِ وإن كانَ فيهِ قالَ : إذا جاءَكُم مَن تَرضَونَ دينَهُ وخلقَهُ فأنكِحوهُ قالَها ثَلاثَ مرَّاتٍ» رواه البخاري الترمذي

وهذا الحديث من أوضح النصوص في بيان خطر تعطيل الزواج وردّ الأكفاء بغير حق؛ إذ ربط ﷺ بين منع الزواج المشروع وبين وقوع الفتنة والفساد العريض.

أولًا: تعسُّر الزواج يفتح باب الفتنة

حين تتأخر أسباب الزواج مع قوة الشهوة وكثرة المثيرات، تشتد الفتنة على القلب والجوارح. فالإنسان مفطور على الميل، والشهوة إذا لم تجد طريقها الحلال، صارت النفس أكثر عرضة للاضطراب، والتطلع، والتعلق، والبحث عن بدائل محرمة.

قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (سورة النساء)

وجاءت هذه الآية في سياق الحديث عن أحكام النساء والنكاح وما يتعلق بالشهوة، وفيها إشارة إلى ضعف الإنسان أمام دواعي الفتنة إذا لم يُرحم بشرع الله وحدوده.

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ (سورة النساء)

فإذا جعل الناس طريق الحلال شاقًا مثقلًا بالعادات والطلبات والمغالاة، وقعوا في خلاف مقصد التخفيف، وفتحوا على أنفسهم وعلى أبنائهم أبوابًا من العنت والحرج.

وقال ابن كثير رحمه الله في معنى قوله تعالى:

﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾: أي في أمر النساء

وهذا المعنى يبين أن باب الشهوة باب ضعف يحتاج إلى رحمة الشرع وتيسير الحلال، لا إلى تعقيد يترك النفوس تحت ضغط الفتنة.

ثانيًا: تعسُّر الزواج يكثر معه إطلاق البصر

من أعظم آثار تعسُّر الزواج أن يضعف حفظ البصر عند كثير من الناس، لأن الشهوة إذا طال بها الانتظار، وكثرت حولها المثيرات، صارت العين أكثر تطلعًا، والقلب أسرع تعلقًا، والنفس أضعف مقاومة.

قال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾

وقال سبحانه:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (سورة النور)

فبدأ الله بغض البصر قبل حفظ الفرج؛ لأن النظر من أعظم أبواب الفتنة. والزواج سبب من أسباب إعفاف البصر، فإذا تعسر الزواج، عظمت الحاجة إلى المجاهدة، واشتد خطر النظرة المحرمة.

قال رسول الله ﷺ: «فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج» متفق عليه

فدل ذلك على أن الزواج له أثر مباشر في غض البصر وحفظ الفرج، وأن تأخيره وتعسيره يترك النفس في مواجهة فتنة البصر مدة أطول، خاصة في زمن الصور والمقاطع والمنصات المفتوحة.

وقال ابن القيم رحمه الله:

النظرة سهم مسموم من سهام إبليس

فإذا اجتمع تأخر الزواج، وكثرة الفراغ، وسهولة النظر إلى الحرام، وضعف المراقبة، صار خطر هذا السهم أعظم وأسرع أثرًا في القلب.

ثالثًا: تعسُّر الزواج يفتح أبواب العلاقات المحرمة

كثير من العلاقات المحرمة تبدأ من حاجة عاطفية لم تجد طريقها المشروع، أو من تأخر الزواج مع ضعف العلم والصبر، أو من بيئة تجعل الحلال صعبًا والحرام قريبًا. وحين يجد الشاب أو الفتاة أن طريق الزواج مليء بالعقبات، قد تضعف النفس أمام طريق محرم يبدو أسهل وأسرع وأقل كلفة.

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء)

فنهى الله عن قربان الزنا، لا عن الزنا وحده، لأن له مقدمات وطرقات، منها التعلق، والخلوة، والمحادثات الخاصة، والتوسع في المزاح، وإطلاق النظر، واللقاءات المحرمة.

وقال تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ (سورة المائدة)

وقال سبحانه: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ (سورة النساء)

والخدن كما ذكرنا هو صاحب العلاقة الخفية المحرمة، وهي صورة قديمة تتجدد في كل زمان بأسماء مختلفة، فتسمى صداقة، أو حبًا، أو تعارفًا، أو علاقة عاطفية، وهي في حقيقتها باب من أبواب الفتنة إذا خرجت عن حدود الله.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يَخلونَّ رَجُلٌ بامرَأةٍ إلَّا ومعها ذو مَحرَمٍ، ولا تُسافِرِ المَرأةُ إلَّا مع ذي مَحرَمٍ» متفق عليه

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« لا يخلوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ فإنَّ الشيطانَ ثالثُهما» رواه الترمذي وأحمد

وتعسُّر الزواج يوسع مساحة هذه العلاقات؛ لأن الحاجة إلى الأنس والمودة والقرب إذا حُرمت طريقها المشروع، بحثت عنها النفوس الضعيفة في طرق محرمة، ثم تبدأ العلاقة بكلام، وتنتهي بما لا تحمد عقباه.

رابعًا: تعسُّر الزواج يضعف الحياء في المجتمع

إذا أصبح الزواج عسيرًا، وكثرت العوائق، وامتدت سنوات الانتظار، ومع ذلك بقيت أبواب الفتنة مفتوحة، بدأ الحياء يضعف في النفوس والمجتمعات. فالكلام الذي كان يستحيا منه يصبح مألوفًا، والعلاقات التي كانت تُستنكر تصبح عادية، والتجاوزات التي كانت تُخفى تصبح مما يتحدث به الناس أو يتساهلون فيه.

عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ ممَّا أدرك النَّاسُ من كلامِ النُّبوَّةِ الأولَى : إذا لم تستحْيِ فاصنَعْ ما شئتَ» رواه البخاري

فذهاب الحياء يفتح أبواب الشر، وإذا ضعف الحياء بسبب طول التعرض للفتنة وتعسر الحلال، تجرأت النفوس على ما كانت تخجل منه.

عن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الحَياءُ لا يَأْتي إلَّا بخَيرٍ» متفق عليه

والفاحشة لا تنتشر في مجتمع حتى يسبقها ضعف الحياء، وكثرة التبرير، وسقوط الحواجز النفسية التي كانت تمنع الناس من الاقتراب منها.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

وإذا تعسر الحلال، وانتشرت صور الحرام، وضعف الحياء، صارت الفاحشة أقرب إلى الشيوع في الأحاديث، والمشاهد، والعلاقات، والعادات.

خامسًا: المغالاة في المهور والتكاليف من أبواب الفساد

من صور تعسُّر الزواج أن يتحول الزواج من ميثاق شرعي وسكن ورحمة إلى عبء مادي ثقيل، ومنافسة اجتماعية، ومظاهر مرهقة، ومطالب لا يطيقها كثير من الشباب. فإذا صار الزواج حكرًا على

القادرين على التكاليف العالية، تأخر كثير من الناس عن طريق العفة، وبقيت الشهوات مضغوطة بلا ستر مشروع.

قال تعالى:

﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة الأعراف)

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾

(سورة الإسراء)

والإسراف في أمر الزواج يخرجه عن مقصده، ويجعله سببًا في التعطيل والتأخير، بدل أن يكون بابًا للعفة والستر.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

لا تغالوا في صدقات النساء؛ فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله، كان أولاكم بها النبي ﷺ

وهذا الأثر يدل على أن المغالاة ليست علامة كرامة ولا تقوى، بل قد تكون سببًا في العنت والمشقة وتعطيل المصالح.

وقال بعض أهل العلم:

كلما عظمت المؤونة تأخر المقصود

والمقصود من الزواج السكن والعفة وبناء الأسرة، فإذا طغت المؤونة على المقصود، صار الطريق إلى الحلال طويلًا، والطريق إلى الحرام في أعين الضعفاء أقرب وأيسر.

سادسًا: ردُّ الأكفاء بغير حق يفتح باب الفتنة

من أعظم أسباب تعسُّر الزواج ردُّ صاحب الدين والخلق لأسباب دنيوية محضة، أو لمقاييس اجتماعية متكلفة، أو للمبالغة في الشروط، أو للتعلق بالمظاهر والأنساب والأموال، مع أن الأصل في بناء الأسرة الدين والخلق والقدرة على تحمل المسؤولية.

عن أبي حاتم المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إذا جاءَكُم مَن تَرضَونَ دينَهُ وخُلقَهُ، فأنكِحوهُ، إلَّا تَفعلوهُ تَكُن فِتنةٌ في الأرْضِ وفَسادٌ كبيرٌ، وفي روايةٍ : عَريضٌ : قالوا : يا رَسولَ اللَّهِ وإن كانَ فيهِ قالَ : إذا جاءَكُم مَن تَرضَونَ دينَهُ وخلقَهُ فأنكِحوهُ قالَها ثَلاثَ مرَّاتٍ» رواه البخاري والترمذي

والحديث صريح في أن رد صاحب الدين والخلق إذا ترتب عليه تعطيل الزواج يورث فتنة وفسادًا واسعًا، لأن النفوس لا تبقى بلا حاجة، والمجتمع لا يأمن من آثار التعطيل.

قال تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات)

فإذا استبدلت المجتمعات ميزان التقوى بميزان المظاهر والمباهاة، ضعفت البركة، وتأخر الزواج، وكثرت الحسرة، واتسعت أبواب الفتنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«تُنكَحُ المَرأةُ لأربعٍ: لمالِها، وحَسَبِها، ودِينِها، وجَمالِها؛ فاظفَرْ بذاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَداكَ» متفق عليه

فإذا غاب ميزان الدين عن الاختيار، وحضر ميزان التفاخر والشكليات وحده، صار الزواج أصعب، وصارت العفة أثقل على كثير من الناس.

سابعًا: تعسُّر الزواج يورث اضطرابًا نفسيًا وعاطفيًا

الإنسان ليس جسدًا فقط، بل له حاجة إلى السكن والمودة والرحمة والأنس. فإذا طال تأخر الزواج مع وجود الرغبة والحاجة، وتكرر الحرمان من الطريق المشروع، قد تنشأ في النفس اضطرابات وتعلقات وأوهام وأحزان، وربما يتحول الفراغ العاطفي إلى تعلق محرم أو بحث عن بدائل فاسدة.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (سورة الروم)

فالمودة والرحمة من مقاصد الزواج، وليستا أمرًا هامشيًا في حياة الإنسان. فإذا ضاقت أبواب المودة المشروعة، اتسعت في المقابل أبواب التعلق غير المنضبط عند من ضعف قلبه.

وقال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (سورة النساء)

ومن ضعف الإنسان أنه يحتاج إلى من يسكن إليه، ويأنس به، ويحفظ معه نفسه. فإذا طالت العزلة، وكثر التعرض للمثيرات، وقلّت أسباب العفة، صارت النفس أكثر هشاشة أمام الفتنة.

قال ابن القيم رحمه الله:

القلب إذا خلا من محبة الرحمن ابتلي بمحبة الصور

وهذا المعنى ظاهر في باب العلاقات المحرمة؛ فإن القلب إذا ضعف إيمانه، وطال فراغه، وتأخر سكنه المشروع، قد يتوجه إلى تعلق محرم يظنه حبًا، وهو في حقيقته فتنة وبلاء.

ثامنًا: تعسُّر الزواج يساعد على انتشار الفاحشة في المجتمع

حين يصبح الزواج صعبًا والحرام سهلًا، والحلال مثقلًا والفتنة قريبة، يضعف حاجز العفة في المجتمع. ولا ينتشر الانحراف فجأة، بل يسبقه غالبًا تعقيد للحلال، وتسهيل للحرام، وتطبيع للعلاقات، وسخرية من الطهارة، وإعجاب بثقافات لا تقيم لحدود الله وزنًا.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(سورة النور)

ومن خطوات الشيطان أن يثقل الحلال في أعين الناس، ويزين الحرام، حتى يرى الضعيف أن الزواج بعيد، والعلاقة المحرمة قريبة، وأن العفة صعبة، والفاحشة متاحة.

وقال تعالى:
﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (سورة مريم)
فاتباع الشهوات علامة على فساد الأجيال إذا ضعفت صلتها بالله، وكثرت عليها أسباب الانحراف، وغابت عنها المعاني التي تحفظ الفطرة.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«ما تركتُ بعدي فتنةً أَضَرَّ على الرجالِ من النساءِ» متفق عليه
وهذا يدل على عظم فتنة الشهوة، فإذا اجتمعت هذه الفتنة مع تعسر الزواج، وكثرة المثيرات، وضعف الرقابة، وفساد الصحبة، كان أثرها على المجتمع شديدًا.

تاسعًا: تعسُّر الزواج يبدل صورة الزواج في النفوس

إذا غلبت المظاهر والتكاليف والشروط على معنى الزواج، تغيرت صورته في نفوس الشباب والفتيات؛ فبدل أن يروه بابًا للسكن والعفة والرحمة، يرونه عبئًا ثقيلًا، ومخاطرة اجتماعية، ومشروعًا ماديًا معقدًا.
وهذا التبدل في التصور من أخطر ما يسبق انتشار الفاحشة؛ لأن النفوس إذا نفرت من الحلال، سهل عليها أن تتساهل مع الحرام.
قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (سورة البقرة)
والشريعة مبناها على الرحمة والحكمة ورفع الحرج، فإذا أدخل الناس على الزواج من العسر ما لم يأذن به الله، صاروا سببًا في تنفير النفوس من طريق مشروع جعله الله سكنًا ورحمة.
قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (سورة الحج)
فإذا تحولت العادات إلى حرج يصد عن الزواج، صار أثرها خطرًا على العفة، لأن الحرج إذا دخل باب الحلال دفع بعض النفوس الضعيفة إلى أبواب الحرام.
قال بعض أهل العلم:
ما عُسِّر أمر مباح يحتاجه الناس إلا فتح الشيطان لهم بابًا من الحرام

وهذا المعنى يظهر بوضوح في باب الزواج؛ فإن الحاجة إليه عامة، وتعسيره يترك آثارًا واسعة في الأفراد والأسر والمجتمعات.

عاشرًا: تعسُّر الزواج يزيد خطر الفتن المعاصرة

في الأزمنة الماضية كان تعسر الزواج خطرًا، لكنه في هذا الزمان أشد خطرًا؛ لأن وسائل الفتنة صارت أقرب، والصور المحرمة أكثر انتشارًا، والعلاقات أسهل وصولًا، والدعوات إلى الانفلات أقوى حضورًا، والشبهات التي تبرر الفاحشة أكثر رواجًا.

قال تعالى:

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (سورة الإسراء)

فالسمع والبصر والفؤاد في هذا العصر تتعرض لفتن متتابعة، فإذا طال تأخر الزواج، واشتدت الحاجة، وضعفت الحراسة الإيمانية، أصبح الإنسان أقرب إلى التأثر بما يسمع ويرى ويتابع.

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (سورة غافر)

فالعين قد تخون في لحظة، والقلب قد يختبئ فيه تعلق أو شهوة، وتعسر الزواج مع كثرة المثيرات يزيد هذه المعركة شدة على النفوس.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« بادروا بالأعمالِ فتنًا كقطعِ اللَّيلِ المظلمِ ، يصبحُ الرَّجلُ مؤمنًا ويمسي كافرًا ، ويمسي مؤمنًا ويصبحُ كافرًا يبيعُ أحدُهم دينَهُ بعرضٍ منَ الدُّنيا»

رواه مسلم والترمذي

وفي زمن تتكاثر فيه الفتن كقطع الليل، يكون تعسير أبواب العفة من أخطر ما يعرض الأفراد والمجتمعات للاضطراب والانحراف، لأن النفوس الضعيفة إذا طال عليها الطريق المشروع، وتزين لها الطريق المحرم، لم تأمن على نفسها من السقوط.



باب ضعف الرقابة الأسرية

الأسرة هي الحصن الأول الذي ينشأ فيه الإنسان، ويتلقى فيه معاني الإيمان والحياء والعفة، ويتعلم فيه حدود الحلال والحرام، ويرى فيه القدوة قبل أن يسمع فيه الموعظة.

فإذا ضعفت الرقابة الأسرية، وغاب التوجيه، وانشغل الوالدان عن أبنائهم وبناتهم، وتُركت النفوس الصغيرة والشابة وحدها أمام الشهوات والشبهات ووسائل الفتنة، اتسعت أبواب الانحراف، وصار الوقوع في الفاحشة ومقدماتها أقرب وأيسر.

وليس المقصود بالرقابة الأسرية مجرد المتابعة الظاهرة، بل المسؤولية التي جعلها الله على أهل البيت من الرعاية، والتوجيه، والحفظ، والتعليم، والملاحظة لما يدخل إلى القلوب والبيوت من المؤثرات.

فإذا غابت هذه المسؤولية، نشأ فراغ تربوي خطير، قد تملؤه صحبة السوء، والإعلام الفاسد، والعلاقات المحرمة، و الشهوات الخفية، والمفاهيم المنحرفة.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (سورة التحريم)

وهذه الآية تجعل على المؤمن مسؤولية تجاه أهله، لا تجاه نفسه فقط.

فإذا ضاعت هذه المسؤولية، تُرك الأبناء والبنات لما يحيط بهم من فتن، وصار البيت ضعيف الحراسة أمام أبواب الفاحشة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (سورة النساء)

فالله هو الرقيب الأعلى على عباده، ومن استحضر رقابة الله علم أن رعاية الأهل أمانة لا يجوز التفريط فيها.

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ فالأميرُ الذي على الناسِ راعٍ عليهم وهو مسؤولٌ عنهم والرجلُ راعٍ على أهلِ بيتِهِ وهو مسؤولٌ عنهم والمرأةُ راعيةٌ على بيتِ بعلها وولدِهِ وهي مسؤولةٌ عنهم وعبدُ الرجلِ راعٍ على بيتِ سيدِهِ وهو مسؤولٌ عنهُ ألا فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ» متفق عليه

فجعل النبي ﷺ مسؤولية البيت أمانة، والتفريط في هذه الأمانة ليس أمرًا هينًا؛ لأن ضياع الرعية قد يفتح عليهم أبوابًا من الفتن لا يعلم مداها إلا الله.

أولًا: ضعف الرقابة يفتح باب الغفلة

إذا غاب الوعي الأسري، وتُرك البيت بلا توجيهٍ ومتابعةٍ، تحولت الغفلة إلى جو عام يعيش فيه الأبناء والبنات.

وقد تكون الفتنة داخل البيت لا خارجه، في غرفة مغلقة، و هاتف مفتوح، وشاشة لا رقيب عليها، وعلاقة لا يعلم بها أحد إلا الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ (سورة الأعراف)

وقال سبحانه:

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (سورة الأنبياء)

فالغفلة إذا دخلت البيت، ضعفت هيبة الحرام، وتراجع حضور الآخرة، وصارت المعصية أقرب إلى النفوس، خاصة إذا اجتمع معها الفراغ والشهوة ووسائل الفتنة.

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (سورة غافر)

فالعبد قد يخفى أمره على أهله، وقد تغيب عنه أعين الناس، لكن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وضعف الرقابة الأسرية قد يجعل الإنسان يعتاد الخفاء عن الخلق، حتى يضعف في قلبه استحضار نظر الخالق.

قال القحطاني رحمه الله:

وإذا خلوتَ بريبةٍ في ظلمةٍ .... والنفسُ داعيةٌ إلى الطغيانِ

فاستحيِي من نظرِ الإلهِ وقل لها.... إن الذي خلقَ الظلامَ يراني

وقال ابن القيم رحمه الله:

من أعظم العقوبة أن يفتح للعبد باب المعصية ثم يُحجب عن التوبة والبيت الغافل قد لا يرى بدايات المعصية حتى تستحكم، ولا ينتبه إلى الخطر إلا بعد أن يكون القلب قد تعلق، أو العين قد ألفت، والنفس قد اعتادت.

ثانيًا: ترك الأبناء لوسائل الفتنة

من أخطر صور ضعف الرقابة في زمن الفاحشة المعاصرة أن تُترك الأجهزة والشاشات والمنصات بلا ضوابط ولا وعي ولا متابعة، مع ما فيها من الصور، والمقاطع، والرسائل، والعلاقات، والدعوة إلى الانفلات، والتطبيع للفاحشة، والتزيين لها.

قال تعالى:

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (سورة الإسراء)

فالسمع مسؤول عما يسمع، والبصر مسؤول عما يرى، والقلب مسؤول عما يتعلق به ويتأثر به. وإذا تُرك الأبناء والبنات وحدهم أمام أبواب لا تنتهي من الصور والكلمات والمشاهد، كان ذلك من أعظم أسباب فساد القلب وضعف الحياء.

وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (سورة ق)

فكل محادثة، وتعليق، ورسالة، وكلمة، محفوظة عند الله. وضعف الرقابة الأسرية يجعل كثيرًا من المحادثات تنمو في الخفاء، حتى تنتقل من كلام عابر إلى تعلق محرم، ومن تعلق إلى لقاء أو فاحشة.

وقال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة المطففين)

وكثرة التعرض للمشاهد المحرمة، والكلام الفاسد، والعلاقات الخفية، تورث القلب الّران والقسوة، وتجعل الحرام مألوفًا بعد أن كان مستنكرًا مرفوضًا.

ثالثًا: ضعف الرقابة يضعف الحياء

الحياء ينشأ في البيت قبل أن يظهر في المجتمع، فإذا كان البيت لا يحفظ حدوده، ولا ينتبه لما يراه الأبناء ويسمعونه، ولا يغرس فيهم تعظيم العفة، ضعف الحياء شيئًا فشيئًا، وصار الكلام القبيح، والنظر المحرم، والمزاح الفاسد، والعلاقات غير المنضبطة من الأمور المألوفة

عن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«الحَياءُ لا يَأْتي إلَّا بخَيرٍ» متفق عليه

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّ ممَّا أدرك النَّاسُ من كلامِ النُّبوَّةِ الأولَى : إذا لم تستحْيِ فاصنَعْ ما شئتَ» رواه البخاري

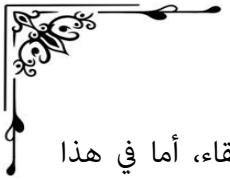
فإذا ضعف الحياء، تجرأت النفس على ما كانت تستحي منه، وإذا سقط حاجز الحياء داخل البيت، صار الإنسان أكثر جرأة على الحرام خارجه وفي خلوته

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

ومن صور إشاعة الفاحشة أن تدخل ألفاظها وصورها ومشاهدها إلى البيوت بلا إنكار ولا استحياء، حتى تنشأ عليها القلوب الصغيرة، وتضعف عندها مهابة الحرام ولذلك فإن من الذي يكثر من مخالطة المنكر يقل إنكاره له.

وهذا يظهر في البيت إذا كثر فيها التعرض للمنكرات، أو سُمح لها بالدخول عبر الشاشات والمحادثات والمجالس، فإن القلب يضعف إنكاره بالتدريج.



رابعًا: ضعف الرقابة يفتح باب الخلوة

كانت الخلوة المحرمة في السابق تحتاج إلى مكان ولقاء، أما في هذا الزمان فقد تكون الخلوة عبر شاشة، أو محادثة خاصة، أو اتصال طويل، أو علاقة لا يعلم بها أحد. وضعف الرقابة الأسرية يجعل هذه الخلوات الخفية أكثر سهولة وانتشارًا.

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء

فالنهي عن قربان الزنا يشمل مقدماته وطرقه، ومن أخطرها الخلوة والتعلق والمحادثات الخاصة التي تضعف الحواجز وتمهد للفاحشة.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يَخلونَّ رَجُلٌ بامرَأةٍ إلَّا ومعها ذو مَحرَمٍ، ولا تُسافِرِ المَرأةُ إلَّا مع ذي مَحرَمٍ» متفق عليه

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يخلوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ فإنَّ الشيطانَ ثالثُهما» رواه الترمذي وأحمد

والخلوة لا يزول خطرها لمجرد أنها صارت عبر وسيلة حديثة؛ لأن العلة باقية وهي الانفراد، والخفاء، والحديث الذي يفتح باب الشهوة، والشيطان الذي يزين ويقرب الخطوات.

وقال تعالى:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ ﴿سورة النساء ﴾

وضعف الرقابة الأسرية قد يربي في النفس عادة الاستخفاء عن الناس، مع نسيان نظر الله، وهذا من أخطر ما يفسد القلب ويجرئه على المعصية.

خامسًا: ضعف الرقابة وصحبة السوء

من أعظم آثار ضعف الرقابة أن يجهل الوالدان حقيقة من يصاحب أبناءهم وبناتهم، ومن يؤثر فيهم، ومن يملأ أوقاتهم وأفكارهم.

والصحبة الفاسدة قد تكون بابًا مباشرًا إلى الكلام الفاحش، وإطلاق البصر، والعلاقات المحرمة، وتطبيع المعصية.

قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ (سورة الفرقان)

وقال عز وجل:

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿سورة الزخرف﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«المرءُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ» رواه أبو داود

فالصاحب يؤثر في الدين والخلق، وإذا غابت الرقابة الأسرية عن هذا الباب، دخلت على الأبناء والبنات مؤثرات لا تظهر آثارها في البداية، لكنها تغير اللسان، والسلوك، والحياء، والنظرة إلى الحلال والحرام.

قال ابن مسعود رضي الله عنه:

اعتبروا الناس بأخدانهم، فإن الرجل لا يخادن إلا من يعجبه

فالصحبة مرآة لما يستقر في القلب، وضعف متابعة هذا الباب قد يجعل الأسرة آخر من يعلم بانحراف بدأ من صاحب أو مجموعة أو محادثة.

سادسًا: ضعف الرقابة يؤخر اكتشاف الانحراف

من مخاطر ضعف الرقابة أن الأسرة قد لا تنتبه إلى بدايات الانحراف إلا بعد أن تتعمق آثاره.

فقد تبدأ الفتنة بنظرة، أو محادثة، أو تعلق، أو متابعة، أو صورة، ثم تتطور في الخفاء حتى تصير عادة أو علاقة أو فاحشة.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(سورة النور)

فالشيطان له خطوات، وضعف الرقابة يجعل هذه الخطوات تمر بلا انتباه، حتى يظن الأهل أن الأمر بعيد، وهو يقترب شيئًا فشيئًا.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿سورة فاطر﴾

ومن خطورة الشيطان أنه لا يعلن النهاية من البداية، بل يفتح للإنسان أبوابًا صغيرة، ثم يجره منها إلى ما وراءها.

قال ابن القيم رحمه الله:

دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة، فدافع الفكرة، فإن لم تفعل صارت شهوة، فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلًا

وهذا يبين أن الانحراف له بدايات دقيقة، وأن الغفلة عن البدايات قد تجعل النهاية أشد وأقسى.

سابعًا: تبديل المرجعية في قلب الأبناء

إذا غاب دور الأسرة في التوجيه والبيان، بحث الأبناء والبنات عن مرجع أخر لهم ليشكل أفكارهم ومشاعرهم وسلوكهم.

وقد يكون هذه المرجع صديقًا فاسدًا، أو مشهورًا منحرفًا، أو محتوى يزين الفاحشة، أو ثقافة تجعل العلاقات المحرمة أمرًا عاديًا.

قال تعالى:
﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ﴿سورة فاطر﴾
وقال سبحانه:
﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿سورة النمل﴾
فإذا لم يجد القلب من يبين له الحق، وجد من يزين له الباطل. وإذا ضعفت الأسرة في بناء الميزان الشرعي، دخلت موازين أخرى تجعل الحرام حرية، والعفة تعقيدًا، والحياء ضعفًا، والتوبة تشددًا.
قال تعالى:
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿سورة الأنعام﴾
وزخرف القول في هذا الزمان كثير من كلمات براقة، ومقاطع مؤثرة، ومفاهيم ناعمة، لكنها تحمل في داخلها تزيينًا للفاحشة، أو تهوينًا لمقدماتها، أو تمردًا على حدود الله.

ثامنًا: ضعف الرقابة يضعف العبادة

الصلاة والعبادة من أعظم ما يحفظ القلب من الفاحشة، فإذا ضعفت المتابعة الأسرية للصلاة، وقلَّ حضور القرآن والذكر في البيت، واعتاد الأبناء الغفلة، ضعف الحاجز الإيماني الذي يمنعهم من الانجراف إلى الحرام.
قال تعالى:
﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ﴿سورة طه﴾

وقال سبحانه:
﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ ﴿سورة العنكبوت﴾
فإذا ضعفت الصلاة في البيت، ضعف أثرها في النهي عن الفحشاء والمنكر، وصار القلب أضعف أمام الشهوة والهوى.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
« مُرُوا أولادَكُم بالصلاةِ وهُم أبناءُ سبعِ سنينَ، واضرِبُوهُم عليهَا وهُمْ أبْنَاءُ عَشْرٍ وفرِّقُوا بينهم في المَضَاجِعِ» رواه أبو داود والترمذي
وهذا الحديث يدل على أن التربية على العبادة والحدود تبدأ مبكرًا، وأن التفريط فيها يفتح أبوابًا من الغفلة والتساهل، خاصة إذا اجتمع ضعف الصلاة مع ضعف الحياء وكثرة الفتن.
قال تعالى:
﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ ﴿سورة مريم﴾
فجمع الله بين إضاعة الصلاة واتباع الشهوات، لأن ضعف الصلة بالله يفتح على النفس أبواب الهوى.

تاسعًا: ضعف الرقابة يفسد الحدود داخل البيت

جعل الإسلام للبيت حرمته، وللعورات سترها، وللدخول والخروج والاستئذان آدابه، لأن البيت إذا ضاعت حدوده ضعف الحياء بين أهله، ورأى الصغير ما لا ينبغي أن يرى، وسمع ما لا ينبغي أن يسمع، ونشأ على التساهل الذي يؤثر في عفته وخُلقهِ.
قال تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا

عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿سورة النور﴾

وقال تعالى:

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿سورة النور﴾

وهذه الآيات تدل على أن الشرع راعى أدق أبواب الحياء داخل البيت، وأن إهمال الحدود الأسرية قد يفتح على النفوس أبوابًا من الجرأة، أو الاطلاع على ما يفسد الفطرة والحياء.

قال الماوردي رحمه الله:

من أهمل الأدب في الصغر عسر عليه حمله في الكبر

والبيت الذي لا تُحفظ فيه الآداب والحدود قد يربي في النفس استخفافًا بالحرمات، وهذا الاستخفاف إذا كبر مع صاحبه ظهر أثره في نظره ولسانه وعلاقاته.

عاشرًا: ضعف الرقابة يجعل البيت طريقًا لا حصنًا

الأصل أن يكون البيت مأوى للسكينة، ومكانًا لحفظ الدين والخلق والحياء، فإذا ضعفت فيه المسؤولية، صار طريقًا لدخول الفتن بدلًا من أن يكون حصنًا منها.

وقد يكون الخطر في بيتٍ ظاهره الستر، ولكن داخله الغفلة، والأجهزة المفتوحة، والصلوات المضيعة، والصحبة المجهولة، والمحادثات الخفية، والحياء المتآكل.

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ﴿سورة الفرقان﴾

وقرة العين في الذرية لا تكون مع ضياع الدين والحياء، ولا مع تركهم نهبًا للفتن والشهوات.

وقال تعالى:
﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

﴿سورة الأنفال﴾

فالأولاد نعمة وفتنة، ومن أعظم الفتنة فيهم أن يفرط الإنسان في رعايتهم حتى يراهم يسيرون في طريق لا يرضي الله.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« إنَّ اللهَ سائلٌ كلَّ راعٍ عمَّا استرعاه: أحفِظ أم ضيَّع حتَّى يسأَلَ الرَّجلَ عن أهلِ بيتِه» رواه النسائي وابن حبان

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« ما مِنْ عبدٍ يسترْعيه اللهُ رعيَّةً، يموتُ يومَ يموتُ ، وهوَ غاشٌّ لرعِيَّتِهِ، إلَّا حرّمَ اللهُ عليْهِ الجنَّةَ» متفق عليه

وهذا يدل على خطورة التفريط في الرعية، وأن ضعف الرقابة الأسرية ليس مجرد خطأ تربوي، بل أمانة عظيمة يُسأل عنها الإنسان بين يدي الله.

ولهذا فإن ضعف الرقابة الأسرية من أسباب الوقوع في الفاحشة وانتشارها؛ لأنه يفتح باب الغفلة، ويترك النفوس لوسائل الفتنة، ويضعف الحياء، ويؤخر اكتشاف الانحراف، ويبدل المرجعية، ويجعل البيت أقل قدرة على حماية القلوب من مقدمات الحرام.باب أثر الفاحشة على العبد

ليست الفاحشة ذنبًا عابرًا يمر على العبد بلا أثر، بل هي نار إذا دخلت القلب أحرقت حياءه، وأضعفت إيمانه، وشوهت فطرته، وقطعت عنه لذة الطاعة، وجعلته جريئًا على حدود الله.

وقد يظن الغافل أنه وجد لذة، وما هي إلا لذة موهومة يعقبها ضيق، وندم، وقسوة، ووحشة، وذل، واضطراب.

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء)

فلم يصفه الله بأنه فاحشة فقط، بل قال: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾؛ لأنه طريق سيئ في بدايته ونهايته، يضر القلب والدين، ويهدم الحياء، ويفسد علاقة العبد بربه وبنفسه وبالناس.

قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (سورة الأعراف)

فالفاحشة محرمة ظاهرًا وباطنًا، وأثرها كذلك ظاهرٌ وباطن؛ يظهر على الجوارح والسلوك، ويستقر في القلب والنية وتفكير العبد.

أولًا: ضعف الإيمان

الفاحشة من أعظم آثارها أنها تضعف الإيمان في القلب؛ لأن الإيمان الحي يمنع صاحبه من انتهاك حدود الله، فإذا غلبت الشهوة، وضعف الحياء، وغابت المراقبة، تجرأ العبد على ما حرم الله.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يَزني الزَّاني حينَ يَزني وهو مُؤمِنٌ، ولا يَسرِقُ السَّارِقُ حينَ يَسرِقُ وهو مُؤمِنٌ» رواه مسلم

وهذا يدل على أن الفاحشة لا تجتمع مع كمال الإيمان الواجب؛ لإن الإيمان إذا كان قويًا منع صاحبه، وإذا ضعف سهلت المعصية، وإذا تكررت المعصية ازداد الضعف حتى يخشى على القلب من القسوة والران.

قال تعالى:

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (سورة الروم)

والمعاصي إذا استمر عليها العبد قد جرته إلى ما هو أشد منها وأشد، حتى يضعف تصديقه، ويهون عليه أمر الله ونهيه.



ثانيًا: قسوة القلب

الفاحشة تترك في القلب ظلمة وقسوة، وكلما تكررت المعصية تراكم أثرها، حتى يقل تأثر العبد بالقرآن والموعظة، ويضعف بكاؤه من خشية الله، ويستثقل الطاعة، ويأنس بالغفلة والذنوب.

قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة المطففين)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن العبدَ إذا أخطأ خطيئةٌ نُكِتتْ في قلبهِ نُكتةً سوداءَ فإذا هو نزعَ واستغفرَ وتابَ سُقلَ قلبهُ وإن عادَ زيدَ فيها حتى تعلو قلبهُ وهو الرانُ الذي ذكرَ اللهُ كَلّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ» رواه ابن ماجه

ومن هنا نعلم أن الفاحشة إذا تكررت صنعت في القلب رانًا وظلمة، حتى يصبح الذنب مألوفًا هينًا محببًا بعد أن كان خيفًا عظيمًا مكروهًا.

وقد ذكر ابن القيم وغيره: أن الذنوب تضعف حياة القلب، وأن القلب يمرض بالمعصية كما يمرض البدن بالداء، ولا يبرأ إلا بالتوبة والطاعة والذكر ومجاهدة الهوى.

ثالثًا: ذهاب الحياء

الحياء حصن الإيمان، فإذا هُتك هذا الحصن تجرأ العبد على كل معصية، وخف عليه نظر الله إليه، ثم خف عليه نظر الناس، وربما انتقل من الاستتار بالذنب إلى المجاهرة به أو الدفاع عنه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ» متفق عليه

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ ممَّا أدرك النَّاسُ من كلامِ النُّبوَّةِ الأولَى : إذا لم تستحْيِ فاصنَعْ ما شئتَ» رواه البخاري

فإذا ضعف الحياء، سهل على العبد إطلاق البصر، والكلام الفاحش، والمشاهدة المحرمة، والخلوة الآثمة، ثم لا يزال يتدرج حتى يعتاد كل ما كان يستحي منه في البداية.

والفاحشة لا تقتل الحياء دفعة واحدة، بل تضعفه شيئًا فشيئًا: نظرة، ثم متابعة، ثم كلام، ثم خلوة، ثم تعلق، ثم جرأة، حتى يرى العبد أن الحرام أمر عادي لا يستحق الخوف والإنكار.

رابعًا: طمس نور البصيرة

من عقوبة الفاحشة أنها تضعف بصيرة العبد، فيرى القبيح حسنًا، والحرام لذة، والنصيحة تضييقًا، والعفة حرمانًا، والحياء ضعفًا.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ (سورة فاطر)

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ (سورة آل عمران)

وإذا استسلم العبد للشهوة، انقلب ميزانه، وصار يدافع عن الذنوب، ويبرر السقوط، ويبحث عن الشبهات التي تسكن ضميره، بدلًا من أن يبحث عن طريق التوبة والنجاة في الآخرة.

روى ابن القيم رحمه الله أن: من عقوبة السيئة السيئة بعدها، ومن ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

والمعصية لا تقف وحدها غالبًا، بل تجر أختها، وتطلب ما بعدها، حتى تتغير نظرة العبد إلى نفسه ودينه وربه.

خامسًا: الوحشة بين العبد وربه

إذا وقع العبد في الفاحشة وأصر عليها، وجد في قلبه وحشة بينه وبين ربه، فيضعف إقباله على الصلاة، ويثقل عليه كلام الله، ويقل ذكره، ويستوحش مجالس الخير، ويأنس بما يبعده عن الله.

قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ (سورة طه)

وقال سبحانه:
﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾
(سورة الصف)

فـإذا مـال العبـد عـن طريـق الله، عوقـب بضـعف الهدايـة والأنـس والطمأنينة، حتى يضيق صدره مع كثرة أسباب المتعة حوله.

وقد ذكر أهل العلم أن من آثار المعاصي الوحشة التي يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله، وأن هذه الوحشة لا يزيلها مال ولا لذة ولا صحبة، وإنما يزيلها الرجوع الصادق إلى الله.

سادسًا: فساد لذة العبادة

الطاعة نور، والفاحشة ظلمة، وإذا زادت الظلمة في القلب ضعفت لذة العبادة.

فقد يقوم العبد إلى الصلاة بجسده، وقلبه مشغول بما رأى أو سمع أو تخيل، فيفقد الخشوع، ويجد الطاعة ثقيلة.

قال تعالى:
﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾
(سورة البقرة)

وقال تعالى:
﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (سورة المؤمنون)

والفاحشة تشوش القلب، وتملأ الخيال، وتسرق حضور العبد مع ربه، حتى يصلي وهو لا يجد أثر الصلاة، ويقرأ وهولا يجد أثر القرآن، ويذكر الله وقلبه مشغول بغيره.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«ألا إن في الجسدِ مضغةً إذا صلَحتْ صلَحَ لها سائرُ الجسدِ وإذا فسدتْ فسد لها سائرُ الجسدِ ألا وهي القلبُ» متفق عليه

وإذا فسد هذا القلب بالشهوة المحرمة ظهر أثر ذلك على العبادة والجوارح والأخلاق.

سابعًا: الذل والمهانة

المعصية تورث صاحبها ذلًا في قلبه، ولو ظهر أمام الناس عزيزًا؛ لأن من أطاع شهوته صار أسيرًا لها، ومن غلبه هواه ذل له، ومن ترك طاعة الله لأجل اللذة عابرة أذله الله في نفسه.

قال تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة الجاثية)

وقال سبحانه:

﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (سورة الحج)

والعبد لا يكرمُ نفسه باتباع الشهوة، بل يكرمها بطاعة الله، ولا يعزها بالحرام، بل يعزها بالعفة والاستقامة على الطريق المستقيم.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله

ومن طلب العزة بالفواحش والشهوات والحرية المنفلتة، لم يجد إلا ذل القلب وقلق النفس وانكسار السريرة.

ثامنًا: الفاحشة تجر إلى الكذب والخيانة

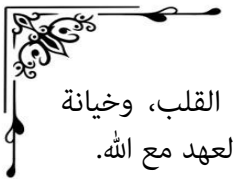
قل أن تبقى الفاحشة وحدها؛ لأن صاحبها يحتاج غالبًا إلى إخفائها، والكذب من أجلها، ومحو آثارها، وخيانة الثقة، وربما ظلم غيره أو خدعه أو أفسد عليه بيته.

قال تعالى:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (سورة النساء)



والفاحشة تفتح أبواب الخيانة: خيانة العين، وخيانة القلب، وخيانة الزوج أو الزوجة، وخيانة الأمانة، وخيانة السر، وخيانة العهد مع الله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«آيةُ المُنافِقِ ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كذَبَ، وإذا وعَدَ أخلَفَ، وإذا ائْتُمِنَ خان»

متفق عليه

ومن اعتاد الفاحشة خشي عليه أن يعتاد معها الكذب والخيانة والنفاق، فيظهر للناس بوجه، ويخلو بوجه آخر.

تاسعًا: الفاحشة تضعف الإرادة وتورث الإدمان

ضعف إرادة العبد من آثار الفاحشة، فهو يصير أسيرًا لما كان يظنه اختيارًا.

يبدأ الأمر بنظرة أو مشاهدة أو محادثة، ثم يتكرر، ثم يعتاد، ثم يجد العبد نفسه يرجع إلى الذنب كلما خلا أو حزن أو فرغ أو ضعفت نفسه.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (سورة ص)

وقال سبحانه:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (سورة النازعات)

والهوى إذا لم يُضبط صار قائدًا، وإذا صار قائدًا أضل صاحبه، وإذا أضله أضعف عزيمته حتى يصعب عليه الرجوع إلا بجهاد وتوبة وصدق.

قال ابن القيم رحمه الله في معنى عاقبة الشهوة:

الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة

وصبر العبد عن الفاحشة في بدايتها أهون من صبره على الآثار إذا استحكمت في قلبه وعادته وخياله.

عاشرًا: فساد الخيال والنظرة إلى الحلال

الفاحشة لا تفسد اللحظة وحدها، بل تترك صورًا في الخيال، وتقارن في النفس بين الحرام والحلال، فيضعف رضا العبد بما أحل الله، وربما فسد عليه زواجه أو عفته أو نظرته إلى الناس.

قال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الروم)

والزواج في الشرع هو السكن والمودة والرحمة، لكن الفاحشة تعرض الشهوة مجردة من المسؤولية والرحمة والحياء، فتفسد معنى السكن، وتضعف القناعة، وتفتح باب المقارنة والاضطراب.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (سورة طه)

ومد العين إلى ما لا يحل يفسد الرضا، ومن أطلق نظره في الحرام عوقب بضعف تمتعه بالحلال.

حادي عشر: جلب الهم والضيق

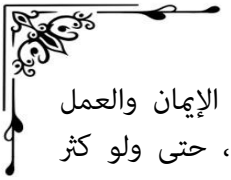
الفاحشة قد تبدو في أولها ذات لذة، لكنها تورث بعدها همًا وضيقًا وقلقًا وخوفًا وندمًا، فالقلب لا يطمئن إلا بطاعة الله، ولا يجد راحته في معصيته.

قال تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة النحل)

وقال سبحانه:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ (سورة طه)



والحياة الطيبة التي يتمناها الناس جميعًا هى ثمرة الإيمان والعمل الصالح، والضنك هو ثمرة الإعراض والغفلة والمعصية، حتى ولو كثر المال، واتسع المتاع، وتزينت الشهوات.

قال أحد السلف: إني لأعصي الله فأرى ذلك في خلق دابتي وزوجتي.

ومعنى قوله أن أثر المعصية لا يقف عند لحظتها، بل يظهر في ضيق النفس، وتعسر الأمر، وتغير الحال.

ثاني عشر: سوء الخاتمة

من أخطر آثار الفاحشة أن يألفها العبد ويصر عليها، وهنا يخشى عليه أن يُختم له على حال لا ترضي الله ويقع في سوء الخاتمة.

فإن من عاش على شيء خيف أن يموت عليه، ومن اعتاد على الخلوات المحرمة خيف عليه أن يلقى الله وهو مصر غير تائب.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

﴿سورة آل عمران﴾

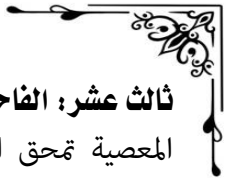
وقال تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿سورة المؤمنون﴾

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«وإنَّما الأعمالُ بالخواتيمِ» رواه البخاري

فالعاقل لا يغتر بالإمهال، ولا يأمن مكر الهوى، ولا يجعل الفاحشة عادة يرجو أن يتركها متى شاء؛ فإن الموت لا يستأذن، والقلب إذا طال عليه الذنب ثقل عليه الرجوع.



ثالث عشر: الفاحشة تمحق بركة العمر والعمل

المعصية تمحق البركة، ولو بقيت الصورة الظاهرة من الصحة والمال والوقت.

فقد يملك العبد وقتًا كثيرًا، لكنه يضيعه في الحرام؛ ويملك بدنًا قويًا، لكنه يستعمله في المعصية؛ ويملك عقلًا وفهمًا، لكنه يسخرهما لخدمة شهوته.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ منَ النَّاسِ الصِّحَّةُ والفراغُ» رواه البخاري

والفاحشة تلتهم الصحة والفراغ والقلب، وتترك صاحبها مخدوعًا، يخرج من الذنب باللذة القليلة والندم الطويل، ويضيع من عمره ما كان يمكن أن يكون مستغلًا في قراءة القرآن، أو العلم النافع، أو أعمال الخير والبر والصلاح.

وقد قرر أهل العلم أن الطاعة تزيد العمر بركة، وأن المعصية تمحق بركة الوقت والعمل، ولو طال العمر وكثر السعي.

رابع عشر: فتح باب المجاهرة والوقاحة

من أصر على الفاحشة خشي عليه أن ينتقل من الخفاء إلى المجاهرة، ومن الندم إلى التباهي، ومن الخوف إلى الوقاحة، وهذه مرتبة خطيرة تدل على ذهاب الحياء وضعف تعظيم الله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كلُّ أُمَّتي مُعافًى إلا المجاهرين، و إنَّ من الجِهارِ أن يعملَ الرجلُ بالليلِ عملًا ثم يُصبِحُ وقد ستره اللهُ تعالى فيقولُ: عملتُ البارحةَ كذا و كذا، وقد بات يسترُه ربُّه، و يُصبِحُ يكشفُ سِترَ اللهِ عنه» متفق عليه

والمجاهرة ليست فقط أن يخبر الإنسان بذنبه، بل يدخل فيها نشر الفاحشة، والدفاع عنها، وتزيينها، والسخرية من أهل العفة، وتهوين المنكر في أعين الناس.

قال تعالى:
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾
فمن أعظم آثار الفاحشة على العبد أن لا يكتفي بفساد نفسه، بل يصير سببًا في فساد غيره، وداعية إلى ما أهلكه، ومفتاحًا لباب شر بعد أن كان مأمورًا أن يكون مفتاحًا للخير.

خامس عشر: حجب العبد عن مقام العفة

العفة مقام شريف يحبه الله، ويدخل صاحبه في أهل الفلاح والمغفرة، أما الفاحشة فتسقط العبد من هذا المقام، وتجعله تابعًا لشهوته بدل أن يكون مالكًا لها.
قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ﴿سورة المؤمنون﴾
وقال تعالى:
﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿سورة الأحزاب﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَن يَضمَنْ لي ما بينَ لَحيَيه وما بينَ رِجلَيه أضمَنْ له الجَنَّةَ»

رواه البخاري
فحفظ الفرج واللسان طريق إلى الجنة، والفاحشة طريق إلى ضد ذلك؛ لأنها تفسد اللسان بالنطق الفاحش، والعين بالنظر المحرم، والقلب بالتمني والتعلق، والجوارح بالسعي إلى الحرام.
ومن أراد مقام العفة فليعلم أنها ليست حرمانًا، بل هى عز، وراحة، ونور، وسلامة، وأن الشهوة إذا حُبست في حدود الله صارت نعمة، وإذا انفلتت صارت عذابًا على صاحبها.

باب أثر الفاحشة على الفطرة

إن الله قد خلق الإنسان على فطرة مستقيمة تعرف الطهر، وتميل إلى الحياء، وتنفر من القبح، وتأنس بالعفاف، وتستقبح العدوان على حدوده. فإذا تعرضت هذه الفطرة للمعاصي، وتكررت عليها الفواحش، وضعفت عنها التربية والإيمان، أصابها التغير والانحراف، وحينها يألف القلب ما كان ينكره، ويستحسن ما كان يستقبحه، ويرى الفاحشة حرية، والعفة تضييقًا، والحياء ضعفًا، والطهر حرمانًا.

قال تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الروم)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرةِ فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه»

متفق عليه

فالأصل في الإنسان سلامة الفطرة، لكن المؤثرات الفاسدة تطمسها، والبيئة المنحرفة تغيرها، والمعاصي المتكررة تضعف نورها، حتى يحتاج صاحبها إلى توبة ومجاهدة وإحياء لما مات في قلبه من الحياء والإنكار.

أولًا: تصادم الفاحشة مع أصل الفطرة

الفاحشة ليست مجرد مخالفة ظاهرة، بل هي مصادمة لأصل الطهر الذي خلق الله النفوس عليه. فالفطرة السليمة تستحي من كشف العورات، وتنفر من الخيانة، وتستقبح الاعتداء، وتعلم أن الشهوة إذا انفلتت من حدود الله صارت سببًا للفساد والضياع.

قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (سورة الأعراف)

وما حرمه الله من الفواحش لم يحرمه عبثًا، وإنما حرمه لأنه خبيث في ذاته، مفسد للقلب، مغير للفطرة، هادم للحياء، قاطع لطريق الطهارة.
قال تعالى:
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء)
فوصفه الله بأنه فاحشة وساء سبيلًا؛ لأنه طريق سيئ في بدايته ونهايته، يفسد القلب قبل الجسد، ويغير نظرة الإنسان إلى نفسه وغيره، ويجعل الشهوة تقود صاحبها بدلًا من أن يقودها الإيمان والعقل.

ثانيًا: الفاحشة تطمس نور الحياء

الحياء من أعظم علامات الفطرة السليمة، فإذا تكرر النظر إلى الحرام، أو اعتاد الإنسان الكلام الفاحش، أو ألف المشاهد المحرمة، ضعف الحياء في قلبه، وقل استقباحه للمنكر، وصار يجاهر بما كان يستحي منه في البداية.

عن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«الحَياءُ لا يَأْتي إلَّا بخَيرٍ» متفق عليه

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّ ممَّا أدرك النَّاسُ من كلامِ النُّبوَّةِ الأولَى : إذا لم تستحْيِ فاصنَعْ ما شئتَ» رواه البخاري

وذهاب الحياء علامة خطيرة على اختلال الفطرة؛ لأن من فقد الحياء سهل عليه أن ينظر للحرام، ويتكلم به، ويتبع الشهوة، ويجاهر بالذنب، ويبرر لنفسه وللمجتمع المنكر.
والفاحشة المعاصرة تعمل على قتل الحياء بالتدريج؛ فتبدأ بصورة، ثم بمشهد، ثم بمحادثة، ثم باعتياد، ثم بجرأة، حتى يزول الحاجز الداخلي الذي كان يمنع النفس من الاقتراب من الحرام.

ثالثًا: قلب الموازين

من آثار الفاحشة على الفطرة أنها تقلب ميزان القلب، فيرى الإنسان القبيح حسنًا، والحرام متعة، والعفاف تشددًا، والستر تخلفًا، والحياء ضعفًا.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ (سورة فاطر)

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ (سورة آل عمران)

فإذا استسلم الإنسان لتزيين الشهوة، ضعف تمييزه، واضطرب حكمه، وصار يطلب ما يضره، ويدافع عما يفسده، وينفر ممن ينصحه ويدله على الطهارة.

وهذا من أعظم فساد الفطرة: أنه صار لا يكتفي بالوقوع في الذنب فحسب، بل يرى الذنب حقًا مشروعًا، ويرى التحذير منه تعديًا، ويرى نصح الناصحين قيدًا على حريته.

رابعًا: فساد النظر إلى الإنسان

الفطرة السليمة ترى الإنسان مكرمًا، له حرمة وعرض وكرامة، أما الفاحشة فتغير هذه النظرة، وتجعل الإنسان في عين صاحبه موضع شهوة، لا موضع كرامة.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (سورة الإسراء)

فمن أعظم صور إهانة الإنسان أن يُختزل في جسده، أو يُنظر إليه بعين الشهوة المحرمة، أو تُهتك صورته وخصوصيته وكرامته في سبيل اللذة العابرة.

عن أبي بكرة نفيع بن الحارث رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«فإنَّ دِماءَكُم وأموالَكُم وأعراضَكُم وأبشارَكُم علَيكُم حَرامٌ، كَحُرمةِ يَومِكُم هذا، في شَهرِكُم هذا، في بَلَدِكُم هذا، ألا هل بَلَّغتُ؟ قُلنا: نَعَم، قال: اللهُمَّ اشهَدْ» متفق عليه

فالعرض له حرمة عظيمة، والفطرة المستقيمة تحفظ هذه الحرمة، أما الفاحشة فتضعف تعظيم الأعراض، وتجرئ على النظر المحرم، والكلام المحرم، والتعلق المحرم، وربما التعدي والعدوان.

خامسًا: تشويه معنى الزواج والعفة

من آثار الفاحشة على الفطرة أنها تشوه معنى الزواج، وتجعل العلاقة التي شرعها الله للسكن والمودة والرحمة مجرد شهوة مجردة، فتضعف قيمة الحلال في القلب، ويقارن الإنسان بين الواقع الطاهر والخيال الفاسد.

قال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الروم)

فالزواج في ميزان الشرع سكن ومودة ورحمة ومسؤولية، وليس مجرد شهوة منفلتة.

وإذا فسدت الفطرة بالفاحشة، ضعفت لذته بالحلال، وكثر سخطه، وفسد خياله، وطلبت نفسه صورًا لا تبني بيتًا ولا تحفظ دينًا ولا تصنع معني المودة الحقيقية.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ (سورة المؤمنون)

فحفظ الفرج ليس منعًا للشهوة من أصلها، بل تهذيبٌ لها، ووضعها في موضعها الطاهر الذي يحفظ الدين والنفس والنسل والعرض.

سادسًا: فتح باب تغيير الفطرة

قال تعالى عن الشيطان:

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ (سورة النساء)

ومن أخطر مداخل الشيطان أنه لا يجعل الإنسان يقع في الذنب فقط، بل يسعى إلى تغيير نظرته إلى الذنب، حتى يصير الانحراف عنده طبيعة، والمنكر عادة، والفاحشة اختيارًا مقبولًا.

والفطرة لا تفسد مرة واحدة، بل تتغير بالتدريج: بدايةً من التهاون، ثم التكرار، ثم الاعتياد، ثم الدفاع، ثم الانتكاس في ميزان الحكم.

وإذا وصل الإنسان إلى هذه المرحلة احتاج إلى رجوع صادق إلى الله، وإحياء قلبه بالقرآن، وقطع أسباب الفتنة، ومجاهدة الهوى.

وقد قرر أهل العلم أن المعاصي إذا توالت على القلب أضعفته، وأن الذنب يجر الذنب بعده، حتى يألف القلب المعصية ويثقل عليه تركها.

سابعًا: الفاحشة تورث الران على القلب

قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة المطففين)

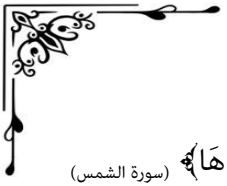
فالذنوب إذا تراكمت حجبت القلب عن صفائه، وأضعفت نور فطرته السليمة، وجعلت تأثره بالموعظة أقل، وزادت قربه من المنكرات.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ عَرْضَ الحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَتْ فيه نُكتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنْكَرَها نُكِتَتْ فيه نُكتةٌ بيضاءُ ، حتى يصِيرَ القلبُ أبيضَ مثلَ الصَّفا، لا تَضُرُّه فِتنةٌ ما دامَتِ السمواتُ والأرضُ ، والآخَرُ أسودَ مُربَدًّا كالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلا ما أُشْرِبَ من هَواه» رواه مسلم

والفاحشة من أعظم الفتن إذا عُرضت على القلوب مرارًا؛ فإن القلب الذي يشربها مرة بعد مرة يتغير، وتكثر فيه النكت السوداء، حتى يبهت نوره.

قال ابن القيم رحمه الله في معنى أثر المعاصي: إن المعاصي تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضًا، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها.



ثامنًا: عودة الفطرة بالتوبة والتزكية

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (سورة الشمس)

وهذه الآية تبين أن الفطرة تحتاج إلى تزكية تحفظ صفاءها، وإلى توبة تغسل آثار الذنوب، وإلى طاعة تعيد للقلب نوره، وإلى مجاهدة تقطع عن صاحبها أسباب الفساد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (سورة البقرة)

فمن أراد أن يرد فطرته إلى صفائها، فليكثر من التوبة، وليحفظ بصره، وليقطع أبواب الفتنة، وليصحب أهل الطاعة، وليعرض قلبه على القرآن، فإن القلب يمرض بالمعصية ويصح بالتوبة، وتضعف فطرته بالغفلة وتعود قوتها بذكر الله.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ألا إن في الجسدِ مضغةً إذا صلَحتْ صلَحَ لها سائرُ الجسدِ وإذا فسدتْ فسد لها سائرُ الجسدِ ألا وهي القلبُ» متفق عليه

فإذا صلح القلب صلحت الفطرة، وعاد الحياء، واستقامت الشهوة، وحسن الميزان، ورأى العبد الحلال جميلًا، والحرام قبيحًا، والطاعة عزًا، والمعصية ذلًا.

باب أثر الفاحشة الأسرة

جعل الله الأسرة موضع السكن، ومحلّ المودّة، وحصن العفّة، وبها تستقيم الحياة، ويحفظ الدين والنسل والأخلاق. فإذا دخلت الإباحية إلى البيت، لم تدخل على أنها معصية فردية فحسب، بل تدخل بما تجرّه من آثار مدمرة على الثقة، والحياء، والوفاء، واستقرار العلاقة بين الزوجين. ولهذا كان خطرها على الأسرة خطرًا عظيمًا؛ لأنها تفسد القلب، وتشوّه النظر إلى الحياة الزوجية، وتفتح أبواب النفور والخيانة والتفكك.

أولًا: الأسرة هي السكن والمودة

قال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (سورة الروم)

وقال سبحانه: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (سورة البقرة)

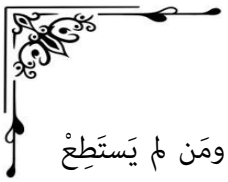
فهذه العلاقة الشرعية ليست مجرد قضاء شهوة، بل هي سكن نفسي، وستر، ومودّة، ورحمة، وأمان. والإباحية تضاد هذه المعاني؛ لأنها تبني الشهوة على التشتت، لا على الوفاء، وعلى المقارنة، لا على القناعة، وعلى الاستثارة العابرة، لا على السكن الحقيقي.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى:

﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾: أي تألفوهن وتسكن نفوسكم إليهن

ثانيًا: الإباحية تهدم معنى العفّة داخل الزواج

أصل الزواج في الإسلام أن يكون بابًا للعفاف، وصيانة الفرج، وغض البصر عن الحرام.



عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قال لَنا النَّبيُّ ﷺ:
«يا مَعشَرَ الشَّبابِ، مَنِ استَطاعَ منكمُ الباءةَ فليَتَزَوَّجْ، ومَن لم يَستَطِعْ فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّه له وِجاءٌ» متفق عليه

فإذا صار المتزوج يُدخل الحرام إلى قلبه وعينه وبيته، تعطّل مقصد الإحصان، وصار الزواج في الظاهر قائمًا، بينما تضعف حقيقته في الباطن. وهذا من أخطر آثار الإباحية؛ لأنها تنقل القلب من الاكتفاء بالحلال إلى التطلع الدائم إلى الحرام.

قال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾

(سورة النور)

فغض البصر ليس أمرًا فرديًا مجردًا، بل هو من أعمدة حفظ الحياة الزوجية وصيانتها من التصدع.

ثالثا: إفساد الثقة بين الزوجين

الثقة من أعظم ما تقوم عليه الأسرة، وإذا دخلت الإباحية، بدأت هذه الثقة في التآكل شيئًا فشيئًا؛ لأن الطرف الآخر يشعر بأنه لم يعد محل الاكتفاء، وأن خصوصية العلاقة قد انتهكت، وأن القلب لم يعد خالصًا للحلال.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾

(سورة الأنفال)

والحياة الزوجية من أعظم الأمانات، فإذا تسلل إليها التعلّق بالمحرّم، أو الإدمان على المشاهد الإباحية، دخلها لون من ألوان الخيانة المعنوية، وإن لم يصل الأمر إلى الفعل الظاهر

والخيانة تكون بالفعل، وتكون بالنظر والقلب إذا تعلّقا بالمحرّم

رابعًا: تشويه صورة العلاقة الزوجية

الإباحية لا تنقل الواقع كما هو، بل تبني صورًا مشوهة، ومقاييس زائفة، وتوقع صاحبها في المقارنة الظالمة، وعدم الرضا، والتطلع الدائم إلى ما ليس عنده. ومن هنا تبدأ مشكلات كثيرة داخل الأسرة، لأن أحد الزوجين قد يقيس شريك حياته بصور مصطنعة لا حقيقة لها، فيضعف الرضا، ويقلّ الشكر، ويكثر التذمر.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ (سورة طه)

فإذا كان الشرع نهى عن مدّ العين إلى متاع الدنيا في العموم، فكيف بالنظر المتعمد إلى الحرام الذي يفسد القلب ويورث السخط على الحلال؟

وقال ابن القيم رحمه الله:

النظر يزرع في القلب الشهوة، ويكفي به بلاءً أنه يفرّق على القلب أمره، ويمزق عليه شمله.

خامسًا: إضعاف المودّة وإماتة الحياء

الحياة الزوجية لا تقوم على الجسد وحده، بل على المودّة والحياء والاحترام.

والإباحية من أعظم ما يميت الحياء، ويقسّي القلب، ويضعف الرابطة الوجدانية بين الزوجين؛ لأن القلب إذا امتلأ بالصور المحرمة ضعف تأثره بالحلال، وإذا اعتاد الإثارة الفاسدة قلّ انتفاعه بالعلاقة المشروعة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ» متفق عليه

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ ممَّا أدرك النَّاسُ من كلامِ النُّبوَّةِ الأولَى : إذا لم تستحْيِ فاصنَعْ ما شئتَ» رواه البخاري

وقال ابن القيم رحمه الله:
ومن عقوبات المعاصي ذهاب الحياء، الذي هو مادة حياة القلب فإذا ضعف الحياء، ضعفت معه كثير من المعاني التي تحفظ الأسرة من الانهيار.

سادسًا: فتح باب النفور والخصام

الإباحية لا تبقى حبيسة الشاشة، بل كثيرًا ما يظهر أثرها في المعاملة، والانشغال، والبرود العاطفي، وضعف الحضور الأسري، وقلة الرضا، وكثرة المقارنة، ثم يتحول ذلك إلى نفور، وخصام، واتهامات، وانكسار في العلاقة.

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (سورة النساء)

وقال سبحانه: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ (سورة البقرة)

والمعروف لا يجتمع مع الإدمان على ما يفسد القلب، ولا مع تعلّق النفس بالحرام، لأن من عاش بعين شاردة وقلب متعلق بغير الحلال، ضعفت قدرته على أداء حق العشرة بالمعروف.

سابعًا: تعريض الأبناء للضرر والانهيار التربوي

إذا ضعفت الأسرة، لم يقف الخطر عند الزوجين، بل امتد إلى الأبناء؛ لأن البيت الذي تغيب عنه السكينة، وتكثر فيه النزاعات، وتضعف فيه القدوة، يصبح بيئة مهيأة للقلق، والانحراف، والتفكك النفسي والتربوي.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (سورة التحريم)

وعن عبدالله بن عمررضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ» متفق عليه

فمن أعظم التفريط في الرعاية أن يفتح الإنسان على نفسه بابًا يفسد قلبه، ثم ينعكس أثره على أهله وأولاده وبيته كله.

وقال علي رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى:
﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾: أي علّموهم وأدّبوهم.

ثامنًا: الإباحية بريد إلى الخيانة والفاحشة الكبرى

كثير من الانحرافات الكبرى لا تبدأ بالفعل، بل تبدأ من النظر، ثم التكرار، ثم التعلّق، ثم الجرأة، ثم السعي إلى ما وراء الشاشة. ولهذا كانت الإباحية من أخطر الأبواب الموصلة إلى الخيانة الزوجية، وإلى إقامة العلاقات المحرمة، وإلى الوقوع في الفاحشة الحقيقية.

قال تعالى:
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«كتب على ابنِ آدمَ حظُّه من الزنا فهو مدركٌ ذلك لا محالةَ، فالعينانِ تزنيانِ وزناهما النظرُ، والأذنانِ تزنيانِ وزناهما السمعُ، واليدان تزنيان وزناهُما البطشُ، والرِّجلانِ تزنيانِ وزناهُما المشيُ، والقلبُ يتمنى ويشتهي، والفرجُ يصدقُ ذلك أو يكذبُه» متفق عليه

وهذا الحديث من أعظم ما يبين أن الفاحشة لها مقدمات، وأن التساهل في أول الطريق يفتح بابًا يصعب إغلاقه بعد التمادي فيه.

تاسعًا: أثرها في تفكك الأسرة وانهدام بنيانها

إذا اجتمع ضعف الثقة، وفساد النظر، وغياب الرضا، وموت الحياء، وكثرة النزاع، دخلت الأسرة مرحلة التآكل الداخلي، وقد يبقى البيت قائمًا في الظاهر، لكنه قد فقد كثيرًا من روحه وسكينته. ثم قد يتطور الأمر إلى هجر عاطفي، أو خيانة، أو طلاق، أو نشأة الأبناء في بيت مضطرب مهتز.

قال الله تعالى: ﴿واللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ (سورة النحل)
فإذا تحوّل البيت من سكن إلى موضع اضطراب، فذلك من أعظم الخسائر، والإباحية من الأسباب القوية التي تدفع إلى هذا التحول، فالمعصية لا تقف عند صاحبها فقط، بل يتعدى شؤمها إلى من حوله.



عاشرًا: تهوين أعظم أبواب الخداع

كثير من الناس يهوّنون خطر الإباحية، ويعدّونها أمرًا خاصًا لا أثر له على الأسرة، وهذا من الجهل بحقائق النفس والقلب والعلاقات. فالشرع لما أمر بغض البصر، وحفظ الفرج، وسدّ الذرائع، لم يكن ذلك إلا لحفظ الدين والأسرة والمجتمع من الانهيار المتدرج.

قال تعالى:﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (سورة البقرة)

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(سورة االنور)

وقال ابن كثير رحمه الله:

أي يحبون ظهور الفواحش وانتشارها في المؤمنين

فكيف إذا لم تقتصر الفاحشة على الانتشار في المجتمع، بل تسللت إلى داخل البيت نفسه، وبدأت تنخر في أساسه من الداخل؟

باب أثر الفاحشة على المجتمع

الفاحشة ليست ذنبًا فرديًا محصور الأثر في صاحبه، بل لها امتداد يتجاوز النفس إلى الأسرة كما ذكرنا في الباب السابق، ثم إلى المجتمع كله؛ لأنها إذا ظهرت كسرت الحواجز الأخلاقية، وأضعفت الحياء، وغيرت المعايير، وفتحت أبوابًا من الفساد لا تقف عند حدٍّ معين. ولهذا جاء الشرع بتشديد الإنكار عليها، والنهي عن قربانها، والتحذير من إشاعتها؛ لأن المجتمعات لا يفسدها السلاح وحده، بل قد يفسدها انهيار الأخلاق قبل ذلك.

أولًا: الفاحشة سبب للفساد العام

قال تعالى:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿سورة الروم﴾

وهذا دليل على أن المعاصي لا تبقى آثارها محصورة في مرتكبيها، بل يظهر بسببها الفساد في أحوال الناس ومعايشهم وأمنهم. قال ابن كثير رحمه الله:

أي: بان النقص في الزروع والثمار، وما يلحق الناس في البر والبحر بسبب المعاصي.

فإذا كانت الذنوب عمومًا سببًا في ظهور الفساد، فإن الفواحش من أعظمها أثرًا؛ لأنها تفسد القلوب والأعراض والبيوت والضمائر.

ثانيًا: إشاعة الفاحشة تفسد البنية الأخلاقية للمجتمع

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ﴿سورة النور﴾

وهذه الآية لا تتحدث عن مجرد الوقوع في الفاحشة، بل عن إشاعتها ومحبة انتشارها وتطبيعها بين الناس. قال ابن كثير رحمه الله:
أي: يختارون ظهور الفواحش وانتشارها في الذين آمنوا.
وقال القرطبي رحمه الله:
في هذه الآية زجر عن إذاعة الفاحشة، وبثها في المؤمنين، وتتبع عوراتهم فإذا شاعت الفاحشة، لم تعد منكرًا مستقبَحًا، بل تتحول بالتكرار إلى أمر مألوف، ثم إلى سلوكٍ يضعف إنكاره، وهذا من أخطر ما يصيب المجتمعات.

ثالثًا: الفاحشة تهدم الحياء العام

الحياء خُلق اجتماعي كما أنه خُلق فردي، فإذا ضعُف في الأفراد ضعُف في المجتمع كله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«الحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ» متفق عليه

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّ ممَّا أدرك النَّاسُ من كلامِ النُّبوَّةِ الأولَى : إذا لم تستحْيِ فاصنَعْ ما شئتَ» رواه البخاري

وقال ابن القيم رحمه الله:
الحياء أصل كل خير، وذهابه ذهاب كل خير.
فإذا كثرت الفواحش في مجتمعٍ ما، ضعفت حساسية الناس تجاه المنكر، وسقطت هيبة الحرمات، وتجرأ الناس على ما كانوا يستحيون منه، وهذا التحول في الوجدان العام من أعظم صور الانهيار الاجتماعي.

رابعًا: الفاحشة تفتح باب العقوبات العامة

قال تعالى:
﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ ﴿سورة الأنفال﴾

فهذه الآية تدل على أن الفتن والعقوبات إذا نزلت بسبب شيوع المنكر قد لا تختص بأهله وحدهم، بل تعم إذا ترك الناس الإنكار وسكتوا عن الفساد. قال الطبري رحمه الله:

احذروا بلاءً وعقوبةً لا تصيب أهل الظلم منكم خاصة، ولكنها تعمكم جميعًا.

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« إنَّ النَّاسَ إذا رأوا الظَّالمَ فلم يأخذوا علَى يدَيهِ أوشَكَ أن يعمَّهمُ اللَّهُ بعقابٍ منْه» رواه أبو داود والترمذي

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من رأى منكم منكرًا فليغيرْه بيدِه فإن لم يستطعْ فبلسانِه . فإن لم يستطعْ فبقلبِه . وذلك أضعفُ الإيمانِ» رواه مسلم وابن ماجه

فإذا كانت الفاحشة تُرى وتُعلن وتُطبع، ثم يضعف إنكارها، أصبح المجتمع كله مهددًا بآثارها وعواقبها.

خامسًا: ضعف الأمن الاجتماعي

المجتمع الذي تكثر فيه الفواحش لا يبقى متماسكًا في أمنه الداخلي؛ لأن الاعتداء على الأعراض يفتح أبواب الشك والانتقام والابتزاز والعدوان ولهذا قرن الشرع بين حفظ الفروج وحفظ المجتمع من التمزق.

قال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾

وقال سبحانه:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (سورة النور)

فهذه الأوامر ليست تهذيبًا فرديًا فحسب، بل هي حماية للمجتمع من الانزلاق إلى الفوضى الأخلاقية. وقال بعض أهل العلم:

إذا أُهملت حدود العفاف، لم يبقَ للأعراض من يحرسها، ولا للقلوب من يردعها.

سادسًا: عدم إنكار المنكر

إذا تكرر المنكر واعتاده الناس وضعف إنكاره صار المجتمع مهيأً لتقبل صور أكبر من الفساد.

قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿سورة المطففين﴾

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ عَرْضَ الحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَتْ فيه نُكتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنْكَرَها نُكِتَتْ فيه نُكتةٌ بيضاءُ، حتى يصِيرَ القلبُ أبيضَ مثلَ الصَّفا، لا تَضُرُّه فِتنةٌ ما دامَتِ السمواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسودَ مُربَدًّا كالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلا ما أُشْرِبَ من هَواه» رواه مسلم

فإذا اسودت القلوب بالفتن، لم تعد ترى المنكر منكرًا كما كانت تراه، وبذلك يتحول المجتمع من مقام الاستقباح إلى مقام الاعتياد، ومن مقام الإنكار إلى مقام التبرير.

سابعًا: انتشار الأمراض والآلام الاجتماعية

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لم تَظْهَرِ الفاحشةُ في قومٍ قَطُّ ؛ حتى يُعْلِنُوا بها ؛ إلا فَشَا فيهِمُ الطاعونُ والأوجاعُ التي لم تَكُنْ مَضَتْ في أسلافِهِم الذين مَضَوْا»

رواه ابن ماجه والطبراني

وهذا الحديث يدل على أن للفاحشة آثارًا عامة تتجاوز البعد الأخلاقي إلى آثار صحية واجتماعية مؤلمة، وأن المجاهرة بها باب لانتشار البلاء. وقد فهم أهل العلم هذا المعنى على أنه من سنن الله في المجتمعات: أن

شيوع الفساد يجر صورًا من العقوبات والآلام لم تكن معروفة قبل ذلك.

ثامنًا: فساد الذوق العام والمعيار الثقافي

عندما تنتشر الفاحشة، لا تبقى مجرد فعلٍ محرّم، بل تتحول إلى خطاب، وصورة، وذوق، ونمط في الإعلام، والتعامل، واللغة، والمزاح، والعلاقات.

وهنا ينتقل المجتمع من مجرد الوقوع في الذنب إلى إعادة تشكيل وجدانه على أساس فاسد.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ ﴿سورة فاطر﴾

وقال سبحانه:﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

وقال ابن القيم رحمه الله: المعصية إذا تكررت هان أمرها على القلب، فتصير عادة، ثم يصعب الخلاص منها.

فالتزيين هنا لا يقع في الفرد وحده، بل قد يصيب المجتمع كله، حتى يصبح الدفاع عن الفاحشة عند بعض الناس مظهرًا من "التحضر" أو "الاعتياد"، وذلك من انقلاب الموازين.

تاسعًا: ضعف معاني المسؤولية والرعاية

إذا ضعفت الأخلاق، ضعفت معها أمانة الإنسان في بيته، ونظره، وسمعه، وسلوكه، وتراجعت معاني الرعاية والغيرة والوفاء.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ ﴿سورة التحريم﴾

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« كُلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ» متفق عليه

فالمجتمع لا يقوم على الأنظمة وحدها، بل على ضمائر حية، وأسر واعية، ونفوس تخاف الله. فإذا فُتحت أبواب الفاحشة، ضعفت هذه المعاني، وصار التفريط في الحرمات جزءًا من الحياة اليومية، وهذا من أخطر ما يصيب الأمة.



عاشرًا: عدوان الفاحشة على مقاصد الشريعة في المجتمع

الشريعة جاءت بحفظ الدين، والنفس، والعرض، والنسل، والعقل، والفاحشة تصيب هذه المقاصد مجتمعة:

- تفسد الدين بإضعاف الإيمان
- تعتدي على العرض بإهدار الحرمات
- تفسد النسل باختلاط الحقوق أو تهديد استقرار الأسرة
- تفسد العقل بتغليب الشهوة على الرشد
- تؤذي النفوس بآثارها النفسية والاجتماعية

ولهذا كان ذمها شديدًا في القرآن والسنة.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ﴿سورة الأعراف﴾

وقال الشاطبي رحمه الله في معنى مقاصد الشريعة:

إن الشريعة موضوعة لحفظ مصالح العباد في دينهم ودنياهم

فكل ما يهدم هذه المصالح العامة فهو مناقض لمقصود الشرع، والفاحشة ضررها واضح في كل هذه الكليات.

حادي عشر: الفاحشة ليست حرية شخصية

من أعظم الخطأ أن يُتعامل مع الفاحشة على أنها شأن شخصي لا يتعدى إلى غير صاحبه؛ لأن النصوص الشرعية، وسنن الله في المجتمعات، تدل على أن المنكر إذا ظهر وانتشر واعتيد، تعدى ضرره إلى الجميع.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ ﴿سورة المائدة﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« مَن دعا إلى هُدًى كان له مِن الأجرِ مِثْلُ أجورِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن أجورِهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه مِن الإثمِ مِثْلُ آثامِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن آثامِهم شيئًا» رواه مسلم وأحمد

فإذا تحولت الفاحشة إلى ثقافة، أو خطاب، أو دعوة، أو تطبيع، لم تعد مجرد معصية خاصة، بل صارت مشروع إفساد للمجتمع، ولو لم يُسمِّه أصحابه بهذا الاسم.

باب الاستمناء (العادة السرية)

إن الاستمناء أو ما يُسمى بالعادة السرية من المسائل التي تكلم فيها أهل العلم قديمًا وحديثًا، وأكثر أهل العلم على منعها وتحريمها؛ لأنها طلبٌ لقضاء الشهوة خارج الطريق الذي أباحه الله، ولما يترتب عليها من آثار في القلب، والحياء، والإرادة، وغض البصر. وهي في زماننا هذا أشد خطرًا من ذي قبل، لارتباطها الأن بالمثيرات الرقمية، والصور المحرمة، والمقاطع الإباحية، والخلوات الخفية.

أولًا: أصل حفظ الفرج في القرآن

الله جعل من صفات عباده المؤمنين حفظ الفروج، وقصر قضاء الشهوة على ما أباحه من الزواج الشرعي.

فقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ﴿سورة المؤمنون﴾ ﴿سورة المعارج﴾

وقد استدل كثيرٌ من أهل العلم بهذه الآية على منع الاستمناء؛ لأن الله ذكر موضع الإباحة، ثم جعل ما وراء ذلك من العدوان.

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية:

أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط، ولا يقربون سوى أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم.

وقال الإمام الشيرازي رحمه الله في الاستدلال بهذه الآية:

ويحرم الاستمناء؛ لقوله تعالى:

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾

ولأنها مباشرة تُفضي إلى قطع النسل؛ فحرم كاللواط

ثانيًا: الأمر بالاستعفاف

لم يترك الله من لم يستطع الزواج بلا توجيه، بل أمره بالاستعفاف والصبر حتى ييسر له الحلال. ويغنيه من فضله

فقال تعالى:

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾

﴿سورة النور﴾

وهذا أمر من الله لمن لم يجد سبيلًا إلى الزواج، ولم يرشد الله أبدًا إلى تفريغ الشهوة بالاستمناء.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيرها:

هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجًا بالتعفف عن الحرام

وقال القرطبي رحمه الله:

في هذه الآية دليل على أن من لم يجد ما يتزوج به أُمر بالاستعفاف والصبر

فالعفة في هذا الباب عبادة، والصبر على الشهوة من أعظم دلائل صدق العبد مع الله.

ثالثا: توجيه النبي ﷺ

بيَّن النبي ﷺ العلاج الشرعي للشهوة، فحث القادر على الزواج، وأرشد العاجز إلى الصوم.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قال لَنا النَّبيُّ ﷺ:

«يا مَعشَرَ الشَّبابِ، مَنِ استَطاعَ منكمُ الباءةَ فليَتَزَوَّجْ، ومَن لم يَستَطِعْ فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّه له وِجاءٌ» متفق عليه

فالنبي ﷺ أرشد الشباب إلى طريقين عظيمين: الزواج لمن استطاع، والصوم لمن عجز؛ لأنه يكسر حدة الشهوة ويعين على ضبط النفس.

قال النووي رحمه الله في شرح الحديث:

ومعنى وجاء: أنه يقطع الشهوة ويضعفها

وقد استدل أهل العلم بهذا الحديث على أن صرف الشهوة بالاستمناء ليس هو الطريق الشرعي، إذ لو كان علاجًا مأذونًا فيه على الإطلاق لأرشد إليه النبي ﷺ، مع شدة حاجة الشباب إلى ما يعينهم على العفة.

رابعًا: قول جمهور العلماء في الاستمناء

ذهب جمهور العلماء إلى تحريم الاستمناء، وعدوه من طلب الشهوة في غير ما أباح الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

أما الاستمناء باليد فهو حرام عند جمهور العلماء، وهو أصح القولين في مذهب أحمد

وقال أيضًا:

أما بدون الضرورة فما علمت أحدًا رخص فيه

وقال ابن القيم رحمه الله في معنى فساد استعمال الشهوة خارج ما أذن الله به:

الشهوة إذا لم تضبط بالشرع أفسدت القلب والبدن، وصارت بابًا من أبواب العبودية للهوى

وهذه النقول وغيرها تبين أن الأصل في هذه العادة المنع، وأنها ليست من مسالك العفة التي أرشد إليها الشرع.

خامسًا: ارتباط الاستمناء بالنظر المحرم

من أخطر صور الاستمناء في العصر الحديث أنه لا يأتي غالبًا مجردًا، بل يرتبط بمشاهدة الصور والمقاطع المحرمة، أو استدعاء الخيالات الفاسدة، أو متابعة المحتوى الإباحي، فيجتمع مع إطلاق البصر ومعصية الخلوة.

قال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

وقال سبحانه:
﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ﴿سورة النور﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«فالعينانِ تزنيانِ وزناهما النظرُ» متفق عليه

وقال ابن القيم رحمه الله:
النظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان؛ فإن النظرة تولد الخطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولا بد ما لم يمنع مانع. فمن فتح باب النظر المحرم فتح على نفسه بابًا من أبواب ضعف القلب، واضطراب الشهوة، وكثرة الوقوع في هذه العادة.

سابعًا: أثر الاستمناء على القلب والحياء

الاستمناء بالأخص إذا ارتبط بالصور المحرمة والخلوات يضعف الحياء، ويورث في القلب ظلمة، ويجعل النفس أكثر استرسالًا مع الشهوة.
قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿سورة المطففين﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إن العبدَ إذا أخطأ خطيئةً نُكِتتْ في قلبِهِ نُكتةً سوداءَ فإذا هو نزعَ واستغفرَ وتابَ سُقلَ قلبهُ وإن عادَ زيدَ فيها حتى تعلو قلبهُ وهو الرانُ الذي ذكرَ اللهُ كَلّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ» رواه الترمذي

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«الحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ» متفق عليه

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّ ممَّا أدرك النَّاسُ من كلامِ النُّبوَّةِ الأولَى : إذا لم تستحْيِ فاصنَعْ ما شئتَ» رواه البخاري

وقال ابن القيم رحمه الله:
ومن عقوبات المعاصي ذهاب الحياء، الذي هو مادة حياة القلب.

فكلما تكرر الذنب في الخفاء، ضعف الحياء من الله، وخفّت هيبة المعصية في القلب، وهذا من أعظم أخطار هذه العادة.

ثامنًا: الاستمناء وتسلط الهوى

من آثار الاستمناء أنه يربي النفس على سرعة الاستجابة للشهوة، بدل مجاهدتها وضبطها. وكلما اعتادت النفس أن تُلبى شهوتها عند أول داعٍ، ضعفت إرادتها، وصارت أكثر خضوعًا للهوى.

قال تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

(سورة الجاثية)

وقال سبحانه:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (سورة النازعات)

وقال ابن تيمية رحمه الله:

من لم يصبر على ألم المجاهدة وقع في ألم العقوبة.

فالعفة لا تُنال بإطلاق الشهوة، وإنما تُنال بمخالفة الهوى، والصبر، والفرار من أسباب الفتنة.

تاسعًا: الاستمناء وضعف العزيمة

إن العادة تورث صاحبها ضعفًا في العزيمة، وتكرارًا للذنب، وإحساسًا بالانكسار، خاصة إذا ارتبطت بالإدمان على المثيرات. ومع تكرارها قد تصبح عادة وإدمان وحينها يصعب تركها إلا بمجاهدة صادقة.

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

(سورة العنكبوت)

وقال سبحانه:
﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾

(سورة التغابن)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«المُؤمِنُ القَويُّ خَيرٌ وأحَبُّ إلى اللهِ مِنَ المُؤمِنِ الضَّعيفِ، وفي كُلٍّ خَيرٌ. احرِصْ على ما يَنفَعُكَ، واستَعِنْ باللهِ ولا تَعجِزْ، وإن أصابَكَ شَيءٌ فلا تَقُلْ: لو أنِّي فعَلتُ كان كَذا وكَذا، ولَكِن قُلْ: قدَرُ اللهِ وما شاءَ فعَلَ؛ فإنَّ (لو) تَفتَحُ عَمَلَ الشَّيطانِ» رواه مسلم

وقال بعض السلف:
من استدام قرع الباب يوشك أن يُفتح له
فمن أراد ترك هذه العادة احتاج إلى صدق مجاهدة، وقطع الأسباب، وعدم اليأس من كثرة المحاولة.

عاشرًا: الاسمناء بالإباحية في العصر الحديث

كانت هذه العادة قديمًا تقع في صور محدودة، أما اليوم فقد ارتبطت في كثير من الحالات بالمحتوى الإباحي، وهذا يجعلها أشد خطرًا؛ لأن صاحبها لا يقع في فعل واحد، بل يجمع بين النظر المحرم، واستدعاء الشهوة، والخلوة، والتكرار، وربما إدمان المحتوى الفاسد.

قال تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿سورة النور﴾

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير خطوات الشيطان:
أي طرائقه ومسالكه وما يأمر به.
فالمقطع، ثم التكرار، ثم العادة، ثم الاعتياد، ثم الإدمان، كلها خطوات متتابعة إذا لم يقطعها العبد من بدايتها اشتد عليه الخلاص منها.

حادي عشر: ما نُقل من الترخيص عند الضرورة

نُقل عن بعض أهل العلم الترخيص في الاستمناء عند خوف الوقوع في الزنا، أو عند خشية الضرر الشديد، لا على جهة الإباحة المطلقة، بل من باب ارتكاب أخف الضررين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

وقد رُخّص فيه طائفة من السلف والخلف للضرورة، مثل أن يخشى الزنا فلا يعصم منه إلا به، ومثل أن يخاف إن لم يفعله أن يمرض، وهذا قول أحمد وغيره، وأما بدون الضرورة فما علمت أحدًا رخّص فيه.

وهذا النقل يبيّن أن الترخيص عند من قال به ليس فتحًا للباب، ولا تسهيلًا للعادة، وإنما هو استثناء في حال الضرورة، مع بقاء الأصل على المنع والتحذير.

ثاني عشر: علاج العادة في ضوء الشرع

دلّت النصوص على أن علاج الشهوة يكون بالزواج لمن استطاع، وبالصوم، وغض البصر، والاستعفاف، ومجاهدة النفس، وقطع أسباب الفتنة.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قال لَنا النَّبيُّ ﷺ:

«يا مَعشَرَ الشَّبابِ، مَنِ استَطاعَ منكمُ الباءةَ فليَتَزَوَّجْ، ومَن لم يَستَطِعْ فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّه له وِجاءٌ» متفق عليه

وقال الله تعالى:

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ (سورة الزمر)

وقال تعالى:

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة النور)

وقال سبحانه:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿سورة الزمر﴾

ومن وسائل العلاج:

- غض البصر
- ترك الخلوة الطويلة
- الابتعاد عن المثيرات
- حذف المواد والحسابات الفاسدة
- شغل الوقت بالنافع
- ملازمة الصحبة الصالحة
- الإكثار من الصيام والذكر والدعاء
- الصدق في التوبة بعد كل زلة

قال ابن القيم رحمه الله:

دفع الخواطر أسهل من دفع الإرادات، ودفع الإرادات أسهل من دفع العزائم، ودفع العزائم أسهل من معالجة الفعل بعد وقوعه

باب الزنا

الزنا من أعظم الفواحش التي حرمها الله عز وجل، وشدد في النهي عنها، ولم ينهَ سبحانه وتعالى عن فعلها فقط، بل نهى عن قربانها وسلوك الطرق المؤدية إليها، فقال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء)

وهذا التعبير القرآني دقيق وعظيم؛ إذ لم يقل: "ولا تزنوا" بل قال: "وَلَا تَقْرَبُوا" ليشمل الزنا نفسه وكل طريق يفضي إليه من نظرٍ محرم، وخلوة، وتعلق، وكلامٍ مثير، ومحادثاتٍ خفية، ومكالماتٍ تُحرك الشهوة، أو لقاءاتٍ مرئية تُفتح بها أبواب الفتنة.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية:

يقول تعالى ناهيًا عباده عن الزنا وعن مقاربته، وهو مخالطة أسبابه ودواعيه.

أولًا: حقيقة الزنا وحكمه

الزنا الحقيقي هو وقوع العلاقة المحرمة بين رجل وامرأة لا يحل أحدهما للآخر إلا بعقد نكاح صحيح. وهو من كبائر الذنوب، ومن أفحش المعاصي، وقد حرمه الله في كتابه، وحرمه رسوله ﷺ في سنته، وأجمعت الأمة على تحريمه.

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء)

وقال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (سورة الفرقان)

فقرن الله الزنا بالشرك والقتل، وهذا يدل على عظيم خطره وشدة قبحه وأنه من أكبر الكبائر.

وقال الإمام الذهبي رحمه الله في كتابه الكبائر:

الزنا من أكبر الكبائر بعد الشرك وقتل النفس

ثانيًا: حد الزنا في الشريعة

لما كان الزنا جريمة عظيمة تهدم العفة، وتفسد الأسرة، وتعتدي على الأعراض والأنساب، جعل الله عليه حدًّا شديدًا وذلك عند ثبوته بشروطه المعتبرة عند القضاء الشرعي.

قال تعالى:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة النور)

وهذا في حق غير المحصن (الأعزب)، أما المحصن (المتزوج) فقد ثبت في السنة أن حده الرجم إذا ثبت الزنا ثبوتًا شرعيًا عند الحاكم.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«خُذُوا عنِّي خُذُوا عنِّي ، قدْ جعل اللهُ لهنَّ سَبِيلًا ، البِكرُ بالبِكرِ ؛ جَلدُ مِائةٍ ، و نَفْيُ سَنةٍ ، و الثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ ، جَلدُ مائةٍ و الرَّجْمُ» رواه مسلم

وهذه الحدود لا يقيمها الأفراد، ولا الجماعات، وإنما هي من اختصاص ولي الأمر والقضاء الشرعي، بضوابط الإثبات المعروفة عند أهل العلم، دفعًا للظلم، وصيانةٌ للدماء والأعراض.

قال ابن قدامة رحمه الله:

ولا يجوز إقامة الحدود إلا للإمام أو نائبه؛ لأنه حقٌّ لله تعالى يفتقر إلى الاجتهاد، ولا يؤمن فيه الحيف (الظلم) إن تولاه غيره.



ثالثًا: الزنا من أعظم سبل الفساد

وصف الله الزنا بأنه: ﴿فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء)

فهو فاحشة في ذاته، وسوء سبيل في عاقبته، لأنه يفتح أبوابًا من الشرور ومنها: فساد القلب، وضياع الحياء، وهدم الثقة، وتفكك الأسر، واختلاط الأنساب، وانتشار الجرائم، وضعف المجتمع.

قال ابن القيم رحمه الله:

والزنا يجمع خلال (طرق) الشر كلها؛ من قلة الدين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغيرة.

وقال أيضًا في بيان مفاسده:

ومن خاصيته أنه يوجب الفقر، ويقصر العمر، ويكسو صاحبه سواد الوجه، ويورث المقت بين الناس، ويفسد القلب.

ولهذا لم يكتف الشرع بتحريم الزنا، بل أغلق أبوابه، وسد طرقه، ونهى عن أسبابه.

رابعًا: النهي عن مقدمات الزنا

من عظمة الشريعة أنها تعالج الفاحشة قبل وقوعها، فتمنع المقدمات التي تجر إليها. ولذلك أمر الله بغض البصر، وحفظ الفرج، والبعد عن الخضوع بالقول، ونهى عن الخلوة، وحذر من خطوات الشيطان.

قال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (سورة النور)

وقال تعالى:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (سورة النور)

وقال سبحانه:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (سورة الأحزاب)

وقال عز وجل:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ (سورة النور)
قال ابن كثير رحمه الله في معنى خطوات الشيطان:
أي طرائقه ومسالكه وما يأمر به
فكل وسيلة تقرب من الزنا، أو تثير الشهوة، أو تفتح باب التعلق المحرم، فهي داخلة في هذا الباب من جهة المعنى.

خامسًا: زنا الجوارح

بيَّن النبي ﷺ أن الزنا لا يبدأ بالفعل الأكبر، بل له مقدمات تقع من الجوارح والقلب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«كتب على ابنِ آدمَ حظُّه من الزنا فهو مدركٌ ذلك لا محالةَ ، فالعينانِ تزنيانِ وزناهما النظرُ ، والأذنانِ تزنيانِ وزناهما السمعُ ، واليدان تزنيان وزناهُما البطشُ ، والرِّجلانِ تزنيانِ وزناهُما المشيُ ، والقلبُ يتمنى ويشتهي ، والفرجُ يصدقُ ذلك أو يكذبُه» متفق عليه
وهذا الحديث أصل عظيم في فهم صور الفتنة الحديثة؛ لأن الزنا قد يبدأ بنظرة، أو كلمة، أو استماع، أو رسالة، أو تعلق قلبي، ثم يتدرج حتى يقع الفعل الأكبر.
قال ابن بطال رحمه الله:
سُمّيت هذه الأشياء زنا لأنها تدعو إلى الزنا الحقيقي وتكون من أسبابه
وقال ابن حجر رحمه الله في معنى الحديث:
أطلق على هذه الأمور اسم الزنا لكونها من دواعيه ومقدماته

سادسًا: زنا المحادثات

المحادثات الكتابية بين الرجل والمرأة الأجنبيين إذا خرجت عن الحاجة المباحة إلى التلطف، والغزل، والتعلق، واستدعاء العاطفة، وإثارة الشهوة، فهي من أبواب الفتنة ومقدمات الزنا، وقد تدخل في معنى زنا

اللسان أو زنا القول، وإن كانت مكتوبة لا منطوقة؛ لأن الكتابة في معناها كلام.

قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (سورة ق)

وقال سبحانه:

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ (سورة الإسراء)

فالكلام المكتوب في الرسائل الخاصة يأخذ حكم الكلام من حيث أثره ومقصده، فإذا كان غزلًا، أو إثارة، أو تهييجًا، أو فتحًا لباب التعلق المحرم، كان من مقدمات الفاحشة.

وقال ابن القيم رحمه الله:

ومن حفظ لسانه وقلبه وجوارحه، حفظ الله عليه دينه

والمحادثات الخفية كثيرًا ما تبدأ بكلمة عادية، ثم تتدرج إلى المزاح، ثم التعلق، ثم التصريح، ثم إلى المطالبة بما هو أعظم، وهذه هي خطوات الشيطان التي حذر الله منها.

سابعًا: زنا المكالمات

المكالمات الصوتية بين الأجنبيين قد تكون مباحة إذا كانت لحاجة معتبرة وبضوابط الشرع، من غير خضوع بالقول ولا إثارة ولا خلوة مريبة. أما إذا تحولت إلى ترقيق للصوت، أو حديث عاطفي، أو تكرار بلا حاجة، أو كلمات تثير الشهوة، فهي باب من أبواب الفتنة.

قال تعالى:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (سورة الأحزاب)

وقال الطبري رحمه الله في تفسيرها:

لا تلنّ بالقول للرجال فيما يبتغيه أهل الفاحشة منكن

وقال القرطبي رحمه الله:

أمرهن الله أن يكون قولهن جزلا وكلامهن فصلا ، ولا يكون على وجه يظهر في القلب علاقة بما يظهر عليه من اللين

فالمكالمة الصوتية إذا تحولت إلى باب للذة المحرمة، أو التعلق، أو الخضوع بالقول، أو إيقاظ الشهوة، فهي من مقدمات الزنا، وإن لم تكن زنا حقيقيًا موجبًا للحد.

ثامنًا: زنا المكالمات المرئية

المكالمات المرئية أشد خطرًا من المحادثات الكتابية والمكالمات الصوتية؛ لأنها تجمع بين النظر، والصوت، والكلام، وربما الخلوة الرقمية، وقد تُفتح بها أبواب من الفتنة لا تجتمع في غيرها.

قال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (سورة النور)

وقال سبحانه:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (سورة النور)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«العينانِ تزنيانِ وزناهما النظرُ» متفق عليه

فإذا كانت النظرة المحرمة وحدها من زنا العين، فكيف إذا اجتمع معها العري والصوت والكلام والتلذذ والخلوة والتكرار؟

وقال ابن القيم رحمه الله:

الصبر عن النظر أسهل من الصبر على ألم ما بعده؛ فإن النظرة تولد في القلب حسرة، وتفتح عليه باب الطلب.

والمكالمات المرئية الخاصة إذا قامت على إظهار الزينة، أو تبادل النظرات المثيرة، أو العري، أو الحديث العاطفي، أو الخلوة بين أجنبيين، فهي من أخطر ذرائع الفاحشة في هذا العصر.



تاسعًا: الفرق بين الزنا الحقيقي الإلكتروني

الزنا الحقيقي هو الفعل الذي يترتب عليه الحد إذا ثبت بشروطه الشرعية، أما زنا المحادثات والمكالمات والنظر فهو من زنا الجوارح ومقدمات الفاحشة، لا يساوي الزنا الحقيقي في الحد، لكنه معصية محرمة وخطر عظيم على القلب والدين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«والفرجُ يصدقُ ذلك أو يكذبُه» متفق عليه

وهذا يدل على أن زنا الجوارح قد يبقى في دائرة المقدمات، وقد يصدقه الفرج فيتحول إلى الزنا الأكبر. ولهذا فإن خطر المحادثات والمكالمات المحرمة ليس في ذاتها فقط، بل في كونها طريقًا إلى ما بعدها.

قال النووي رحمه الله في شرح الحديث:

معنى الحديث أن ابن آدم قُدّر عليه نصيب من الزنا؛ فمنهم من يكون زناه حقيقيًا بإدخال الفرج في الفرج الحرام، ومنهم من يكون زناه مجازًا بالنظر أو الاستماع أو الكلام أو المسّ أو المشي إلى الفاحشة.

عاشرًا: أثر الزنا ومقدماته على القلب

الزنا ومقدماته يفسدان القلب، ويضعفان الحياء، ويورثان القسوة، ويجرئان على حدود الله.

قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة المطففين)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن العبدَ إذا أخطأ خطيئةٌ نُكِتتْ في قلبِهِ نُكتةً سوداءَ فإذا هو نزعَ واستغفرَ وتابَ سُقلَ قلبهُ وإن عادَ زيدَ فيها حتى تعلو قلبهُ وهو الرانُ الذي ذكرَ اللهُ كَلّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ» أخرجه ابن ماجه، والنسائي وابن حبان

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«الحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ» متفق عليه
وقال ابن القيم رحمه الله:
ومن عقوبات المعاصي ذهاب الحياء، الذي هو مادة حياة القلب فمن اعتاد المحادثات المحرمة، أو المكالمات الخفية، أو النظر المتكرر، ضعف إنكاره للمنكر، وتجرأ قلبه على ما كان يستعظمه.

حادي عشر: أسباب الوقوع في الزنا الإلكتروني

من أعظم أسباب هذا الباب: ضعف مراقبة الله، والفراغ، وسهولة الوصول، وكثرة الخلوة بالهاتف، والتساهل في الكلام بين الأجنبيين، وغياب الحياء، وضعف الرقابة الأسرية، وصحبة السوء، والتعلق العاطفي غير المنضبط.
قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ (سورة العلق)
وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (سورة غافر)

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:
«نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ منَ النَّاسِ الصِّحَّةُ والفراغُ» رواه البخاري
وقال ابن القيم رحمه الله:
نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل
فإذا اجتمع الفراغ مع الهاتف، والخلوة، وضعف الإيمان، وسهولة التواصل، كان ذلك من أعظم أبواب الفتنة.

ثاني عشر: سد الذرائع

من رحمة الله أن الشريعة لا تنتظر حتى يقع الإنسان في الفاحشة الكبرى، بل تأمره أن يقطع الطريق من بدايته.
قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء)
وقال تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (سورة النور)

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«لا يخلون أحدكم بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما، ومن سرته حسنته وساءته سيئته، فهو مؤمن» رواه أحمد

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

الأصل أن كل ما كان سببًا للفتنة فإنه لا يجوز، فإن الذريعة إلى الفساد يجب سدها.

وعلى هذا، فإن المحادثات والمكالمات الخاصة التي لا حاجة لها، أو التي يغلب عليها التعلق واللين والفتنة، يجب قطعها؛ لأنها من الطرق الموصلة إلى الحرام.

قال الشافعي رحمه الله :

عَفواً تَعِفُّ نِساؤُكُم في المَحرَمِ .... وَتَجَنَّبوا ما لا يَليقُ بِمُسلِمِ
إِنَّ الزِّنا دَينٌ إِذا أَقرَضتَهُ .... كانَ الوَفا مِن أَهلِ بَيتِكَ فَاِعلَمِ
يا هاتِكاً حُرمَ الرِجالِ وَقاطِعاً .... سُبُلَ المَوَدَّةِ عِشتَ غَيرَ مُكَرَّمِ
لَو كُنتَ حُرّاً مِن سُلالَةِ ماجِدٍ .... ما كُنتَ هَتّاكاً لِحُرمَةِ مُسلِمِ
مَن يَزنِ يُزنَ بِهِ وَلَو بِجِدارِهِ .... إِن كُنتَ يا هذا لَبيباً فَافهَمِ

باب زنا المحارم

زنا المحارم من أغلظ صور الزنا والفاحشة وأشدها قبحًا؛ لأنه يجمع بين جريمة الزنا، وخيانة الرحم، وانتهاك الأمانة، وهدم حرمة البيت الذي جعله الله موضع الستر والسكن والرحمة. فإذا كان الزنا بالأجنبية فاحشةً وساء سبيلًا، فإن وقوعه مع المحارم أعظم جرمًا وأشد نكارة؛ لأن المحرم موضع صيانة وثقة وقرب، لا موضع ريبة أو اعتداء.

أولًا: المحارم موضع حرمة وصيانة

إن الله تعالى بيَّن المحارم الذين لا يجوز نكاحهم، وجعل حرمتهم ثابتة مؤبدة.

فقال تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (سورة النساء)

وهذه الآية تقرر حرمة النكاح بين المحارم، فإذا كان النكاح المشروع محرمًا بينهم، فالفاحشة معهم أشد تحريمًا وأغلظ إثمًا.

قال القرطبي رحمه الله في معنى الآية:

هذه الآية أصل في بيان المحرمات من النسب، وأن تحريمهن مؤبد لا يزول بحال.

فالمحارم في الإسلام ليست بابًا للتساهل، بل هي سياج من الثقة والطهارة والحرمة.



ثانيًا: الجمع بين الفاحشة وقطيعة الرحم

الزنا في ذاته فاحشة، فإذا وقع في دائرة الرحم اجتمع معه انتهاك حرمة القرابة، وخيانة الأمان العائلي، وقطع ما أمر الله أن يوصل.

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (سورة الرعد)

وقال سبحانه:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ (سورة محمد)

وزنا المحارم يضرب الرحم في أصله، ويحول القرابة من موضع أمان إلى موضع خوف وفساد.

ثالثًا: خيانة الأمانة داخل البيت

البيت أمانة، والمحارم أمانة، والقرب العائلي مبني على الثقة والستر، فمن استغل هذه الثقة في الفاحشة فقد خان أمانة عظيمة.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأنفال)

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (سورة النساء)

وعن عبدالله عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِه» متفق عليه

فمن جعل الرعاية طريقًا للفساد، أو استغل القرب الأسري في المعصية، فقد جمع بين الفاحشة والخيانة والغدر.

رابعًا: التغليظ في انتهاك الحرمات

إن المحارم من أعظم الحرمات، وقد أمر الله بتعظيم حرماته والوقوف عند حدوده

قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ (سورة الحج)

وقال سبحانه:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة البقرة)

وقال عز وجل:

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (سورة النساء)

وقال ابن القيم رحمه الله:

من أعظم عقوبات الذنوب أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتضعف وقار حرماته في نفس العبد.

فزنا المحارم دليل على انهيار عظيم في تعظيم حدود الله، لأن صاحبه لم يكتف بانتهاك حد الفاحشة، بل تعدى إلى حرمة الرحم والبيت.

خامسًا: زنا المحارم من أفحش الفواحش

قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (سورة الأعراف)

وزنا المحارم داخل في الفواحش الظاهرة والباطنة؛ لأنه فاحشة في الفعل، وفاحشة في الخيانة، وفاحشة في استغلال القرب والستر.

وقال تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الأنعام)

قال الطبري رحمه الله في معنى الفواحش:

هي قبائح الذنوب وعظائمها، ما ظهر منها وما خفي

وزنا المحارم من عظائم القبائح؛ لأن النفوس السليمة تنفر منه، والشرائع جاءت بتغليظ حرمته، والفطرة تشهد ببشاعته.

سادسًا: أثره على الأسرة والبيت

زنا المحارم لا يفسد فردًا واحدًا، بل يضرب بنيان الأسرة في أصل الثقة والأمان. فالبيت الذي يجب أن يكون مأوى وسكنًا وسترًا، يتحول بهذه الجريمة إلى موضع خوف وجرح وفساد.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ (سورة النحل)

وقال سبحانه:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الروم)

فالأسرة في الإسلام موطن سكن ورحمة، وزنا المحارم يناقض هذا المعنى، ويفتح بابًا من الاضطراب والفضيحة والقطيعة والانكسار.

سابعًا: خطر استغلال الضعفاء

إذا وقع زنا المحارم في صورة إكراه، أو استغلال ضعف، أو تهديد، أو تغرير بصغير أو صغيرة، كان الإثم أعظم والجناية أشد؛ لأنه يجمع بين الفاحشة والظلم والاعتداء.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (سورة البقرة)

وقال سبحانه: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (سورة الشعراء)

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«اتَّقُوا الظُّلمَ ؛ فإنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ» رواه مسلم

وعن أنس بن مالك وعبدالله بن عمرو بن العاص وابن عباس عنهم أن النبي ﷺ قال:

«ليس منا من لم يرحمْ صغيرَنا ، ويُوَقِّرْ كبيرَنا» رواه الترمذي وأحمد

فمن استغل قريبًا ضعيفًا، أو صغيرًا، أو خائفًا، أو جاهلًا، فقد جمع على نفسه من الظلم ما يزيد هذه الفاحشة قبحًا إلى قبحها.

تاسعًا: وجوب حماية المحارم وصيانة البيوت

من واجب الأسرة أن تحفظ حدود الله داخل البيت، وأن تمنع أسباب الفتنة، وأن تربي أبناءها على الحياء، والستر، واحترام الخصوصيات، وعدم التساهل في الخلوات المريبة، أو المزاح الفاسد، أو النظر المحرم، أو كشف العورات.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (سورة التحريم)

وقال تعالى في آداب الاستئذان داخل البيوت:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة النور)

وقال بعدها:

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة النور)

وهذه الآيات تدل على عناية الشريعة بآداب البيوت، وحفظ العورات، ومنع أسباب الفتنة حتى بين أهل البيت.

وقال ابن كثير رحمه الله في آية الاستئذان:

أمر الله المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم ومن لم يبلغ الحلم من أولادهم في ثلاثة أحوال، وهي أوقات تكشف العورات غالبًا.



عاشرًا: زنا المحارم وإشاعة الفاحشة

إذا انتقل هذا المنكر من السر إلى التهاون، أو التبرير، أو التستر الذي يضيع حقوق الضحايا ويجرئ الجناة، صار ذلك من أعظم أسباب إشاعة الفاحشة داخل البيوت والمجتمعات.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النور)

فالواجب ستر الضحايا وصيانة كرامتهم، مع منع المعتدي وردعه وعدم تمكينه من تكرار الجريمة أو الإفساد.

حادي عشر: كلام أهل العلم في الزنا

قال ابن القيم رحمه الله في كلامه عن مفاسد الزنا عمومًا:

الزنا يجمع خلال الشر كلها؛ من قلة الدين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغيرة

وزنا المحارم داخل في هذا المعنى وزيادة؛ لأنه يضم إلى فساد الزنا فساد الرحم وخيانة الأمانة وانتهاك حرمة البيت.

وقال الإمام الذهبي رحمه الله في عد الكبائر:

الزنا من أكبر الكبائر

وقال أهل العلم:

إن المعصية تغلظ بحسب الزمان والمكان والحال والفاعل والمفعول به، ولا شك أن الزنا بالمحارم أغلظ من الزنا بغيرهم؛ لما فيه من انتهاك حرمة القرابة وقطع الرحم وخيانة الأمانة.

باب الدياثة

من مقاصد الشريعة الإسلام العظيمة حفظ الأعراض، وصيانة البيوت، وإقامة الأسرة على العفة والستر والغيرة المحمودة. ولذلك عظم الإسلام شأن الغيرة التي تحمي الحرمات، وذم ضدها من موت القلب وسقوط المروءة والرضا بالخبث في الأهل. ومن أخطر صور هذا الفساد ما يُسمى الدياثة، وهي من كبائر الذنوب لما ورد فيها من الوعيد الشديد، ولما يترتب عليها من فساد الدين والبيت والمجتمع.

أولًا: تعريف الدياثة

الدياثة في أصل معناها: سقوط الغيرة على الأهل، والرضا بالخبث والفاحشة فيهم، أو السكوت عنها مع القدرة على الإنكار والمنع.

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«ثلاثٌ لا يدخلون الجنةَ ولا ينظرُ اللهُ إليهم يومَ القيامةِ العاقُّ والدَيه والمرأةُ المترجلةُ المتشبهةُ بالرجالِ والديوثُ وثلاثةٌ لا ينظرُ اللهُ إليهم يومَ القيامةِ العاقُّ بوالدَيه والمدمنُ الخمرَ والمنانُ بما أعطى» رواه النسائي وأحمد

وقال أهل العلم في تفسير الديوث:

هو الذي لا يغار على أهله، ويرضى بالخبث فيهم

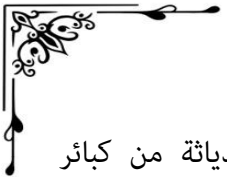
وقال ابن الأثير رحمه الله:

الديوث هو الذي لا يغار على أهله

وقال المناوي رحمه الله:

الديوث هو الذي يقر السوء في أهله، ولا يغار عليهم

فليست الدياثة مجرد ضعف عابر، بل هي رضا أو إقرار أو تساهل خطير فيما يمس العرض والحياء والعفة.



ثانيًا: الدياثة من كبائر الذنوب

ويدل الوعيد الشديد الوارد في الديوث على أن الدياثة من كبائر الذنوب؛ لأن النصوص رتبت عليها الحرمان من نظر الله، أو الوعيد بالحرمان من الجنة، وهذا لا يكون إلا في عظائم المعاصي.

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«ثلاثٌ لا يدخلون الجنةَ ولا ينظرُ اللهُ إليهم يومَ القيامةِ العاقُّ والدَيه والمرأةُ المترجلةُ المتشبهةُ بالرجالِ والديوثُ وثلاثةٌ لا ينظرُ اللهُ إليهم يومَ القيامةِ العاقُّ بوالدَيه والمدمنُ الخمرَ والمنانُ بما أعطى» رواه النسائي وأحمد

وقال أهل العلم:

كل ذنب ورد فيه وعيد خاص، أو لعن، أو غضب، أو نفي إيمان، أو حرمان من الجنة، فهو من الكبائر

فالدياثة كبيرة لأنها تجمع بين ضعف الدين، وسقوط الغيرة، والتفريط في الأمانة، وترك الإنكار على المنكر في أخص مواضع المسؤولية وهى مع الأهل والبيت.

ثالثًا: مسؤولية الرجل في أهله

الإسلام لم يجعل الرجل متفرجًا على بيته، بل جعله راعيًا ومسؤولًا، مأمورًا بالحفظ والتوجيه والرعاية.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿سورة التحريم﴾

وقال علي رضي الله عنه في تفسيرها: علموهم وأدبوهم.

وقال ابن كثير رحمه الله:

أي: مُروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر، ولا تدعوهم هملاً فتأكلهم النار يوم القيامة.

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:
«كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ فالأميرُ الذي على الناسِ راعٍ عليهم وهو مسؤولٌ عنهم والرجلُ راعٍ على أهلِ بيتِهِ وهو مسؤولٌ عنهم والمرأةُ راعيةٌ على بيتِ بعلها وولدِهِ وهي مسؤولةٌ عنهم وعبدُ الرجلِ راعٍ على بيتِ سيدِهِ وهو مسؤولٌ عنهُ ألا فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ» متفق عليه

فهذه النصوص تدل على أن حماية الأهل من الفاحشة والانحراف ليست تشددًا، بل هي واجب شرعي وأمانة يسأل عنها العبد بين يدي الله.

رابعًا: الغيرة المحمودة والشك المذموم

إن الغيرة التي يحبها الله هي الغيرة المنضبطة بالشرع، وهي التي تحفظ العرض وتصون الحرمات، لا الغيرة القائمة على الظلم والاتهام وسوء الظن.

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّ منَ الغَيرةِ : ما يحبُّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ ، ومنها ما يُبغِضُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ، فأمَّا الغَيرةُ الَّتي يحبُّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ : فالغَيرةُ في الرِّيبةِ ، وأمَّا الغيرةُ الَّتي يبغضُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ : فالغَيرةُ في غيرِ ريبةٍ»

رواه النسائي وأبو دوود وأحمد

فالغيرة المحمودة تكون عند وجود أسباب الفتنة أو مظانها، فتدفع صاحبها إلى النصح، والمنع، والحماية. أما الغيرة المذمومة فهي اتهام بلا سبب، وتجسس وعدوان، وظلم للأهل بغير بينة.

ولهذا كانت الدياثة في الطرف المقابل ليست تركًا للشك المذموم، بل هي ترك للغيرة الواجبة عند وجود المنكر أو مقدماته.

خامسًا: شرف الغيرة ومنزلتها

الغيرة خُلق شريف، وهي من أخلاق الأنبياء والصالحين، وهي دليل حياة القلب وتعظيم الحرمات. وقد أثبت النبي ﷺ الغيرة لله تعالى على وجه يليق بجلاله، وجعل غيرة المؤمن من آثار الإيمان.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« إنَّ اللهَ يَغارُ، وإنَّ المُؤمِنَ يَغارُ، وغَيرةُ اللهِ أن يَأتيَ المُؤمِنُ ما حَرَّمَ عليه»

رواه مسلم والبخاري باختلاف يسير

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال:

« قال سَعدُ بنُ عُبادةَ: لو رَأيتُ رَجُلًا مع امرَأتي لَضَرَبتُه بالسَّيفِ غَيرَ مُصفِحٍ عنه، فبَلَغَ ذلك ﷺ فقال: أتَعجَبونَ مِن غَيرةِ سَعدٍ، فواللَّهِ لأنا أغيَرُ منه، واللهُ أغيَرُ مِنِّي! مِن أجلِ غَيرةِ اللهِ حَرَّمَ الفَواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، ولا شَخصَ أغيَرُ مِنَ اللهِ، ولا شَخصَ أحَبُّ إليه العُذرُ مِنَ اللهِ، مِن أجلِ ذلك بَعَثَ اللهُ المُرسَلينَ مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ، ولا شَخصَ أحَبُّ إليه المِدحةُ مِنَ اللهِ، مِن أجلِ ذلك وعَدَ اللهُ الجَنَّة» متفق عليه

وقال ابن القيم رحمه الله:

أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له؛ فالغيرة تحمي القلب، فتحمي له الجوارح، وتدفع السوء والفواحش.

فالغيرة ليست خلقًا اجتماعيًا مجردًا، بل هي معنى إيماني يحرس القلب والبيت والمجتمع من الفساد.

سادسًا: صور الدياثة

إن للدياثة صور متعددة، تختلف في درجتها وخطرها، ويجمعها معنى الرضا بالخبث أو ترك إنكاره مع القدرة.

ومن صورها:

- أن يرضى الرجل بالفاحشة الصريحة في أهله، أو يعلم بها ثم يقرها ولا ينكرها.

- أن يسمح لأهل بيته بعلاقات محرمة، أو محادثات خفية، أو خلوات مريبة، وهو يعلم خطرها.
- أن يهون خروج الأهل متبرجات أو متساهلات في الحجاب والستر، مع قدرته على النصح والتوجيه.
- أن يترك المحارم في البيت بلا توجيه ولا متابعة، مع علمه بوجود أسباب الفتنة.
- أن يسمح بدخول المحتوى الفاسد إلى بيته، من أفلام ومقاطع وحسابات تهتك الحياء وتطبع الفاحشة.
- أن يفتخر بما ينبغي أن يستحي منه، أو يعد تساهله في الأعراض نوعًا من التحضر والانفتاح.
- أن يدافع عن المنكر إذا وقع في أهله، لا من باب الستر والإصلاح، بل من باب الرضا والتبرير.
- أن يُسقط معنى الغيرة بحجة الثقة، مع وجود الريبة وأسباب الانحراف.

وهذه الصور ليست في درجة واحدة، لكن يجمعها أنها ضعف في القيام بواجب الحماية والإنكار، وقد يصل بعضها إلى حقيقة الدياثة التي ورد فيها الوعيد الشديد.

سابعًا: إشاعة الدياثة

من أخطر ما في الدياثة أنها لا تقف عند حدود التفريط الشخصي، بل تعين على إشاعة الفاحشة داخل البيت ثم في المجتمع.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة التحريم﴾

قال ابن كثير رحمه الله:
أي: يختارون ظهور الكلام عن الفاحشة وانتشاره في المؤمنين.
فإذا كان مجرد محبة شيوع الفاحشة متوعدًا عليه، فكيف بمن يقر أسبابها في بيته، أو يرضى بها في أهله، أو يعطل الغيرة التي جعلها الله سياجًا للأعراض؟

ثامنًا: الدياثة تضعف الحياء

الدياثة لا تنشأ غالبًا إلا من ضعف الحياء، وموت الإحساس بحرمة العرض، واستمراء المنكر.

عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّ ممَّا أدرك النَّاسُ من كلامِ النُّبوَّةِ الأولَى : إذا لم تستحْيِ فاصنَعْ ما شئتَ» رواه البخاري

وقال ابن القيم رحمه الله:
ومن عقوبات المعاصي ذهاب الحياء، الذي هو مادة حياة القلب.
فإذا مات الحياء، سهل على الإنسان أن يرى المنكر في أهله فلا يتحرك قلبه، وأن يسمع ما يخدش العرض فلا يتألم، وأن يبرر ما كان أهل الإيمان يستعظمونه.

ثامنًا: الدياثة وخيانة الأمانة

الأهل أمانة، والبيت أمانة، والعرض أمانة، ومن فرط في هذه الأمانة فقد خان ما استرعاه الله.
قال تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة الأنفال﴾

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
« ما مِنْ عبدٍ يسترْعيه اللهُ رعيَّةً ، يموتُ يومَ يموتُ ، وهوَ غاشٌّ لرعِيَّتِهِ ، إلَّا حرّمَ اللهُ عليْهِ الجنَّةَ» متفق عليه

ومن أعظم الغش للرعية أن يترك الرجل أهل بيته للفتنة، وأن يرى أبواب الفاحشة مفتوحة عليهم فلا يغلقها، أو يعلم بالمنكر فلا ينصح ولا يمنع ولا يغار.

تاسعًا: أسباب الدياثة المعاصرة

من أسباب انتشار صور الدياثة في العصر الحديث:

- ضعف الإيمان ومراقبة الله.
- موت الحياء بسبب الإعلام الفاسد والمحتوى الإباحي.
- تبديل المفاهيم، حتى تُسمى الغيرة تشددًا، والتفريط تحضرًا.
- الخوف من كلام الناس أكثر من الخوف من الله.
- ضعف شخصية الولي أمام أهله، وترك مسؤولية التوجيه.
- الجهل بالأحكام الشرعية وحدود العلاقات والستر.
- كثرة التعرض للمشاهد التي تطبع الفاحشة وتكسر حاجز الإنكار.
- التأثر بخطاب يجعل العرض شأنًا فرديًا لا علاقة للأهل بحفظه.

قال تعالى:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿سورة فاطر﴾

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

فإذا زُين التفريط في صورة الحرية، وزُينت الدياثة في صورة الثقة، انقلبت الموازين، واحتاج الناس إلى نور الوحي ليعرفوا الحق من الباطل.

عاشرًا: الدياثة في الصورة الرقمية

من صور الدياثة المعاصرة أن تُترك الفاحشة تدخل البيت عبر الأجهزة، ثم لا يكون هناك إنكار ولا متابعة ولا حماية. فالهاتف والإنترنت قد يفتحان على الأهل أبواب علاقات محرمة، وصور فاسدة، ومحادثات خفية، ومحتوى يهدم الحياء.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ﴿سورة غافر﴾

فمن واجب الولي أن يحفظ أهله من أسباب الفتنة الرقمية، وأن يجمع بين الثقة والتوجيه، وبين الستر والمتابعة، وبين الرحمة والحزم.

حادي عشر: الغيرة تحفظ البيت والمجتمع

الغيرة الشرعية ليست قسوة، بل رحمة؛ لأنها تمنع أسباب الهلاك قبل وقوعه، وتحفظ البيت من الانكسار، وتصون الأسرة من الخيانة، وتحمي المجتمع من انتشار الفاحشة.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

وقال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ﴿سورة الأعراف﴾

وقال ابن القيم رحمه الله:

إذا رحلت الغيرة من القلب ترحلت المحبة، بل ترحل الدين كله.

فشرف الغيرة أنها تقوم على تعظيم حدود الله، وحفظ الحرمات، وصيانة الستر، ومنع الفاحشة أن تجد في البيوت طريقًا آمنًا للانتشار.

ثاني عشر: علاج الدياثة

علاج الدياثة يبدأ بإحياء الإيمان في القلب، وتعظيم حق الله، واستشعار المسؤولية عن الأهل، والرجوع إلى معنى القوامة والرعاية الشرعية.

قال تعالى:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ ﴿سورة النساء﴾

وقال تعالى:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ﴿سورة طه﴾

ومن تمام هذه المسؤولية أن يُسأل العبد عمن استرعاه الله: هل حفظهم؟

هل أدبهم؟

هل منع عنهم أسباب الفتنة؟ هل غار لله وفي الله؟

وهل كان بيته موضع عفة وحياء، أم موضع تهاون وانفلات؟

باب تبديل الزوجات

من أغرب صور الفاحشة المعاصرة الأن وجود ما يُسمّى بتبديل الأزواج، وهو أن يتفق زوجان أو أكثر على إباحة المعاشرة بين غير الزوجين الشرعيين، فيتحول عقد الزواج من ميثاقٍ قائم على السكن والوفاء والعفة إلى بابٍ من أبواب الانفلات والخيانة وإشاعة الفاحشة.
وهذا السلوك لا يمت إلى النكاح الشرعي بصلة، بل هو مصادمة صريحة لأحكام القرآن والسنة، ومناقضة لمقاصد الشريعة في حفظ العرض والنسل والأسرة.

أولًا: حصرُ الإباحة الجنسية في الزواج الشرعي

أصل هذا الباب يُحسم بآيات جامعة من كتاب الله، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ﴿سورة المؤمنون﴾ ﴿سورة المعارج﴾

وهذه الآيات حصرت موضع الإباحة في الزوجة، ثم حكمت على كل من طلب قضاء شهوته خارج هذا الإطار بأنه من العادين، أي المتجاوزين لحدود الله.

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله عند تفسيرها أن من طلب قضاء شهوته في غير الزوجة فقد تعدى ما أحل الله إلى ما حرم الله. وذكر القرطبي رحمه الله أن هذه الآية أصلٌ في تحريم الفروج كلها إلا ما أباحه الله بعقدٍ صحيح.

وقال الشيخ السعدي رحمه الله:

والأصل في الأبضاعِ (الفروج) واللحومِ .. والنفسِ والأموالِ للمعصومِ
تحريمها حتى يجيء الحلُ .... فافهم هداكَ اللهُ ما يملُ

ثانيًا: التبديل زنا بلا خلاف

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء)

فإذا كان الشرع قد نهى عن قربان الزنا، فكيف بالفعل نفسه مع التراضي والتكرار والتبادل؟ إن تبديل الأزواج ليس إلا صورةً من صور الزنا، مهما زُخرف له من الأسماء أو أُلبس من شعارات.

وقد نقل ابن عبد البر رحمه الله إجماع المسلمين على تحريم الزنا وتغليظ شأنه، وأنه من أعظم الكبائر بعد الشرك والقتل بغير حق.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كتب على ابنِ آدمَ حظُّه من الزنا فهو مدركٌ ذلك لا محالةَ ، فالعينانِ تزنيانِ وزناهما النظرُ ، والأذنانِ تزنيانِ وزناهما السمعُ ، واليدان تزنيان وزناهُما البطشُ ، والرِّجلانِ تزنيانِ وزناهُما المشيُ ، والقلبُ يتمنى ويشتهي ، والفرجُ يصدقُ ذلك أو يكذبُه» متفق عليه

وإذا كانت المقدمات قد سُميت بالزنا على جهة التحذير، فإن الوقوع في الفعل الصريح أعظم جرمًا وأشد فحشًا.

ثالثًا: التراضي لا يحل الحرام

هذا السلوك يقوم في الغالب على رضا الأطراف، لكن رضا البشر لا يغير حكم الله، والحرام يبقى حرامًا ولو رضي به أصحابه، كما أن الظلم لا يصير عدلًا لمجرد الاتفاق عليه.

ولقد قرر أهل العلم إجماعًا أن العقود والتراضي لا تُبيح ما حرم الله، لأن الإباحة والتحريم حقٌّ لله سبحانه لا يملكه الناس لأنفسهم.

ولهذا فإن تغيير الاسم أو تغليف الفاحشة بمصطلحات حديثة لا يبدل حقيقتها الشرعية. وقد قرر ابن القيم رحمه الله أن تبديل الأسماء لا يغير حقائق الأشياء ولا يرفع أحكامها، فالخمر لا تصير حلالًا إذا سُميت بغير اسمها، وكذلك الفاحشة لا تصير مباحة إذا سُميت بالحرية أو الانفتاح أو التبديل.



رابعًا: عدم الغيرة والوقوع في الدياثة

جعل الله الغيرة من الأخلاق التي تحفظ الحرمات وتصون الأعراض، وجاءت السنة ببيان عِظمها.

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أتَعجَبونَ مِن غَيرةِ سَعدٍ، فواللَّهِ لأنا أغيَرُ منه، واللهُ أغيَرُ مِنِّي! مِن أجلِ غَيرةِ اللهِ حَرَّمَ الفَواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، ولا شَخصَ أغيَرُ مِنَ اللهِ»

متفق عليه

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« إنَّ اللهَ يَغارُ، وإنَّ المُؤمِنَ يَغارُ، وغَيرةُ اللهِ أن يَأتيَ المُؤمِنُ ما حَرَّمَ عليه»

متفق عليه

وتبديل الأزواج قائمٌ على إبطال الغيرة من أصلها، بل على الرضا بانتهاك الحرمات داخل الإطار الزوجي نفسه ولذلك قد جاء الوعيد الشديد في الدياثة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ثلاثةٌ لا ينظرُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ إليهم يومَ القيامةِ؛ العاقُّ لوالِدَيهِ، والمرأةُ المترجِّلةُ، والدَّيُّوثُ، وثلاثةٌ لا يدخُلونَ الجنَّةَ: العاقُّ لوالِدَيهِ، والمدمِنُ على الخمرِ، والمنَّانُ بما أعطى» متفق عليه

وذكر أهل العلم أن الدياثة من أقبح الخصال، لأنها تدل على فساد القلب، وسقوط المروءة، وتعطيل الغيرة التي هي من حياة النفس.

خامسًا: هدم ميثاق الزواج ومقصوده

قال الله تعالى في بيان مقصود الزواج:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿سورة الروم﴾

وقال سبحانه: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ ﴿سورة النساء﴾

والزواج في الإسلام ليس مجرد إذنٍ بالشهوة، بل هو سكن ومودة ووفاء وأمان وحفظ للعرض وميثاق محكمٌ غليظ.

أما تبديل الأزواج فينسف هذه المعاني من أساسها؛ فقد حول الزوجية إلى علاقة مفتوحة على الخيانة، وفساد لمعنى الخصوصية والوفاء، وهدم الثقة التي يقوم عليها البيت. وقد ذكر المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾

أن في ذلك تعظيمًا لعقد النكاح وتشديدًا في حرمته، وكل ما يناقض هذا الميثاق داخل في باب العدوان عليه.

سادسًا: إشاعة الفاحشة وتطبيع المنكر

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

وهذا الفعل لا يقف عند كونه معصية فردية فحسب، بل يتعدى إلى نشر الفاحشة وتطبيعها، وتحويلها إلى نمطٍ يُدافع عنه ويُروَّج له.

وقد قال ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية:

أي يحبون ظهور الفواحش وانتشارها في المؤمنين

وكل دعوةٍ إلى قبول هذا السلوك أو تلميعه أو إدخاله في دوائر المقبول الاجتماعي هي من إشاعة الفاحشة التي توعظ الله أصحابها.

سابعًا: إفساد القلوب وموت الحياء

الفاحشة تفسد القلب، ومع تكرارها يموت الحياء وتضعف الغيرة ويقل استقباح المنكر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ» متفق عليه

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ ممَّا أدرك النَّاسُ من كلامِ النُّبوَّةِ الأولَى : إذا لم تستحْيِ فاصنَعْ ما شئتَ» رواه البخاري

والعلاقة الزوجية إذا بُنيت على الرضا بالفاحشة، كان ذلك أدل على سقوط الحياء وموت القلب.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن من أعظم عقوبات المعاصي ذهاب الحياء، وأن الحياء مادة حياة القلب.

ثامنًا: معارضة مقاصد الشريعة في حفظ النسل والعرض

الشريعة جاءت بحفظ الضرورات الخمس، ومن أعظمها حفظ العرض وحفظ النسل.

وتبديل الأزواج الفاحش هذا هو عدوان على هذين المقصدين معًا؛ فقد فتح باب اختلاط الحقوق، وفساد العلاقات، وسقوط حرمة الفراش، وأدخل الفوضى إلى البنية الأسرية التي أرادها الإسلام واضحة نقية محمية.

قال تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ ﴿سورة الأحزاب﴾

فإذا كان الشرع قد شدد في باب الأنساب ونسبتها إلى أهلها، فكل ما يعرض هذا الأصل للاضطراب أو الامتهان فهو مناقض لمقاصده العظيمة.

تاسعًا: مخالفة الفطرة السوية

فطر الله تعالى الناس على فطرة سوية قائمة على اختصاص الرجل بزوجته، واختصاص المرأة بزوجها، وقيام العلاقة على الغيرة والوفاء والستر والرحمة.

ولذلك فإن هذا السلوك لا يمثل مجرد مخالفة لحكم فقهي، بل هو انقلاب على الفطرة، وتطبيع مع الانحراف حتى تُمحى الحدود التي تحرس الأسرة.

قال تعالى:

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة الروم﴾

وذكر أهل العلم أن الشريعة جاءت موافقة للفطرة الصحيحة، وأن ما عارضها من مسالك الشهوة والفساد هو من آثار الانحراف عن هدي الله.

باب اللَّواط والسَّحاق

إن شريعة الإسلام جاءت بحفظ الفروج، وصيانة الأعراض، وحراسة الفطرة من الانحراف، وجعلت قضاء الشهوة في موضعها المشروع سبيلًا للعفاف والسكن والمودة. ومن أعظم الفواحش التي شدد الشرع في ذمها: اللواط وما كان قياسًا عليه مثل السحاق؛ لأنهما خروج بالشهوة عن الطريق الذي أباحه الله تعالى، وعدوان على حدود الفطرة والشرع، وإفساد للقلب والحياء ومقاصد الطهارة.

أولًا: أصل التحريم

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ﴿سورة المؤمنون﴾ ﴿سورة المعارج﴾

فهذه الآية حصرت موضع الإباحة في الزواج المشروع، ثم حكمت على من ابتغى غير ذلك بأنه من العادين، أي المتجاوزين حدود الله.

وقال الإمام الطبري رحمه الله في معنى قوله:

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾: أي من التمس لقضاء شهوته غير ما أحله الله له، فهو من المعتدين.

ثانيًا: نصوص القرآن في ذم فاحشة اللواط

ذكر الله تعالى قوم لوط في مواضع متعددة من كتابه، وسمى فعلهم فاحشة، وبين أنه خروج عن الفطرة واعتداء على حدود الله.

قال تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ ﴿سورة الأعراف﴾

وقال سبحانه:

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۝ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ ﴿سورة الشعراء﴾

وقال تعالى:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ﴿سورة النمل﴾

وقال عز وجل:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ.﴾ ﴿سورة العنكبوت﴾

وقال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾: أي لم يسبقكم إلى هذه الفعلة الشنعاء أحد من بني آدم.

وقال القرطبي رحمه الله:

سماها الله فاحشة، وذلك غاية في التقبيح والذم.

ثالثًا: التحذير السنة النبوية من عمل قوم لوط

جاءت سنة النبي ﷺ مؤكدة لما في القرآن من ذم هذه الفاحشة والتنفير منها.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«لعن اللهُ من عَمَلَ عَمَلَ قومِ لوطٍ لعن اللهُ من عَمَلَ عَمَلَ قومِ لوطٍ ثلاثًا» رواه ابن حبان والطبراني

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لاَ ينظرُ الرَّجلُ إلى عورةِ الرَّجلِ ولاَ تنظرُ المرأةُ إلى عورةِ المرأةِ»

رواه مسلم

وهذا الحديث أصل في سد أبواب الفتنة بين الجنس الواحد، ومنع كل ما يفضي إلى إثارة الشهوة أو انتهاك الحرمات.

رابعًا: إجماع أهل العلم

اتفق أهل العلم على تحريم اللواط، وعدوه من أفحش الفواحش وأعظم الكبائر

قال الإمام النووي رحمه الله:

اللواط حرام بإجماع المسلمين

وقال ابن قدامة رحمه الله:

وهو من أفحش المعاصي وأخبثها

وقال ابن القيم رحمه الله:

مفسدة اللواط من أعظم المفاسد، ولهذا كانت عقوبته من أغلظ العقوبات عند أهل العلم

وهذه النقول تدل على أن هذا الباب من المحرمات القطعية، التي دل عليها القرآن، وأكدتها السنة، وأجمع المسلمون على تحريمها.

خامسًا: دخول السحاق في عموم الفواحش المحرمة

تعريف السحاق: هو مباشرة المرأة للمرأة على وجه الشهوة، وهو وإن لم يرد باسمه في القرآن، إلا أنه داخل في عموم النصوص الآمرة بحفظ الفروج والناهية عن الفواحش.

قال تعالى:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ﴿سورة النور﴾

وقال سبحانه:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ﴿سورة الأعراف﴾

وقال تعالى:

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ﴿سورة المؤمنون﴾

فكل استعمال للشهوة في غير ما أباحه الله داخل في معنى العدوان، ومخالف لأمر الله بحفظ الفرج.

سادسًا: أقوال أهل العلم في السحاق

نص أهل العلم على تحريم السحاق وعدوه من الفواحش

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

السحاق حرام باتفاق المسلمين

وقال ابن القيم رحمه الله في معنى فساد الشهوة إذا خرجت عن حدها المشروع:

إن الشهوة إذا لم تُضبط بالشرع أفسدت القلب والفطرة، وقادت صاحبها إلى أنواع من الانحراف

وذكر جماعة من الفقهاء أن السحاق معصية محرمة، لأنه استمتاع محرم خارج ما أذن الله به، وعدوان في باب العفة والطهارة.

سابعًا: مخالفة الفطرة

جعل الله العلاقة بين الرجل والمرأة في إطار الزواج موضعًا للسكن والمودة والرحمة، وجعلها من آياته الدالة على حكمته.

فقال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿سورة الروم﴾

وقال سبحانه:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة الروم﴾

فاللواط والسحاق كلاهما صرف للشهوة عن الطريق الذي خلقه الله لها، ومناقضة لمعنى السكن والمودة والنسل والعفاف. ولهذا قال الله عن قوم لوط: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ ﴿سورة الشعراء﴾

وقال سبحانه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ﴿سورة النمل﴾

وقال ابن القيم رحمه الله:

هـذه الفـواحش مـن أعظـم مـا يفسـد الفطـرة، ويقلـب القلـب عـن استقامته، ويذهب عنه نور الحياء.

ثامنًا: أثر هذه الفواحش على القلب والحياء

الفواحش لا تقف عند حدود الجسد، بل تترك أثرها في القلب، فتورث القسوة، وتضعف الحياء، وتُذهب نور الإيمان.

قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿سورة المطففين﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ» متفق عليه

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ ممَّا أدرك النَّاسُ من كلامِ النُّبوَّةِ الأولَى : إذا لم تستحْيِ فاصنَعْ ما شئتَ» رواه البخاري

وقال ابن القيم رحمه الله:

ومن عقوبات المعاصي ذهاب الحياء، الذي هو مادة حياة القلب

فإذا اعتاد القلب الفاحشة، ضعف إنكاره لها، وسهل عليه ما كان يستعظمه، وهذا من أخطر آثار الذنوب المتكررة خاصة في هذا الباب.

تاسعًا: إشاعة هذه الفواحش وتطبيعها

من أعظم الخطر أن تنتقل الفاحشة من كونها ذنبًا مستترًا إلى دعوة معلنة أو ثقافة مروجة أو سلوك يُطلب تطبيعه بين الناس.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

قال ابن كثير رحمه الله:

أي يحبون ظهور الفواحش وانتشارها في المؤمنين

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
« كلُّ أُمَّتي مُعافًى إلا المجاهرين ، وإنَّ من الجِهارِ أن يعملَ الرجلُ باللّيلِ عملًا ثم يُصبِحُ و قد ستره اللهُ تعالى فيقولُ : عملتُ البارحةَ كذا و كذا، و قد بات يسترُه ربُّه، و يُصبِحُ يكشفُ سِترَ اللهِ عنه» متفق عليه
فالمجاهرة بالفاحشة أو الدعوة إلى قبولها أو تزيينها للناس أعظم خطرًا من مجرد الوقوع الفردي؛ لأنها تهدم حاجز الإنكار، وتضعف الحياء العام، وتعين على إشاعة المنكر.

عاشرًا: خطر هذه الفواحش على الأسرة المجتمع

هذه الفواحش لا تفسد الفرد وحده، بل تفسد المجتمع بتغيير معايير الطهارة والعفة، وتضعف معنى الأسرة، وتصرف الشهوة عن موضعها المشروع الذي به يتحقق السكن والنسل والاستقرار.
قال تعالى:
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ ﴿سورة الإسراء﴾
فإذا كان الزنا سوء سبيل لما يورثه من فساد القلب والأسرة والمجتمع، فإن كل فاحشة جنسية تُطلب خارج ما أحل الله داخلة في هذا المعنى من جهة العدوان على الطهر والعفة ومقاصد النكاح.
وقال الشاطبي رحمه الله في بيان مقاصد الشريعة:
إن الشريعة جاءت لحفظ مصالح العباد في دينهم وأنفسهم وعقولهم وأنسابهم وأموالهم
واللواط والسحاق مناقضان لمقصد حفظ الدين، وحفظ العرض، وحفظ النسل، وحفظ الفطرة، ولذلك كان الشرع في ذمهما شديدًا، وفي التحذير منهما واضحًا.

باب الاستغلال الجنسي للأطفال

من أبشع صور الفاحشة جرمًا هو الاعتداء على الأطفال واستغلالهم جنسيًا، أو تصويرهم، أو تهديدهم، أو المتاجرة ببراءتهم، أو استعمال ضعفهم في إشباع الشهوات المحرمة. وهذا الباب يجمع أنواعًا من الشر وهي الفاحشة، والظلم، والخيانة، وانتهاك الضعيف، وإفساد الفطرة، وإشاعة المنكر، وهدم الأمان الذي جعله الله حقًا للصغار في أسرهم ومجتمعاتهم. وإذا كان الشرع قد عظم شأن حماية النفس والعرض، فإن الاعتداء على الطفل في هذا الباب من أغلظ صور العدوان؛ لأن الطفل لا يملك قدرة الدفاع عن نفسه، ولا يدرك ما يُراد به، ولا القدرة على دفع أهل الفساد عنه.

أولًا: الاستغلال الجنسي للأطفال ظلم عظيم

إن الأطفال ضعفاء في الصغر بحاجة إلى حماية ورعاية، والاعتداء عليهم من أعظم الظلم؛ لأنه يجمع بين الفاحشة وإيذاء الضعيف وانتهاك الأمانة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وقال سبحانه: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ ﴿سورة الشعراء﴾

وقال عز وجل: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿سورة الأنعام﴾

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«اتَّقُوا الظُّلمَ ؛ فإنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ ، واتَّقُوا الشُّحَّ ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلكَ مَن كانَ قبلَكُم ، حملَهُم على أنْ سَفكُوا دِمائَهم ، واستَحَلُّوا مَحارِمَهم» رواه مسلم

وعن أبو ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما رَوى عن اللهِ تَبارَكَ وتَعالى، أنَّه قال: « يا عِبادي، إنِّي حَرَّمتُ الظُّلمَ على نَفسي، وجَعَلتُه بينَكُم مُحَرَّمًا، فلا تَظالَموا» رواه مسلم

والاستغلال الجنسي للأطفال من أقبح الظلم؛ لأنه عدوان على الجسد، والنفس، والكرامة، والفطرة، والطفولة، والأمان.

ثانيًا: تعظيم حق الضعفاء والصغار

إن الشريعة قد عظمت حق الضعفاء، ونهت عن إهمالهم أو التسلط عليهم أو استغلال ضعفهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اللَّهمَّ إنِّي أحرِّجُ حقَّ الضَّعيفينِ: اليتيمِ، والمرأَةِ»

رواه ابن ماجه وأحمد

عن جد عمرو بن شعيب رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ:

« ليسَ منَّا من لم يرحَم صغيرَنا ويعرِفْ شرفَ كبيرِنا»

رواه أبو داوود والترمذي وأحمد

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَن لا يَرحَمْ، لا يُرحَمْ» متفق عليه

فإذا كان الشرع يأمر برحمة الصغير ورعايته، فإن استغلاله أو إيذاءه أو ترويعه مناقض لأصل الرحمة، ودليل على قسوة قلب عظيمة وفساد في الفطرة والدين.

ثالثا: الأطفال أمانة

إن الطفل أمانة، وحمايته واجبة على الأسرة، والمربين، والمجتمع، وأهل السلطة، وكل من قدر على دفع الأذى عنه.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿سورة التحريم﴾

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ» متفق عليه

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى:
﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾: أي مُروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر، ولا تدعوهم هملاً فتأكلهم النار يوم القيامة.
ومن أعظم صور الرعاية حفظ الأطفال من أهل الفساد، ومن الخلوات المريبة، ومن المحتوى المنحرف، ومن البيئات التي تفتح أبواب الاستغلال.

رابعًا: تصوير الفاحشة مع الأطفال

تصوير الاعتداء أو نشره أو تداوله أو الاحتفاظ به جريمة مركبة؛ لأنها تجمع بين الوقوع في الفاحشة، وتثبيت أثرها، وإعادة إيذاء الضحية، ونشر المنكر، وفتح باب الفساد لغيره.
قال تعالى:
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾
وقال القرطبي رحمه الله:
في الآية زجر عن إذاعة الفاحشة وبثها في المؤمنين
فإذا كان من يحب شيوع الفاحشة متوعدًا بهذا الوعيد، فكيف بمن يصنعها أو يصورها أو يبيعها أو ينشرها أو يدل عليها؟

خامسًا: تصوير الأطفال

كل من شارك في إنتاج هذا المنكر، أو تصويره، أو نشره، أو ترويجه، أو تخزينه للتداول، أو الدلالة عليه، داخل في باب التعاون على الإثم والعدوان.
قال تعالى:
﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿سورة المائدة﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَن دَعا إلى هُدًى كانَ له مِنَ الأجرِ مِثلُ أُجورِ مَن تَبِعَه، لا يَنقُصُ ذلك مِن أُجورِهم شيئًا، ومَن دَعا إلى ضَلالةٍ كانَ عليه مِنَ الإثمِ مِثلُ آثامِ مَن تَبِعَه، لا يَنقُصُ ذلك مِن آثامِهم شيئًا» رواه مسلم

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَن سَنَّ سُنَّةً حَسنةً فعمِلَ بِها ، كانَ لَهُ أجرُها وَمِثْلُ أجرِ مَن عملَ بِها ، لا يَنقُصُ مِن أجورِهِم شيئًا ومن سنَّ سنَّةً سيِّئةً فعملَ بِها ، كانَ عليهِ وزرُها وَوِزْرُ مَن عملَ بِها من بعده لا ينقصُ من أوزارِهِم شيئًا» رواه مسلم

فمن نشر أو روج أو حفظ أو أعان على تداول هذه المواد، فقد فتح باب شر متجدد، يخشى أن تتضاعف آثامه بعدد من تأثر بها أو أعاد نشرها أو وقع بسببها في الفساد.

سادسًا: الاعتداء خيانة للأمانة

من استغل طفلًا أو سهل الاعتداء عليه أو سكت عن ذلك مع قدرته على دفعه فقد خان الأمانة، وفرط في حق من لا يستطيع الدفاع عن نفسه.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة الأنفال﴾

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

﴿سورة النساء﴾

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«ما مِنْ عبدٍ يسترْعيه اللهُ رعيَّةً ، يموتُ يومَ يموتُ، وهوَ غاشٌّ لرعِيَّتِهِ، إلَّا حرّمَ اللهُ عليْهِ الجنَّةَ» متفق عليه

ومن أعظم الغش للرعية أن يُترك الطفل فريسة للمعتدين أو للمفسدين أو لمواقع الفاحشة، أو أن يُهمل في بيئة يعلم الولي أنها تهدد دينه ونفسه وعرضه.

سابعًا: حرمة ترويع الطفل وإيذائه

الأذى النفسي والجسدي للطفل من أعظم ما نهى عنه الشرع، والاستغلال الجنسي يجمع بين الأذى الظاهر والباطن، وقد يبقى أثره في النفس سنوات طويلة وقد يكون الأثر في نفسه حتى الممات.

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ﴿سورة الأحزاب﴾.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا ضَرَرَ ولا ضِرارَ» أخرجه الدارقطني والحاكم والبيهقي

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

« المُسلِمُ مَن سَلِمَ المُسلِمونَ مِن لسانِه ويَدِه، والمُهاجِرُ مَن هَجَرَ ما نَهى اللهُ عنه» متفق عليه

فإذا كان الأذى العام محرمًا، فإن أذى الطفل في عرضه وكرامته وبراءته من أغلظ الضرر وأعظم الإثم.

ثامنًا: حماية الأطفال من مقاصد الشريعة

الشريعة جاءت بحفظ الدين، والنفس، والعرض، والنسل، والعقل، والاعتداء على الأطفال في هذا الباب يهدم هذه المقاصد مجتمعة؛ فهو يفسد الدين بإشاعة الفاحشة، ويؤذي النفس، وينتهك العرض، ويشوه الفطرة، ويترك آثارًا على العقل والقلب والسلوك.

قال تعالى:﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ﴿سورة الأنعام﴾

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

وقال الشاطبي رحمه الله:
الشريعة موضوعة لحفظ مصالح العباد في دينهم ودنياهم
ومن أعظم مصالح العباد حفظ الطفولة من الفساد، وحماية البراءة من الانتهاك، وصيانة الأجساد والنفوس من أهل الفجور.

تاسعًا: خطر استغلال الأطفال في العصر الرقمي

إن الخطر صار في العصر أشد؛ لأن المعتدي قد يستدرج الأطفل عبر الرسائل، أو الألعاب، أو الحسابات الوهمية، أو الصور، أو التهديد، أو الابتزاز، ثم يمتد الأذى إلى التصوير والنشر والتداول. وهذا يجعل الواجب أعظم في الرقابة، والتربية، والتوعية، وسد أبواب الاستدراج.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿سورة النور﴾

قال ابن كثير رحمه الله في خطوات الشيطان:
أي طرائقه ومسالكه وما يأمر به
ومن خطوات الشيطان في هذا العصر استدراج الصغار، وتطبيع الكلام الفاسد، وطلب الصور، وتهديد الضحية، وتزيين السرية، ثم الانتقال إلى ما هو أعظم.

عاشرًا: وجوب الستر على الضحية لا الجريمة

الطفل المعتدى عليه ضحية يجب ستره، ورحمته، وحمايته، ورفع الضرر عنه، لا لومه ولا التشهير به. أما الجريمة والمجرم فيجب منعها ودفع خطرها وإبلاغ من يملك إيقافها، حتى لا يتكرر الأذى.

قال تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿سورة المائدة﴾

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«انصُرْ أخاكَ ظالِمًا أو مَظلومًا، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، هذا نَنصُرُه مَظلومًا، فكيفَ نَنصُرُه ظالِمًا؟ قال: تَأخُذُ فوقَ يَدَيه» رواه البخاري

فمن نصرة الطفل المظلوم حمايته وإنقاذه، ومن نصرة المعتدي الظالم منعه من ظلمه، وكف يده عن الضحايا.

حادي عشر: وجوب إنكار هذا المنكر ومنعه

إن هذا الذنب من المنكرات المغلظة التي يجب إنكارها بحسب القدرة والوسائل المشروعة، ولا يجوز التساهل فيها أو التستر على المعتدي مما يعرض غيره من الأطفال للخطر.

قال تعالى:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«من رأى منكم منكرًا فليغيرْه بيدِه فإن لم يستطعْ فبلسانِه . فإن لم يستطعْ فبقلبِه . وذلك أضعفُ الإيمانِ» رواه مسلم

وقال الإمام النووي رحمه الله:

هذا الحديث أصل عظيم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن أعظم الإنكار في هذا الباب حماية الضحية، وقطع الطريق على المعتدي، وإزالة المادة المحرمة، وإبلاغ الجهات المختصة القادرة على منع الجريمة ومحاسبة أهلها.

ثاني عشر: تغليظ الإثم على من يتاجر بفاحشة الأطفال

من صنع هذه المواد أو باعها أو نشرها أو تربح منها فقد جمع بين الفاحشة، والظلم، وأكل المال بالباطل، وإفساد الناس.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

9عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:
« إنَّ اللهَ تعالى إذا حرَّمَ شَيئًا حرَّمَ ثَمَنَه» رواه الدارقطني
فكل مال جاء من تصوير الفاحشة أو نشرها أو المتاجرة بها فإنه خبيث، وإذا تعلق الأمر بالأطفال كان الإثم أشد، والجناية أعظم، والظلم أفحش.

ثالث عشر: كلام أهل العلم

قال ابن القيم رحمه الله:
الغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح، وتدفع السوء والفواحش
وقال أيضًا في معنى حفظ الحرمات:
من لا غيرة له لا يدفع عن عرضه ولا عن حرمته
وقال ابن تيمية رحمه الله:
كل ما كان سببًا للفتنة والفساد فإنه يُنهى عنه، فإن الشريعة جاءت بسد الذرائع المفضية إلى الحرام
وقال الشاطبي رحمه الله:
مقصد الشريعة حفظ الضروريات التي لا تقوم مصالح العباد إلا بها
وهذا الذنب يجتمع فيه حفظ العرض، والنفس، والدين، والعقل، والنسل، ولذلك كان من أوجب الواجبات على الأمة حماية الأطفال من كل طريق يؤدي إلى الاعتداء أو التصوير أو النشر أو الاستغلال.

رابع عشر: التوبة من هذا الذنب

من وقع في هذا الذنب قد وقع في جرم عظيم، ولا طريق له إلا توبة صادقة نصوح، مع الإقلاع الفوري، وإزالة ما يستطيع إزالته من المواد كالصور والمقاطع، ورد الحقوق، وطلب العفو من الله، وتسليم نفسه للحق والعدل إذا ترتب على فعله ظلم للعباد، وقطع كل طريق يعيده إلى هذه الجريمة البشعة.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿سورة الزمر﴾

وقال سبحانه:

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

وتوبة هذا الذنب ليست ألفاظًا تقال فقط، بل لا بد فيها من قطع أسباب الجريمة، وحذف كل مادة محرمة، وترك كل بيئة فاسدة، وطلب العلاج والتأديب، وتمكين أهل الحق والاختصاص من منع تكرر الأذى وحماية الضحايا.

باب انتشار الجرائم الجنسية

من أخطر آثار الفاحشة المعاصرة أنها تتدرج بصاحبها حتى تضعف هيبة الحرام في نفسه، وتقل من مراقبته لله، ويكون موضع نظره للغير موضع شهوة، ومع اجتماع فساد الشهوة وضعف الدين، وغياب الرقابة، وسهولة الوصول إلى المثيرات، وذهاب الحياء، عظمت أسباب الانحراف، وانتشرت الجرائم الجنسية في صور شتى

وليست هذه الجرائم الجنسية وليدة لحظة واحدة، بل لها مقدمات من: نظرة محرمة، وخيال فاسد، ومشاهدة متكررة، وصحبة سوء، وخلوة آثمة، وجرأة على حدود الله، حتى ينتقل القلب من النفور إلى الاعتياد، ومن الاعتياد إلى الطلب، ومن الطلب إلى التعدي والعدوان.

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء)

فسمى الله الزنا فاحشة، ووصف طريقه بأنه سبيل سيئ؛ لأنه طريق لا يفسد صاحبه وحده، بل يفسد البيوت، ويهتك الأعراض، ويضيع الأنساب، ويجرئ النفوس على الاعتداء، ويفتح أبوابًا من الشر لا يعلم مداها إلا الله.

أولًا: الجرائم الجنسية ثمرة ضعف مراقبة الله

إذا ضعف تعظيم الله في القلب، سهل على الإنسان أن يستخفي عن الناس ويبارز رب الناس بالمعصية، وربما ظن أن غياب أعين الخلق أمانٌ، و لكنه نسي أن عين الخالق لا تغيب.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ (سورة العلق)

وقال سبحانه:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (سورة النساء)

فالذي يستخفي بفاحشة أو اعتداء أو خيانة إنما يستخفي ممن لا يملك له نفعًا ولا ضرًا، وينسى أن الله مطلع عليه، محيط به، يسمع كلامه، ويرى مكانه، ويعلم قصده وغايته.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:
«لا يَزني الزَّاني حينَ يَزني وهو مُؤمِنٌ» رواه البخاري
ومقصد الحديث أن العبد لا يفعل هذه الفاحشة حال كمال إيمانه الواجب؛ لأن الإيمان الحي يمنع صاحبه من التعدي على حدود الله، فإذا ضعف سلطان الإيمان قويت دواعي الشهوة والعدوان.

ثانيًا: إطلاق البصر من أعظم أبواب الانحراف

من أعظم مقدمات الجرائم الجنسية إطلاق البصر في الحرام؛ فإن العين باب القلب، وإذا تكرر دخول العبد على الصور والمشاهد أصبح لها أثّر في الخيال، وأثار الشهوة، وضعف الحياء، وجر النفس إلى طلب ما حرم الله.

قال تعالى:
﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾
وقال سبحانه:
﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (سورة النور)
وبدأ الله بغض البصر قبل حفظ الفرج؛ لأن حفظ الفرج لا يستقيم مع إطلاق النظر، ومن ترك لعينيه كل مشهد، ولخياله كل صورة، عرض قلبه للفتنة، وفتح على نفسه بابًا من أبواب الشر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«كتب على ابنِ آدمَ حظُّه من الزنا فهو مدركٌ ذلك لا محالـةَ ، فالعينـانِ تزنيانِ وزناهما النظرُ ، والأذنانِ تزنيانِ وزناهما السمعُ ، واليـدان تزنيـان

وزناهُما البطشُ ، والرِّجلانِ تزنيانِ وزناهُما المشيُ ، والقلبُ يتمنى ويشتهي ، والفرجُ يصدقُ ذلك أو يكذبُه» متفق عليه

وهذا الحديث يكشف التدرج الخطير؛ فالجريمة لا تبدأ غالبًا بالفعل الأخير، بل تبدأ بنظر، واستماع، وكلام، وخطوات، وتمنٍّ، ثم يكون الفعل بعد ذلك تصديقًا لما تراكم في القلب والجوارح.

ثالثا: الإباحية تضعف الحياء وتطبع الفاحشة

كثرة مشاهدة الفاحشة تقتل الحياء شيئًا فشيئًا، وتجعل القبيح مألوفًا، والمنكر هينًا، والإنسان يصبح فيها أسيرًا للصور والمشاهد التي لا تزيده إلا اضطرابًا وجشعًا في الشهوة.

قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة المطففين)

فالمعاصي إذا تكررت تركت على القلب أثرًا، حتى يضعف نوره، ويقل إنكاره، ويألف ما كان يستقبحه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ» متفق عليه

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ ممَّا أدرك النَّاسُ من كلامِ النُّبوَّةِ الأولَى : إذا لم تستحْيِ فاصنَعْ ما شئتَ» رواه البخاري

فإذا ضعف الحياء، سهلت الجرأة على الفاحشة، وإذا ذهب الحياء من القلب والوجه والجوارح، لم يبق للإنسان حاجز قوي يمنعه من تتبع الشهوة والعدوان.

قال ابن القيم رحمه الله في معنى أثر المعاصي:

إن المعاصي تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضًا، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها

وهذا ظاهر في باب الإباحية والفواحش؛ فإن النظرة تجر أختها، والمشاهدة تطلب أشد منها، والخيال الفاسد يبحث عن تطبيقه، حتى يتحول الذنب الخفي إلى خطر ظاهر.

رابعًا: إشاعة الفاحشة تفتح باب الجرائم

إذا شاعت الفاحشة في المجتمع، وكثر عرضها، وسهل الوصول إليها، وضعف إنكارها، نشأ جيل يرى المنكر عاديًا، ويستسهل الحرام، ويضعف في قلبه تعظيم العرض والحياء.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

فإشاعة الفاحشة ليست مجرد نشر صورة أو مقطع أو كلمة، بل هي صناعة بيئة فاسدة ترى الحرام مألوفًا، وتضعف فيها الغيرة، ويقل فيها الإنكار، ويصبح المعتدي أجرأ، والضحية أضعف، والمجتمع أقل حساسية تجاه المنكر.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

(سورة المائدة)

فكل من ينشر الفاحشة، أو يروج لها، أو يهون أمرها، أو يفتح أبوابها، أو يدافع عنها، فهو داخل في التعاون على الإثم بقدر أثره وفعله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَن دعا إلى هُدًى كان له مِن الأجرِ مِثْلُ أجورِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن أجورِهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه مِن الإثمِ مِثْلُ آثامِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن آثامِهم شيئًا» رواه مسلم

فالدعوة إلى الفاحشة ليست بالكلام فقط، بل قد تكون بصورة، أو مشهد، أو منصة، أو إعلان، أو تطبيع، أو سخرية من العفة والحياء.



خامسًا: الخلوة وضعف الرقابة

من أبواب الجرائم الجنسية الخلوة المحرمة، وغياب الرقابة، وترك الحدود الشرعية التي جعلها الله وقاية للناس من الفتنة والاعتداء.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يَخلونَّ رَجُلٌ بامرَأةٍ إلَّا ومعها ذو مَحرَمٍ، ولا تُسافِرِ المَرأةُ إلَّا مع ذي مَحرَمٍ» متفق عليه

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يخلوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ فإنَّ الشيطانَ ثالثُهما» رواه الترمذي وأحمد

وهنا نرى أن الشريعة لا تنتظر وقوع الجريمة ثم تعالج آثارها فقط، بل تغلق أبوابها من البداية، وتمنع المقدمات التي يكثر معها الخطر، وتحفظ الأعراض بسياج من الطهر والحياء والستر والعفاف.

وقد قرر أهل العلم أن:

سد الذرائع أصل معتبر، وأن ما كان وسيلة إلى الحرام مُنع بقدر ما يفضي إليه من الفساد

وهذا من كمال الشريعة؛ فإنها تحفظ النفوس والأعراض قبل أن تهتك، وتمنع أسباب الشر قبل أن تستفحل.

سادسًا: الاعتداء الجنسي ظلم وعدوان

إن الجرائم الجنسية ليست مجرد استجابة للشهوة المحرمة، بل هي ظلم وعدوان وانتهاك لكرامة الإنسان وحرمة الجسد والعرض

وهذه الشهوة لا تبيح ظلمًا، ولا ترفع إثمًا، ولا تجعل المعتدي معذورًا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (سورة البقرة)

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة آل عمران)

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل:

« يا عبادي إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي وجعلتُهُ بينَكم محرَّمًا فلا تَظالموا يا عبادي» رواه مسلم

ومن هنا نعلم أن الاعتداء على الأعراض من أعظم الظلم، وأشد العدوان، وأقبح الخيانة، لأنه يجمع بين معصية الله، وإيذاء النفس، وانتهاك حرمة الغير، وترك آثار عميقةٍ في القلوب والبيوت والمجتمعات.

سابعًا: ضعف الأسرة يفتح أبواب الخطر

الأسرة إذا ضعفت في التربية والرقابة والحوار، تركت الأبناء والبنات أمام عالم مفتوح من الشبهات والشهوات، وقد لا يجدون من يحمي فطرتهم، أو يسمع مشكلاتهم، أو يربيهم على الحياء ومراقبة الله.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (سورة التحريم)

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ» متفق عليه

والرعاية ليست طعامًا ولا لباسًا ولا تعليمًا دنيويًا فقط، بل حفظ للدين والحياء والعرض والفطرة.

ومن الرعاية أن يُحسن الوالدان متابعة الأبناء، ويعلموهم حدود الله، ويبعدون عنهم أبواب الفساد، ويصنعون في البيت البيئة الآمنة القائمة على الرحمة والحزم؛ فإن من أعظم حقوق الأولاد على الآباء تعليمهم ما ينفعهم في دينهم، وتأديبهم، وحفظهم مما يضرهم

وفي زمن الشاشات المفتوحة، صار من أعظم الحفظ أن يعرف الأبناء معنى الحياء، وحدود النظر، وخطر الخلوة، وحرمة الجسد، ووجوب الاستغاثة عند الخطر، وأن البيت مأوىً للأمان وليس موضعًا للإهمال أو تخويف.



ثامنًا: الفساد في تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إذا سكت المجتمع عن بوادر الفاحشة، وسخر الناس من أهل العفة، وهوَّنوا مقدمات الحرام، وتسامحوا مع نشر المنكر، اتسعت دائرة الجرائم؛ لأن المنكر إذا لم يُنكر قويت جرأته، وضعفت مقاومته.

قال تعالى:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة آل عمران)

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من رأى منكم منكرًا فليغيرْه بيدِه فإن لم يستطعْ فبلسانِه. فإن لم يستطعْ فبقلبِه. وذلك أضعفُ الإيمانِ» رواه مسلم

فالأمة التي تحفظ حياءها وأعراضها لا تترك المنكر يكبر حتى يصير جريمة، ولا تنتظر الفساد حتى يستحكم، بل تربي، وتنصح، وتحذر، وتغلق الأبواب، وتحمي الضعفاء، وتردع المعتدين.

تاسعًا: العقوبات الشرعية لحفظ المجتمع

جاءت الشريعة بحفظ الدين والنفس والعقل والنسل والعرض، وجعلت للأعراض حرمة عظيمة، ورتبت على الاعتداء والفواحش أحكامًا رادعة؛ رحمةً بالمجتمع وحمايةً للبيوت والأنساب والضعفاء.

قال تعالى:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة)

وهذه قاعدة عظيمة في معنى الردع؛ فالعقوبة العادلة حياة للمجتمع، لأنها تكف يد المجرم، وتمنع المتردد، وتحمي البريء، وتعلن أن الأعراض ليست مباحة، وأن الشهوات لا تبرر العدوان

وإن الحدود والزواجر شُرعت رحمة بالخلق، وصيانةً للمجتمع، وردعًا لأهل الفساد، لا لمجرد الانتقام

وحماية المجتمع من الجرائم الجنسية لا تكون بالموعظة وحدها، ولا بالعقوبة وحدها، بل باجتماع الإيمان والتربية والستر والحياء وسد الذرائع والرقابة العادلة والردع المشروع.

عاشرًا: طهارة المجتمع تبدأ من طهارة القلب

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (سورة الشمس)

وقال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (سورة النور)

ومن هنا نعلم أن صلاح الظاهر يبدأ من صلاح الباطن، ومن زكى قلبه بالإيمان، وحفظ بصره، وراقب ربه، وابتعد عن المثيرات، وصان خلوته، كان أبعد الناس عن الفاحشة والعدوان.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ألا إن في الجسدِ مضغةً إذا صلَحتْ صلَحَ لها سائرُ الجسدِ وإذا فسدتْ فسد لها سائرُ الجسدِ ألا وهي القلبُ» متفق عليه

فالقلب إذا فسد بالشهوة المحرمة، ظهر فساده على العين واللسان واليد والرجل، وإذا صلح بالإيمان والحياء والخوف من الله، صلحت الجوارح، واستقام السلوك، وأمنت منه الأعراض.

باب تصوير الفاحشة ونشرها

من أخطر صور الفاحشة في العصر الحديث أنها صارت تُصوَّر، وتُحفظ، وتُتداول، وتُبث، وتُعاد مشاركتها عبر الوسائل الرقمية، حتى يتحول الذنب من معصية فردية إلى باب من أبواب إشاعة الفاحشة وإفساد القلوب والمجتمعات. وتصوير الفاحشة أو نشرها أو الإعانة على تداولها من أعظم أبواب الإثم؛ لأنه يجمع بين انتهاك الحرمات، وهتك الستر، وإثارة الشهوات، والدلالة على الحرام، وتوسيع دائرة الفساد.

أولًا: حرمة إشاعة الفاحشة

إن إشاعة الفاحشة أعظم أصل في هذا الباب

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

وقد توعد الله في هذه الآية من يحب إشاعة الفاحشة بالعذاب الأليم، فكيف بمن يصورها، أو ينشرها، أو يروج لها، أو يسهل وصول الناس إليها؟

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيرها:

أي: يختارون ظهور الكلام عن الفاحشة وانتشاره في الذين آمنوا.

وقال القرطبي رحمه الله:

في هذه الآية زجر عن إذاعة الفاحشة، وبثها في المؤمنين، وتتبع عوراتهم فمجرد محبة انتشار الفاحشة خطر عظيم، أما المساهمة العملية في نشرها فهي أشد وأقبح.

ثانيًا: التصوير الإباحي

تصوير الفاحشة أو إنتاج المواد الإباحية أو نشرها أو تسهيل الوصول إليها يدخل في التعاون على الإثم والعدوان، وقد نهى الله عن ذلك نهيًا صريحًا.

فقال تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿سورة المائدة﴾

وكل من شارك في تصوير الفاحشة، أو نشرها، أو ترويجها، أو حفظها بقصد تداولها، أو دل غيره عليها، فقد أعان على الإثم، وفتح على الناس بابًا من أبواب الفساد.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَن دعا إلى هُدًى كان له مِن الأجرِ مِثْلُ أجورِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن أجورِهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه مِن الإثمِ مِثْلُ آثامِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن آثامِهم شيئًا» رواه مسلم وأحمد

فالذي ينشر مادة محرمة لا يتحمل إثم فعله وحده، بل يلحقه من أوزار من شاهدها أو تأثر بها أو وقع بسببها في الحرام.

ثالثًا: هتك للستر والمجاهرة بالمعصية

الأصل في المسلم إذا ابتُلي بذنب أن يستتر بستر الله، وأن يتوب بينه وبين ربه، لا أن يصور المعصية أو ينشرها أو يفاخر بها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كلُّ أُمَّتي مُعافًى إلا المجاهرين، و إنَّ من الجِهارِ أن يعملَ الرجلُ بالليلِ عملًا ثم يُصبِحُ و قد ستره اللهُ تعالى فيقولُ: عملتُ البارحةَ كذا و كذا، و قد بات يسترُه ربُّه، و يُصبِحُ يكشفُ سِترَ اللهِ عنه» متفق عليه

ومن المجاهرة أن يعمل العبد المعصية ثم يكشف ستر الله عنه، أو ينشرها بين الناس، أو يجعلها مادة يتداولها غيره

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:
«اجْتَنِبوا هذه القاذوراتِ التي نَهى الله عنها، فمَن أَلَمَّ فلْيَستَتِرْ بسِترِ اللهِ، ولْيَتُبْ إلى اللهِ؛ فإنَّه مَن يُبدِ لنا صَفحَتَه، نُقِمْ عليه كتابَ اللهِ عزَّ وجلَّ»

رواه الحاكم والبيهقي

وتصوير الفاحشة ونشرها ضد الستر والتوبة، وهو انتقال من ذنب خفي إلى إفساد ظاهر.

رابعًا: التصوير والنشر من خطوات الشيطان

الفاحشة المصورة لا تقف عند صاحبها، بل تصبح خطوة من خطوات الشيطان لغيره؛ فمن رآها قد يضعف قلبه، ومن اعتادها قد يسهل عليه الحرام، ومن تداولها قد يشارك في إشاعتها.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(سورة النور)

وقال ابن كثير رحمه الله:

خطوات الشيطان: طرائقه ومسالكه وما يأمر به

فكل صورة أو مقطع أو حساب أو رابط يجر الناس إلى الفاحشة، فهو من مسالك الشيطان في هذا العصر، وإن سُمي ترفيهًا أو خصوصية أو حرية.

خامسًا: خطورة نشر ما يثير الشهوة ويحرك الفتنة

الإباحية تقوم على إثارة الشهوة وإطلاق البصر في الحرام، وقد أمر الله بغض البصر وحفظ الفرج.

قال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

وقال سبحانه:
﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ﴿سورة النور﴾

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«لا يَزني الزَّاني حينَ يَزني وهو مُؤمِنٌ، ولا يَسرِقُ السَّارِقُ حينَ يَسرِقُ وهو مُؤمِنٌ» رواه البخاري

فمن صوَّر الفاحشة أو نشرها فقد أعان غيره على زنا العين، وربما ساقه إلى زنا السمع واللسان والقلب، ثم إلى ما هو أعظم.

قال ابن القيم رحمه الله:

النظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد الخطرة، ثم تولد الفكرة، ثم تولد الشهوة، ثم الإرادة، ثم يقع الفعل.

فالناشر لا يضع أمام الناس صورة ساكنة أو مقطع فحسب، بل يفتح عليهم سلسلة من الخواطر والشهوات والأعمال.

سادسًا: نشر الإباحية جناية على القلوب

الفاحشة المصورة تترك أثرًا عميقًا في القلوب، وتُضعف الحياء، وتُهون المنكر، وتُفسد الفطرة، وتطبع النفس على رؤية ما حرم الله.

قال تعالى:
﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿سورة المطففين﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إن العبدَ إذا أخطأ خطيئةٌ نُكِتتْ في قلبهِ نُكتةً سوداءَ فإذا هو نزعَ واستغفرَ وتابَ سُقلَ قلبهُ وإن عادَ زيدَ فيها حتى تعلو قلبهُ وهو الرانُ الذي ذكرَ اللهُ كَلّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ» رواه ابن ماجه

فإذا كانت المعصية تترك أثرًا في قلب صاحبها، فإن نشرها يوسع هذا الأثر في قلوب آخرين، وربما امتد ضررها إلى أناس لا يعرفهم الناشر ولا يدري كم أفسد هو فيهم.



سابعًا: إفساد الحياء العام

الحياء من أعظم أخلاق الإسلام، والإباحية المصورة من أعظم ما يهدم الحياء؛ لأنها تقوم على هتك الأستار، وكشف العورات، وتطبيع النظر إلى ما يجب صونه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«الحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ» متفق عليه

وعن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«الحَياءُ لا يَأتي إلَّا بخَيرٍ» متفق عليه

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّ ممَّا أدرك النَّاسُ من كلامِ النُّبوَّةِ الأولَى : إذا لم تستحْيِ فاصنَعْ ما شئتَ» رواه البخاري

فكلما انتشرت المواد الإباحية بين الناس، ضعف الحياء العام، وسقطت هيبة الستر، وتجرأت النفوس على ما كانت تستحي منه.

ثامنًا: الاعتداء على حرمة الجسد والكرامة

الجسد أمانة، والعورة لها حرمة، ولا يجوز أن تُجعل موضع تصوير وتداول وإثارة. وقد نهى النبي ﷺ عن النظر إلى العورات، فكيف بتصويرها ونشرها؟

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«لاَ ينظرُ الرَّجلُ إلى عورةِ الرَّجلِ ولاَ تنظرُ المرأةُ إلى عورةِ المرأةِ ولاَ يفضى الرَّجلُ إلى الرَّجلِ في الثَّوبِ الواحدِ ولاَ تفضي المرأةُ إلى المرأةِ في الثَّوبِ الواحدِ» رواه مسلم و الترمذي

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنهم قال:
« قلت يا رسول الله: عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك قال: قلت: يا رسول الله، إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يرينها قال:

قلت: يا رسول الله إذا كان أحدنا خاليا؟ قال: الله أحق أن يستحيا منه من الناس» رواه أبو داود والترمذي

فإذا كان مجرد النظر إلى العورة محرمًا، فإن تصويرها ونشرها وتداولها أشد في الإثم والقبح، فقد جمع بين كشف العورة، وتثبيت صورتها، وتوسيع دائرة النظر إليها.

تاسعًا: حمل الأوزار المتجددة

من خطورة المواد الإباحية أن أثرها قد يبقى بعد موت صاحبها أو ناشرها؛ فقد تنتقل من جهاز إلى جهاز، ومن حساب إلى حساب، وتُشاهد مرات لا يعلمها إلا الله.

قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ ﴿سورة يس﴾

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَن سَنَّ سُنَّةً حَسنةً فعمِلَ بِها ، كانَ لَهُ أجرُها وَمِثْلُ أجرِ مَن عملَ بِها، لا يَنقُصُ مِن أجورِهِم شيئًا ومن سنَّ سنَّةً سيِّئةً فعملَ بِها، كانَ عليهِ وزرُها وَوِزْرُ مَن عملَ بِها من بعده لا ينقصُ من أوزارِهِم شيئًا» رواه مسلم و ابن ماجه

فمن نشر مقطعًا أو صورة محرمة، ثم تداولها الناس، فقد تبقى سيئته جارية، تتجدد كلما شاهدها أحد أو نشرها أو وقع بسببها في الحرام.

عاشرًا: الدلالة على الإباحية

إن الإثم لا يقتصر على من يصور أو ينشر بشكل مباشر فقط، بل يدخل فيه من يدل الناس على مواقع الفاحشة، أو يروج لحساباتها، أو يشارك روابطها، أو يسهل الوصول إليها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ ﴿سورة المائدة﴾

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« إنَّ الدالَ على الخيرِ كفاعلِه» رواه الترمذي

ومفهوم ذلك أن الدلالة على الشر خطر عظيم؛ لأن من دل على باب من أبواب الحرام كان شريكًا في فتحه.

وقال بعض أهل العلم:
المعين على المعصية له نصيب من إثمها
فمن لم يصور ولم يشاهد، لكنه دل غيره أو سهل له، فقد دخل في باب الإعانة على الإثم.

حادي عشر: المال المكتسب من تصوير الفاحشة أو نشرها

من شارك في صناعة الإباحية، أو نشرها لأجل مال أو شهرة أو متابعين، فقد جمع بين الفاحشة وأكل المال بالباطل.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وقال سبحانه:

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ﴿سورة الطلاق﴾

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:
«إِنَّ اللهَ تعالى إذا حرَّمَ شَيئًا حرَّمَ ثَمَنَه» رواه الدارقطني وأحمد

فكل مال جاء من تصوير الفاحشة، أو بيعها، أو نشرها، أو الترويج لها، أو تسويقها، أو جلب المشاهدات بها، فهو مال خبيث لا بركة فيه.

ثاني عشر: نشر الفاحشة عبر التقنيات الخفية

قد يظن بعض الناس أن الحسابات المجهولة، أو الرسائل الخاصة، أو الملفات المخفية، أو المنصات المغلقة، تسترهم عن العقوبة، لكن الله يعلم السر وأخفى.

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ﴿سورة غافر﴾

وقال سبحانه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ﴿سورة ق﴾

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

فكل صورة التقطت، وكل مقطع نُشر، وكل رابط أُرسل، وكل مشاهدة مقصودة، وكل نية فاسدة، داخلة في علم الله، محفوظة في صحيفة العبد، إلا أن يتوب الله عليه.

ثالث عشر: أثر تصوير الفاحشة على المجتمع

تصوير الفاحشة ونشرها يفسد المجتمع من جهات كثيرة ومنها:

- كسر حاجز الحياء.
- تهوين المنكر.
- إثار الشهوات.
- ضعف إنكار الفاحشة.
- دفع بعض الناس إلى التقليد.
- فتح باب الابتزاز والفضائح.
- هدم ستر البيوت والأعراض.
- تحويل الفاحشة إلى مادة استهلاك وتجارة.

قال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿سورة الأنفال﴾

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الناسَ إذا رأوا المنكرَ فلم يُغيِّروه أوشك أن يعمَّهم اللهُ بعقابِه»

رواه أبو داود والترمذي

فالمجتمع إذا تساهل في نشر الفاحشة، أو سكت عن صناعها ومروجيها، أو جعلها مادة ترفيه، فقد عرض نفسه لعواقب عظيمة في الدين والأخلاق والأمن والبيوت.



رابع عشر: التوبة من تصوير الفاحشة أو نشرها

من وقع في هذا الباب، فباب التوبة مفتوح له، ولكن توبته تحتاج إلى صدقٍ عظيم؛ لأن الذنب قد تعدى إلى غيره، وقد بقي أثره منتشرًا.

قال تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿سورة الزمر﴾

وقال سبحانه:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿سورة الفرقان﴾

وتكون التوبة من هذا الباب بأمور:

- الإقلاع الفوري عن التصوير أو النشر أو الترويج.
- حذف ما يقدر على حذفه من المواد المحرمة.
- إزالة الروابط والحسابات والقنوات التي أنشأها أو ساهم فيها.
- نصح من وصلتهم المواد بتركها وحذفها إن أمكن دون مفسدة أعظم.
- الاستغفار وكثرة العمل الصالح.
- قطع البيئة التي جرته إلى هذا الباب.
- أن يستبدل نشر الحرام بنشر الخير والعفة والتوبة.

قال ابن القيم رحمه الله:

التوبة تمحو أثر الذنب إذا صدقت، بل قد يصير العبد بعدها خيرًا مما كان قبل الذنب

باب شبهة "الحرية الشخصية"

من أكثر الشبهات ترداداً في زمن الفواحش المعاصرة قول بعضهم: إن ممارسة الفاحشة تدخل في نطاق الحرية الشخصية، وأن الإنسان حرٌ في جسده، وعلاقاتهِ، وشهواتهِ، ما دام لا يعتدي على غيره في الظاهر. وهذه القول مبني على تصور ناقص للحرية؛ إذ يجعل الإنسان مالكًا مطلقًا لنفسه وجسده، ويجعل الهوى حاكمًا على الوحي، ويغفل أن العبد مخلوق لله، مسؤول بين يديه عن سمعه وبصره وقلبه وجسده وعمره وعلاقاته.

أولًا: الإنسان عبد لله

الأصل في الدين أن الإنسان عبد لله، خلقه الله لعبادته، وأمره بطاعته، ونهاه عن معصيته، فلا يملك أن يتصرف في نفسه وجسده تصرفًا مطلقًا خارج حدود الشرع.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿سورة الذاريات﴾

وقال سبحانه:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿سورة المؤمنون﴾

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ ﴿سورة الغاشية﴾

فالحياة ليست مجالًا للفوضى باسم الحرية، بل هي ابتلاء وتكليف وحساب.

قال ابن القيم رحمه الله:

العبد لا ينفك عن العبودية، فإن لم يكن عبدًا لله كان عبدًا لهواه أو شيطانه أو شهوته

ثانيًا: ضبط الحرية بحدود الله

الحرية في الإسلام ليست انفلاتًا من الأمر والنهي، وإنما هي تحرر من عبودية الهوى والشهوة والشيطان، مع الوقوف عند حدود الله.

قال تعالى:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وقال سبحانه:

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿سورة النساء﴾

فكل حرية تصادم حدود الله ليست حرية مشروعة، بل هي تعدٍّ وظلم للنفس.

قال الشاطبي رحمه الله:

الشريعة إنما جاءت لإخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدًا لله اختيارًا كما هو عبدٌ لله اضطرارًا.

ثالثًا: الجسد أمانة

يقول أصحاب الشبهة: "جسدي ملكي". والجواب أن الجسد في الإسلام أمانة من الله، والإنسان مسؤول عنه: فيم استعمله؟ وإلى أين قاده؟ وبماذا لوثه أو حفظه؟

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

وقال سبحانه:

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿سورة يس﴾

وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« لا تَزولُ قَدَمَا عَبْدٍ يومَ القيامةِ، حتَّى يُسأَلَ عن عُمُرِه؛ فيمَ أفناه؟ وعن عِلْمِه؛ فيم فعَلَ فيه؟ وعن مالِه؛ من أين اكتسَبَه؟ وفيم أنفَقَه؟ وعن جِسمِه؛ فيمَ أبلاه؟» رواه الترمذي والدارمي والبيهقي

فالجسد ليس أداةً للهوى، بل أمانة تُسأل عنها الجوارح يوم القيامة.

رابعًا: الفاحشة ليست شأنًا شخصيًا

من فساد هذه الشبهة أنها تزعم أن الفاحشة لا تضر إلا صاحبها، مع أن الشرع والواقع يشهدان أن آثارها تتجاوز الفرد إلى القلب، والأسرة، والنسل، والمجتمع، والقيم العامة.

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

وقال سبحانه:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿سورة الروم﴾

وقال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿سورة الأنفال﴾

فالذنب إذا شاع وتُرك بلا إنكار تعدى أثره، وصار فتنة عامة.

قال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾:

يحذر تعالى عباده المؤمنين فتنة، أي اختبارًا ومحنة، تعم المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب.

خامسًا: الحرية لا تبيح إشاعة الفاحشة

حتى لو زعم الإنسان أن فعله خاص، فإن نشره أو ترويجه أو الدفاع عنه أو تطبيعه ينقله من ذنب فردي إلى باب إشاعة الفاحشة.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«كلُّ أُمَّتي مُعافًى إلا المجاهرين، وإنَّ من الجِهارِ أن يعملَ الرجلُ بالليلِ عملًا ثم يُصبِحُ و قد ستره اللهُ تعالى فيقولُ : عملتُ البارحةَ كذا و كذا، و قد بات يسترُه ربُّه، ويُصبِحُ يكشفُ سِترَاللهِ عنه» متفق عليه

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
« مَن دعا إلى هُدًى كان له مِن الأجرِ مِثْلُ أجورِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن أجورِهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه مِن الإثمِ مِثْلُ آثامِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن آثامِهم شيئًا» رواه مسلم وأبو داود وأحمد

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير آية سورة النور:
أي يحبون ظهور الفواحش وانتشارها في المؤمنين.
فليست الحرية الشخصية مبررًا لنشر المنكر، أو تزيينه، أو تحويله إلى نمط مقبول في المجتمع.

سادسًا: لا ضرر ولا ضرار

يدّعي بعضهم أن الفاحشة لا تضر غير صاحبها، وهذا باطل؛ لأنها تضر الطرف الآخر، وتضر الأسرة، وتضر المجتمع، وتفتح باب الخيانة، والابتزاز، واختلاط الأنساب، وإضعاف الحياء، وتطبيع المنكر.
قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾
وقال سبحانه:
﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿سورة المائدة﴾

وعن سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«لا ضَررَ ولا ضِرارَ» أخرجه الدارقطني والحاكم

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إن الناسَ إذا رأوا المنكرَ فلم يُغيِّروه أوشك أن يعمَّهم اللهُ بعقابِه»

رواه أبو داود والترمذي

فالشرع لا ينظر إلى اللذة اللحظية، بل ينظر إلى العواقب والمآلات والآثار العامة.

قال ابن القيم رحمه الله:

الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها.

سابعًا: الحرية المطلقة تتحول إلى عبودية الهوى

من زعم أنه حر في اتباع شهوته قد لا يدرك أنه انتقل من عبودية الله إلى عبودية الهوى، وهي من أخطر العبوديات.

قال تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿سورة الجاثية﴾

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ ﴿سورة ص﴾

وقال تعالى:

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿سورة القصص﴾

وقال ابن تيمية رحمه الله:

العبد أسير ما أحبه، فإن كان الله أحب إليه من كل شيء فهو عبد الله، وإن استعبد قلبه غير الله كان عبدًا لذلك الغير.

فالحرية الحقيقية ليست في فعل كل ما تشتهي النفس، بل في القدرة على مخالفة الهوى طاعةً لله.

ثامنًا: الشريعة حماية للنفس والغير

ليست أحكام العفة قيودًا لإذلال الإنسان، بل رحمة لحمايته من ضعف نفسه، ومن تسلط الشهوة، ومن عواقبٍ لا يدركها وقت اندفاعه.

قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ۝ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ ﴿سورة النساء﴾

وقال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿سورة الملك﴾

فهذه الآيات تبين أن الله أعلم بضعف الإنسان، وأن من رحمة الشريعة أنها تمنع الطرق التي تهوي به إلى الفاحشة.

قال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى:

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾:أي يريدون أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلًا عظيمًا.

تاسعًا: الحرية لا تعني إلغاء الحلال والحرام

الإنسان حر في دائرة المباح، لكنه ليس حرًا في نقض أوامر الله ونواهيه. فالله جعل للإنسان اختيارًا، ثم يحاسبه على اختياره.

قال تعالى:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ﴿سورة الكهف﴾

وهذه الآية ليست إباحة للكفر، بل تهديد وبيان لعاقبة الاختيار، بدليل تمامها.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ﴿سورة الإنسان﴾

وقال سبحانه:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ﴿سورة الزلزلة﴾

فالاختيار موجود، لكن الحساب قائم، وليس لأحد أن يجعل وجود القدرة على الفعل دليلًا على جوازه.

عاشرًا: الفاحشة باسم الحرية تلبيسٌ من الشيطان

من مداخل الشيطان أن يغير أسماء الأشياء، فيُسمي الفاحشة حرية، والانفلات انفتاحًا، والخيانة تجربة، وإشاعة المنكر ثقافة شخصية.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿سورة النور﴾

وقال سبحانه عن الشيطان: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ ﴿سورة النساء﴾

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

وقال ابن القيم رحمه الله:

تغيير الأسماء لا يغير حقائق المسميات ولا أحكامها

فالفاحشة تبقى فاحشة، ولو سُميت حرية شخصية، كما أن الخمر لا تصير حلالًا طيبًا إذا غُير اسمها.

حادي عشر: الحرية الشخصية تهدم حق المجتمع في الطهر

الإسلام ينظر إلى المجتمع على أنه بنيان متكامل، لا مجموعة أفراد منفصلين يفعل كل واحد منهم ما شاء بلا أثر على غيره. ولذلك شرع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾

﴿سورة آل عمران﴾

وقال سبحانه:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ القائمِ علَى حدودِ اللَّهِ، والمُدَّهِنِ فيها، كمَثَلِ قَومٍ استَهَموا علَى سفينةٍ في البحرِ فأصابَ بعضُهُم أعلاها ، وأصابَ بعضُهُم أسفلَها، فَكانَ الَّذينَ في أسفلِها يصعدونَ فَيستَقونَ الماءَ فَيصبُّونَ علَى الَّذينَ في أعلاها فقالَ الَّذينَ في أعلاها: لا ندعُكُم تصعَدونَ فتؤذونَنا، فقالَ الَّذينَ في أسفلِها: فإنَّا نثقُبُها في أسفلِها فنَستَقي، فإن أخذوا علَى أيديهِم فمنَعوهُمْ نجَوا جميعًا وإن ترَكوهُم غرِقوا جميعًا» رواه البخاري

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الناسَ إذا رأوا المنكرَ فلم يُغيِّروه أوشك أن يعمَّهم اللهُ بعقابِه»

رواه أبو داود والترمذي

فالمنكر إذا تُرك بحجة الحرية الشخصية خرق سفينة المجتمع كله.

ثاني عشر: التعايش لا يعني تصحيح الفاحشة

قد يقال: لا بد من قبول الفاحشة باسم التعايش. والجواب أن الإسلام يأمر بالعدل والرحمة وحسن الدعوة، لكنه لا يأمر بتصحيح الباطل أو إلغاء أحكام الله سبحانه.

قال تعالى:

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

﴿سورة النحل﴾

وقال سبحانه:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿سورة المائدة﴾
وقال تعالى:
﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ﴿سورة هود﴾
فالعدل لا يعني إلغاء الحكم الشرعي، والرحمة لا تعني تزيين الفاحشة، والحكمة لا تعني السكوت عن المنكر.

ثالث عشر: الرد على أصل الشبهة

شبهة الحرية الشخصية في الفاحشة تقوم على جعل الإنسان مرجعًا لنفسه، بينما الإسلام يجعل الوحي مرجعًا للإنسان. وتقوم على أن الرغبة تكفي للإباحة، بينما الإسلام يجعل الإباحة والتحريم حقًا لله وحده.
قال تعالى:
﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة يوسف﴾
وقال سبحانه:
﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾
﴿سورة الأحزاب﴾
وقال تعالى:
﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿سورة النساء﴾
فالمؤمن إذا عرف حكم الله في الفاحشة لم يجعل الهوى أو الثقافة أو شعار الحرية حاكمًا عليه، بل يقول: سمعنا وأطعنا.

باب شبهة "التمثيل فقط"

من الشبهات التي يُلبِّس بها أهل الفاحشة على الناس قولهم: إن ما يُعرض من مشاهد محرمة إنما هو تمثيل فقط وليس حقيقة أبدًا، وأن الممثل هذا لا يقصد الفاحشة بذاتها، وإنما يؤدي دورًا، وأن المشاهد لا يشاهد واقعًا، بل عملًا مصنوعًا ومشهدًا مصطنعًا.

وهذه الشبهة بالطبعِ باطلة من وجوه كثيرة؛ فإن الحرام لا يصير حلالًا بمجرد تسميته فنًا، ولا تنقلب الفاحشة طاهرة لأنها عُرضت في صورة تمثيل، ولا يزول أثر المنكر عن القلب لأنه صُنع أمام الكاميرا أو أُخرج في مشهد مرتب أو عابر.

فالشرع لا يغتر بالأسماء المزخرفة، ولا يحكم على الأشياء بمجرد دعاوى أصحابها، بل ينظر إلى حقيقتها وآثارها ومقاصدها ومآلاتها.

فإذا كان العمل يثير الشهوة، ويضعف الحياء، ويزين المنكر، ويفتح أبواب الفاحشة، لم تنفعه دعوى التمثيل، ولم ترفعه الأسماء البراقة اللامعة عن حقيقته الدنيئة.

أولًا: الفاحشة محرمة في حقيقتها وصورتها

قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ﴿سورة الأعراف﴾

فالفواحش محرمة في ظاهرها وباطنها، في فعلها والدعوة إليها، وفي مباشرتها وتزيينها، وفي صناعتها ونشرها.

ومن صور الفاحشة أو عرضها، أو أعان على إشاعتها، فقد دخل في باب عظيم من أبواب الشر، ولو زعم أن الأمر مجرد أداء وتمثيل.

وليست العبرة هنا بأن الفاحشة وقعت على الحقيقة أو صُورت تمثيلًا، بل العبرة بما تحمله من معاني الحرام فيها، وما تتركه من أثر فاسد، وما تفتحه من أبواب الشهوة والتعلق والاعتياد.

فإن المشهد المحرم يوقظ الشهوة، ويفسد الخيال، ويضعف الحياء، ويجرئ النفس على المعصية، سواء قيل عنه: حقيقة أو تمثيلًا.

والنار تحرق من لمسها ولو قيل: ألمسها تجربة، والسم يضر من تناوله ولو قيل: تناوله تمثيلًا، وكذلك مشاهد الفاحشة تفسد قلوب الأمة حتى لو قال الناس جميعًا: إنها ليست واقعًا.

ثانيًا: النهي عن الاقتراب يشمل وسائلها

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

ولم يقل سبحانه: ولا تزنوا فقط، بل قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾، فنهى عن الطرق والمقدمات والوسائل التي تقود إلى الفاحشة أو تقرب منها.

وكل نظر محرم، أو كلام مثير، أو مشهد فاسد، أو صورة محرمة، أو علاقة مريبة، أو أي مادة تهيج الشهوة وتضعف القلب، داخلة في معنى الاقتراب من الفاحشة.

وإذا كان الأمر كذلك فكيف بمن يجعل الفاحشة مشهدًا منظورًا، وصورة متداولة، ومادة للمتعة والمشاهدة، ثم يقول بعد ذلك: إنما هو تمثيل؟

إن التمثيل لا يغير حكم الوسيلة إذا كانت تؤدي إلى الحرام، ولا يطهر المشهد إذا كان يثير الشهوة، ولا يرفع الإثم إذا كان يفتح باب الفتنة ويهون أمر المعصية في القلوب.

وقد قرر أهل العلم أن:

الوسائل لها أحكام المقاصد، فما كان وسيلة إلى الحرام أُخذ حكمه بحسب أثره ومآله.

فإذا كان هذا العمل يؤدي إلى إثارة الشهوة، وإشاعة الفاحشة، وتزيين المنكر، وإفساد القلوب، لم تنفعه الأسماء المزخرفة، ولا دعوى الفن، ولا ستار التمثيل.

ثالثًا: التمثيل المحرم من إشاعة الفاحشة

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

فإذا كان مجرد حب إشاعة الفاحشة له هذا الوعيد الشديد، فكيف بمن يمثلها، أو يصورها، أو ينشرها، أو يروج لها، أو يجعلها مألوفة في أعين الناس؟

إن الفاحشة إذا عُرضت مرارًا ضعفت هيبتها في النفوس، وقل إنكارها في القلوب، وصارت مألوفة بعد أن كانت مستقذرة، ومقبولة بعد أن كانت منكرة.

وهذا من أخطر آثار التمثيل المحرم؛ أنه لا يكتفي بعرض الذنوب، بل يزينها، ويقربها، ويجعلها جزءًا من المتعة والمشاهدة، حتى تعتاد القلوب ما كانت تنفر منه، وتألف ما كانت تستقبحه.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ ﴿سورة فاطر﴾

وهذه من أخطر العقوبات: أن يرى الإنسان القبيح حسنًا، والمنكر مقبولًا، والفاحشة فنًا، والعفة تشددًا، والحياء تخلفًا.

رابعًا: التمثيل المحرم تعاون على الإثم

قال تعالى:

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

﴿سورة المائدة﴾

والتمثيل المحرم بلا شك أو اختلاف هو تعاون على الإثم من جهات كثيرة؛ فهناك من يكتب، ومن يخرج، ومن يمثل، ومن يصور، ومن ينشر، ومن يروج، ومن يمول، ومن يشاهد، ومن يدل غيره على المشاهدة.

فكيف يقال بعد ذلك: إنه مجرد تمثيل لا يضر أحدًا؟

بل هو باب واسع من أبواب التعاون على الإثم؛ لأنه يجمع بين صناعة المنكر، وتزيينه، ونشره، وتسهيل الوصول إليه، وتحريك الشهوات به

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَن دعا إلى هُدًى كان له مِن الأجرِ مِثْلُ أجورِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن أجورِهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه مِن الإثمِ مِثْلُ آثامِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن آثامِهم شيئًا» رواه مسلم وأحمد

ومن هنا نعلم أن من دعا الناس إلى الفاحشة بصورة، أو مشهد، أو تمثيل، أو نشر، فقد يحمل من الإثم بقدر من تأثر به، أو تحركت شهوته، أو ضعف حياؤه، أو جره ذلك إلى ما حرم الله.

عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَن سَنَّ سُنَّةً حَسنةً فعمِلَ بِها ، كانَ لَهُ أجرُها وَمِثْلُ أجرِ مَن عملَ بِها، لا يَنقُصُ مِن أجورِهِم شيئًا ومن سنَّ سنَّةً سيِّئةً فعملَ بِها ، كانَ عليهِ وزرُها وَوِزْرُ مَن عملَ بِها من بعده لا ينقصُ من أوزارِهِم شيئًا» رواه مسلم وابن ماجه

وما أكثر السنن السيئة التي بدأت بمشهد، أو صورة، أو مقطع، ثم صارت عادة بين الناس، وجرأة على الحرام، وتطبيعًا للمنكر، وإفسادًا للحياء.

خامسًا: دعوى التمثيل لا تسقط حرمة النظر

دعوى أن المشهد تمثيل لا تدفع مسؤولية النظر والمشاهدة؛ فإن العين لا تفرق في أثرها بين حرام حقيقي وحرام ممثل إذا تحركت به الشهوة وفسد به القلب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«كتب على ابنِ آدمَ حظُّه من الزنا فهو مدركٌ ذلك لا محالةَ، فالعينانِ تزنيانِ وزناهما النظرُ، والأذنانِ تزنيانِ وزناهما السمعُ، واليدان تزنيان وزناهُما البطشُ، والرِّجلانِ تزنيانِ وزناهُما المشيُ، والقلبُ يتمنى ويشتهي، والفرجُ يصدقُ ذلك أو يكذبُه» متفق عليه

فالنظر المحرم نظر محرم، ولو كان إلى مشهدٍ مصنوعٍ، والاستماع المحرم استماع محرم، ولو كان إلى كلامٍ ممثلٍ، والقلب إذا هوى وتمنى فقد تلوث، ولو كان ما أمامه مصنوعًا.

والعبرة هنا ليست بمجرد دعوى أن المشهد غير حقيقي، بل العبرة بما يتركه في القلب من الشهوة، والتعلق، والتمني، والفساد، والاعتياد.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

فالمشاهد مسؤول عما رأى، وصانع المشهد مسؤول عما عرض، والناشر مسؤول عما نشر، وكل امرئ موقوف بين يدي الله عن سمعه وبصره وفؤاده.

سادسًا: التمثيل لا يبيح تصوير المنكر وترويجه

لو كان التمثيل يبيح تصوير الفاحشة ونشرها، لجاز تمثيل كل محرم بدعوى أنه ليس حقيقيًا، وهذا باطل.

فليس لأحد أن يزين الكفر، أو القتل، أو السرقة، أو الخيانة، أو العقوق، أو الفجور، ثم يقول: إنما هو تمثيل لا أثر له.

والشرع لا يبيح تصوير المنكر وترويجه لأن في ذلك إفساد للناس، أو تهوين الذنب، أو الدعوة إليه، أو كسر حاجز الحياء في النفوس.

وقد قرر أهل العلم أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، فأي مصلحة هذه التي تُدعى في عمل يفتح على القلوب أبواب الشهوة، ويهتك الحياء، ويجعل الحرام مألوفًا، ويقرب النفوس الضعيفة من الفاحشة خطوة بعد خطوة؟

إن القول بأن المشهد "تمثيل فقط" يشبه قول من يفتح باب النار ثم يقول: لم أجبر أحدًا على الدخول، أو من يسكب السم في الشراب ثم يقول: لم أقصد قتل أحد. فالعبرة ليست بالدعوى، بل بما يترتب على الفعل من الفساد والإضلال والإثارة والتزيين.

سابعًا: المجاهرة بالمنكر أعظم من عمله في الخفاء

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«كلُّ أُمَّتي مُعافًى إلا المجاهرين، و إنَّ من الجِهارِ أن يعملَ الرجلُ بالليلِ عملًا ثم يُصبِحُ و قد ستره اللهُ تعالى فيقولُ: عملتُ البارحةَ كذا و كذا، و قد بات يسترُه ربُّه، و يُصبِحُ يكشفُ سِترَ اللهِ عنه» متفق عليه

فالمجاهرة بالمعصية خطر عظيم، فكيف بمن لا يكتفي بالمجاهرة، بل يصنع للمعصية مشهدًا، ويعرضها للناس، ويدعوهم إلى النظر إليها، ويأخذ عليها مالًا وشهرة وتصفيقًا؟

إن ذنب الخفاء يقف غالبًا عند صاحبه، أما ذنب النشر والتمثيل فقد يسافر إلى آلاف القلوب والبيوت، ويفسد من لا يعرفه صاحبه ولا يراه.

والمشكلة ليست في أن الفاحشة ممثلة أو غير ممثلة، بل المشكلة في أنها صارت مادة منشورة، وصورة متداولة، ومشهدًا يقتحم العيون والقلوب، ويطبع المنكر في النفوس

وقد قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ۝ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾

﴿سورة النساء﴾

والذين يتبعون الشهوات لا يكتفون بوقوعهم فيها، بل يريدون أن تميل القلوب معهم، وأن تضعف الحواجز، وأن تتغير المفاهيم، وأن تصير الفاحشة مقبولة بعد أن كانت مستقذرة.

ثامنًا: أثر المشاهد المحرمة لا ينتهي

قد يظن بعض الناس أن المشهد ينتهي بانتهاء عرضه، وأن أثره يزول بإغلاق الشاشة، وهذا من الغفلة؛ فإن الصورة المحرمة قد تبقى في الخيال، وتعود في الخلوة، وتفسد العبادة، وتضعف الخشوع، وتجر إلى طلب المزيد والمزيد.

قال ابن القيم رحمه الله في عاقبة الشهوة:
الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة
ومن هنا نعلم أن الذي يزعم أن المشاهد المحرمة مجرد تمثيل لا أثر له، فقد جهل أثر الشهوة إذا استيقظت، وأثر الصورة إذا ثبتت في الخيال، وأثر التكرار إذا صار عادة، وأثر العادة إذا صارت أسرًا للقلب والجوارح.
إن القلب أكرم من أن يُلقى في هذه المشاهد، والبصر أمانة، والحياء نعمة، ومن فتح على نفسه باب الفتنة لم يأمن أن تضعف نفسه، وأن يتغير قلبه، وأن يهون عليه ما كان يستعظمه.

تاسعًا: ترك التمثيل المحرم والمشاهدة لله

قال تعالى:
﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ ﴿سورة الطلاق﴾
فمن ترك تمثيل الحرام، أو مشاهدته، أو نشره، أو الترويج له ابتغاء مرضاة الله، لم يضيعه الله، بل عوضه خيرًا، وحفظ عليه قلبه، وفتح له من أبواب الطمأنينة والعفة والرزق ما لا يحتسب.
فإن الحرام لا يتطهر بالكاميرا، والفاحشة لا تزول قذارتها بالإخراج، والمعصية لا تصبح مباحة لأنها أُديت أمام الجمهور.
بل قد يكون تمثيلها ونشرها أعظم أثرًا من وقوعها في الخفاء؛ لأن فسادها لا يقف عند صاحبها، بل ينتقل إلى غيره، ويستقر في العيون والقلوب.
فشبهة "التمثيل فقط" ليست إلا غطاءً رقيقًا على باطل غليظ؛ لأن التمثيل إذا كان في باب الفاحشة لم يعد مجرد أداء، بل صار تزيينًا للحرام، ودعوة إلى الشهوة، وإشاعة للمنكر، وإضعافًا للحياء، وتعاونًا على الإثم والعدوان.

باب شبهة "الاسترزاق"

من الشبهات التي يعتذر بها بعض من الذين يعملون في صناعة الفاحشة أو نشرها أو الترويج لها قولهم: "نحن نسترزق"، وكأن طلب الرزق يبيح للإنسان أن يكسب من حرام، ويجعل المعصية بابًا لكسب المال، ويفسد قلوب الناس ثم يعتذر بالحاجة والفقر.

وهذه شبهة باطلة شرعًا وعقلًا؛ لأن الرزق بيد الله وحده، وما عند الله لا يُطلب بمعصيته، والفقر لا يجعل الحرام حلالًا، ولا يجعل الخبيث طيبًا، ولا يرفع إثم من أعان على الفاحشة أو نشرها أو دعا إليها.

أولًا: الرزق بيد الله

قال تعالى:

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿سورة هود﴾

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ﴿سورة الذاريات﴾

فالرزق ليس بيد المشاهدات، ولا الشهرة، ولا المنصات، ولا أهل الفساد، بل هو بيد الله وحده لا شريك له.

والذي يظن أن معصية الله هي التي تطعمه، فقد ضعف يقينه، وساء ظنه بربه، وجعل باب الحرام أوثق في قلبه من وعد الله.

قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿سورة الذاريات﴾

فكيف بمن علم أن رزقه مكتوبٌ عند الله، أن يطلبه من طريق يسخط الله؟

ثانيًا: المال الحرام ليس رزقًا طيبًا

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

فلم يأمر الله بمجرد الأكل، بل أمر بالحلال الطيب.

والمال إذا جاء من طريق الفاحشة، أو نشر الحرام، أو تزيين المنكر، فهو مال خبيث، وإن كثر في اليد، وظهر في صورة الربح والشهرة والوظيفة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يا أَيُّها النَّاسُ إنَّ اللَّهَ طيِّبٌ لا يقبلُ إلَّا طيِّبًا ، وإنَّ اللَّهَ أمرَ المؤمنينَ بما أمرَ بِه المرسلينَ فقالَ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وقالَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ قالَ وذَكرَ الرَّجلَ يُطيلُ السَّفرَ أشعثَ أغبرَ يمدُّ يدَه إلى السَّماءِ يا ربِّ يا ربِّ ومطعمُه حرامٌ ومشربُه حرامٌ وملبسُه حرامٌ وغذِّيَ بالحرامِ فأنَّى يستجابُ لذلِك» رواه الترمذي ومسلم

فالطيب لا يُتقرب إليه بالخبيث، ولا تُطلب بركته بمال نشأ من معصيته، ولا يجتمع صدق العبودية مع الإصرار على كسب يفسد الدين والأخلاق.

ثالثًا: إذا حرم الله شيئًا حرم ثمنه

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ اللهَ تعالى إذا حرَّمَ شَيئًا حرَّمَ ثَمَنَه» رواه الدارقطني وأحمد

وهذا أصل عظيم في الشريعة يهدم هذه الشبهة؛ فالعمل نفسه محرمٌ، أو قائمٌ على نشر الفاحشة، أو إثارة الشهوة، أو تزيين المنكر، فثمنه خبيث لا يطهره اسم أبدًا الرزق.

ولا يقال: "أنا لا أفعل إلا لأجل المال"، لأن السؤال ليس: لماذا فعلت؟ بل السؤال: هل ما فعلته يرضي الله أم يسخطه؟ وهل المال جاء من باب أحله الله أم من باب حرمه؟

رابعًا: الرزق لا يكون بالفساد

قال تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿سورة المائدة﴾

والذي يعمل في إنتاج الفاحشة أو نشرها أو الترويج لها أو تسهيل الوصول إليها، فهو بذلك يعين على الإثم، ولو سمى ذلك عملًا أو رزقًا أو صناعة للمحتوى.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

وإذا كان حب إشاعة الفاحشة له هذا الوعيد، فكيف بمن يسترزق من إشاعتها، ويأخذ المال على نشرها، ويجعل خراب القلوب بابًا لكسب ماله؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَن دعا إلى هُدًى كان له مِن الأجرِ مِثْلُ أجورِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن أجورِهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه مِن الإثمِ مِثْلُ آثامِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن آثامِهم شيئًا» رواه مسلم وأحمد

والكل يعلم أن الذي جعل الفاحشة مصدر رزق، لم يحمل إثم نفسه فقط، بل يحمل أوزار كل من تأثر بها، أو شاهدها بسببه، أو تجرأ على الحرام من طريقه.

خامسًا: الفساد لا يكون مهنة

الدين والعقل السليم لا يقبلان أبدًا أن يقول الإنسان: "أسترزق" من شيء يهدم القلوب، ويفسد البيوت، ويضعف الحياء، ثم يطالب الناس باحترام كسبه.

فلو قال رجل: أسترزق من بيع السموم والمخدرات، أو نشر الأمراض، أو إفساد الأبناء، أو هتك ستر البيوت، فلن يقبل أحدٌ عذره أبدًا.

وكذلك ينطبق الأمر على من يسترزق من الفاحشة؛ فإن اختلاف الوسيلة لا يغير الحقيقة.

والمال ليس مبررًا لكل شيء، وإلا سنجد السارق يحتج بأنه يطلب الرزق، والمحتال بأنه يطلب الرزق، ومروج الفساد بأنه يطلب الرزق. ولو فُتح هذا الباب لضاعت الحدود والمجتمعات، وصار كل الحرام مباحًا باسم الفقر والحاجة.

سادسًا: البركة لا تكون في الخبيث

قال تعالى:

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾

﴿سورة البقرة﴾

وهذه الآية تدل على أن المال قد يكثر ظاهرًا ويمحقه الله باطنًا. لأن العبرة ليست في كثرة المال، بل بحله وبركته وأثره على صاحبه.

والمال الحرام قد يدخل البيت، لكنه يدخل معه قلقًا، وضيقًا، وحرمانًا من البركة، وجرأة على المعصية، وسوء أثر في النفس والأهل والولد.

وقد قال أهل العلم: ما بني على الحرام فبركته ممحوقة، وعاقبته وخيمة، ولو زُين لصاحبه في أوله.

سابعًا: من ترك الحرام لله عوضه الله خيرًا

قال تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

﴿سورة الطلاق﴾

وهذه الآية جواب حاسم لكل من يقول: "أني أسترزق"

لأن الذي يتقى الله ويترك باب الحرام، يجعل الله له مخرجًا من كل ضيقٍ، ويفتح له من أبواب الرزق ما لم يكن في حسابه أو خاطره.

قال تعالى:﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ ﴿سورة الطلاق﴾

والرزق الحلال قد يحتاج أحيانًا إلى صبرٍ ومجاهدةٍ، لكنه خير أبقى في بركته، وأطهر للقلب، وأسلم للعبد في دنياه وآخرته.

ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، ومن صدق في ترك الحرام فتح الله له أبوابًا من الحلال لم يكن يظنها.

ثامنًا: ردُّ الشيخ الشعراوي رحمه الله

قال الشيخ الشعراوي رحمه الله:

وكلُّ الأشياء التي تُسمَّى فنونًا جميلة، كالرقص والغناء والخلاعة وما نراه الآن، سواءٌ كان ذلك من تشريع الحاكم لها، أو عدم منعه لها، أو لأنه يأخذ منها الضرائب للإنفاق على الدولة؛ فهل يُحلُّها ذلك؟ بالطبع لا؛ لأن الديانة المدنية شيء، والديانة الربانية شيء آخر، ولذلك فإن الفساد في الحياة ينشأ من هذه الأمور.

وكلُّ الذين يشتغلون بعملٍ لا يُقرُّه الله يأكلون أموالهم بالباطل، ويدخلون في بطونهم، وبطونِ من يعولون، مالًا بالباطل. والذي يعولهم، إن أدخل عليهم شيئًا من هذا، فعليه أن يذكر ربَّه، وأن يقول: لا، لن نأكل من هذا المصدر؛ لأنه مصدر حرام وباطل. ونحن الذي خلقنا هو الله، فهو يتكفَّل برزقنا.

والله سبحانه يريد أن يعلم العبد أن عمله لا يرزقه، وإنما يرزقه الله، ويجعل العمل سببًا للرزق. فإن ترك عمل الباطل، فلن يضنَّ الله عليه بعملٍ حلال يقتات منه.

ولذلك عالج الله سبحانه وتعالى هذه القضية حينما حرَّم على المشركين دخول بيت الله، وكان بيت الله يعول كثيرًا من أعمالهم في موسم الحج. فلما حرَّمه الله، قال بعضهم: ومن أين نعيش؟ فنزل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿سورة التوبة﴾

فلا يقل أحد: أنا أرتزق من النغم، أو التلحين، أو تأليف الأغاني الخليعة؛ فإن الله تعالى قال:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ﴿سورة التوبة﴾



وقال أيضًا:

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

﴿سورة الطلاق﴾

أنت احتسبت أن رزقك لا يأتي إلا من هذا، ولكن اتركه طاعةً لله، وانظر إلى يد الله الممدودة إليك بغيره.

وعلى الناس جميعًا أن يتنبهوا، وألا يُدخلوا في بطون أبنائهم إلا مالًا حقًّا، ومالًا اكتُسب بحركة شريفة، ومالًا اكتُسب بحركة نظيفة، وليكن هذا إطار حياتهم دائمًا قوله تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

﴿سورة الطلاق﴾

باب شبهة "لا أؤذي أحدًا"

من الشبهات التي يرددها بعض الواقعين في الفاحشة أو المشاهدين لها قولهم: "أنا لا أؤذي أحدًا، وما أفعله أمر خاص بي". وهذه شبهة بالطبع باطلة شرعًا وعقلًا؛ لأن الذنب لا يُقاس فقط بما يظهر من الأذى المباشر للناس، بل يُنظر فيه إلى حقوق الله، وحقوق النفس، وأثر الفعل على القلب، وما يترتب عليه من فساد الفرد والأسرة والمجتمع.

والإنسان ليس حرًا في معصية ربه، ولا يملك أن يفسد قلبه وجوارحه ثم يقول: لا شأن لأحد بي؛ وهذا باطلٌ لأن الله خلقه لعبادته، وأمره بحفظ دينه ونفسه وبصره وفرجه وقلبه.

أولًا: أعظم الأذى

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

والمعصية هي ظلمٌ للنفس قبل أن تكون أذى للغير؛ فهي تضعف القلب، وتطفئ نور الطاعة، وتجرئ صاحبها على حدود الله.

قال تعالى:

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ ﴿سورة الطلاق﴾

ومن قال: "لا أؤذي أحدًا"، قيل له: بل آذيت نفسك حين عرضتها لسخط الله، وحرمتها طهارة القلب، وأدخلتها في طريق الشهوة والاعتياد والندم.

ثانيًا: حق الله أعظم

ليست القضية أن ترضي الناس أو لا تؤذيهم فقط، بل القضية قبل ذلك: هل أطعت الله أم عصيته؟

والله تعالى يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿سورة الذاريات﴾

ويقول سبحانه:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿سورة المؤمنون﴾

والعبد مخلوق لله، مملوك له، راجع إليه، مسؤول بين يديه. ومنطق "لا أؤذي أحدًا" يتجاهل أعظم حق، وهو حق الله تعالى في أن يُطاع ولا يُعصى، وأن تُحفظ حدوده ولا تُنتهك.

ثالثا: الفاحشة لا تقف عند صاحبها

يقول الله تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

وسماه الله سبيلًا سيئًا؛ لأن أثره لا يقف عند لحظةٍ عابرة، بل يفتح أبوابًا من التعلق، والخيال الفاسد، وضعف الحياء، وفساد العلاقات، وخيانة الأمانات، وخراب البيوت.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا ضَرَرَ ولا ضِرارَ» رواه الدارقطني والحاكم

والفاحشة ضرر على الدين، وضرر على القلب، وضرر على الفطرة، وضرر على الأسرة، وضرر على المجتمع. وليس كل ضرر يُرى في اللحظة نفسها؛ فقد يبدأ خفيًا في القلب ثم يظهر بعد ذلك في السلوك والعلاقات والبيت.

رابعًا: مشاهدة الفاحشة مشاركة في نماءها

من يشاهد الفاحشة لا يقف موقفًا بريئًا كما يظن؛ لأنه يشارك في الطلب عليها، ويقوي صناعتها، ويدعم انتشارها، ولو لم يدفع مالًا بيده. فكل مشاهدة تزيد في ترويج الباطل، وتفتح الباب لمزيد من الإنتاج والنشر والإفساد.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

﴿سورة المائدة﴾

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

فكيف يقال: "لا أؤذي أحدًا"، والمشاهدة نفسها تعين على إشاعة الفاحشة، وتطبيعها، وتجعلها مألوفة في أعين الناس؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَن دعا إلى هُدًى كان له مِن الأجرِ مِثْلُ أجورِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن أجورِهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه مِن الإثمِ مِثْلُ آثامِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن آثامِهم شيئًا» رواه مسلم

ومن نشر، أو روج، أو دل غيره، أو شارك في انتشار هذا الباب، حمل من الإثم بقدر أثره في غيره.

خامسًا: منطق العقل

العقل الصحيح لا يقبل أن يقول الإنسان: "أنا أفسد قلبي وخيالي وشهوتي ولا أؤذي أحدًا". فهل من يتناول السم لا يؤذي أحدًا لأنه لم يضعه في طعام غيره؟ وهل من يحرق بيته من الداخل لا يؤذي أحدًا لأن النار لم تصل بعد إلى بيوت الناس؟

وكذلك الفاحشة؛ تبدأ في الخفاء، ثم تظهر في ضعف الصلاة، وقسوة القلب، واضطراب العلاقة الزوجية، وفساد النظرة إلى الحلال، وربما انتهت إلى الخيانة أو الابتزاز أو هدم البيت وتضييع أبناء.

وهنا المنطق يقول: أن كل ما يفسد الإنسان من الداخل سيظهر أثره في الخارج، ومن أفسد قلبه أفسد يومًا ما نظره، وكلامه، وعلاقاته، وقراراته.

سادسًا: أقوال أهل العلم

قرر أهل العلم أن "الضرر يزال"، وأن "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح"، وأن "الوسائل لها أحكام المقاصد". وهذه القواعد تهدم شبهة "لا أؤذي أحدًا"؛ لأن الفاحشة إنما هي ضرر ظاهر، ومفسدة محققة، ووسيلة إلى ما هو أعظم منها.

قال ابن القيم رحمه الله: إن المعاصي تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضًا، حتى يعز على العبد مفارقتها.

فليست الفاحشة ذنبًا معزولًا لا أثر له، بل هي باب إذا فُتح جر وراءه أبوابًا، وإذا اعتاده القلب صعب عليه الخروج منه إلا بتوبة ومجاهدة وصدق مع الله.

سابعًا: مسؤولية المرء عن جوارحه وقلبه

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

فمن نظر إلى الحرام، أو استمع إلى الحرام، أو أطلق قلبه في الشهوة، فهو مسؤول أمام الله، ولو قال للناس: لا أؤذي أحدًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كُتِبَ على ابنِ آدَمَ نَصيبُه مِنَ الزِّنا، مُدرِكٌ ذلك لا مَحالةَ؛ فالعَينانِ زِناهما النَّظَرُ، والأُذُنانِ زِناهما الاستِماعُ، واللِّسانُ زِناه الكَلامُ، واليَدُ زِناها البَطشُ، والرِّجلُ زِناها الخُطا، والقَلبُ يَهوى ويَتَمَنَّى، ويُصَدِّقُ ذلك الفَرجُ ويُكَذِّبُه» متفق عليه

فالنظر أذى، والاستماع أذى، وتلويث القلب أذى، ولو لم يره الناس، ولو لم يشتكِ منه أحد.

ثامنًا: من الذنب الخفي إلى الفساد الظاهر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كلُّ أُمَّتي مُعافًى إلا المجاهرين ، و إنَّ من الجِهارِ أن يعملَ الرجلُ بالليلِ عملًا ثم يُصبِحُ و قد ستره اللهُ تعالى فيقولُ : عملتُ البارحةَ كذا و كذا ، و قد بات يسترُه ربُّه ، و يُصبِحُ يكشفُ سِترَ اللهِ عنه» متفق عليه

فإذا كان المجاهر بالذنب قد خرج من ستر العافية، فإن من يهون الذنب ويبرره ويدافع عنه أخطر على نفسه؛ لأنه لا يكتفي بالوقوع فيه، بل يصنع لنفسه حجة كاذبة تمنعه من التوبة.

وقول القائل: "لا أؤذي أحدًا" فهذا ليس بتوبة ولا ندمًا، بل هو تهوين للمعصية، وتسكين للضمير، ومجادلة عن الهوى. ومن صدق مع نفسه

علم أن أول من آذاه بالذنب هو نفسه، وأول من ظلمه هو قلبه، وأول حق ضيعه هو حق ربه سبحانه.

قال تعالى:

﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ ﴿سورة القيامة﴾



باب تعظيم الله

إن الأصل في أبواب العلاج من الفاحشة يبدأ من القلب، وأعظم ما يُصلح القلب هو تعظيم الله تعالى، واستحضار جلاله، وتعظيم أوامره ونواهيه، ومراقبته في السر والعلن. فإذا عظم العبد ربه في قلبه هانت عليه الشهوة، وإذا استحضر نظر الله إليه استحيا أن يراه ربه حيث نهاه، وإذا عظَّم حرمات الله لم يتعامل مع الذنب كأنه أمر يسير، بل رآه تعديًا على حدود من خلقه ورزقه وستره.

قال تعالى: يآيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك

أولًا: تعظيم الله أصل الاستقامة

من عرف الله حق المعرفة عظَّمه، ومن عظَّمه أطاعه، وخاف مقامه، واستحيا من معصيته.

قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ﴿سورة نوح﴾

وقال سبحانه:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿سورة الزمر﴾

وقال تعالى:

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ ﴿سورة غافر﴾

فكلما ضعف تعظيم الله في القلب، سهلت المعصية، وكلما قوي تعظيم الله، صارت أوامر الله ونواهيه أعظم في نفس العبد من داعي الشهوة.

قال ابن القيم رحمه الله:

المعاصي إنما تنشأ من ضعف تعظيم الله في القلب؛ ولو تمكَّن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه

ثانيًا: تعظيم الله يمنع الاستهانة بالذنب

ربما ظن العبد أن المشكلة في الوقوع في الذنب فقط، بل المشكلة الكبرى في استصغاره، والتهاون به، والنظر إليه كأنه أمر عابر لا أثر له.

قال تعالى:﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ﴿سورة النور﴾

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إياكم ومحقرات الذنوب ؛ فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»

رواه الطبراني والبيهقي

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه:

«إنَّ المؤمنَ يرَى ذنوبَه كأنه في أصلِ جبلٍ يخافُ أنْ يقعَ عليه وإنَّ الفاجرَ يرَى ذنوبَه كذبابٍ وقع على أنفِه قال به هكذا ، فطار»

رواه الترمذي والبخاري

فمن أعظم العلاج أن ينتقل العبد من الاستهانة بالذنب إلى استحضار عظمة من عصاه.

قال الإلبيري رحمه الله:

وَلَو وافَيتَ رَبَّكَ دونَ ذَنبٍ .... وَناقَشَكَ الحِسابَ إِذاً هَلَكتا
وَلَم يَظلُمكَ في عَمَلٍ وَلَكِن .... عَسيرٌ أَن تَقومَ بِما حَمَلتا
وَلَو قَد جِئتَ يَومَ الفَصلِ فَرداً .... وَأَبصَرتَ المَنازِلَ فيهِ شَتّى
لَأَعظَمتَ النَدامَةَ فيهِ لَهفاً .... عَلى ما في حَياتِكَ قَد أَضَعتا
تَفِرُّ مِنَ الهَجيرِ وَتَتَّقيهِ .... فَهَلّا عَن جَهَنَّمَ قَد فَرَرتا
وَلَستَ تُطيقُ أَهوَنَها عَذاباً .... وَلَو كُنتَ الحَديدَ بِها لَذُبتا
فَلا تُكذَب فَإِنَّ الأَمرَ جِدٌّ .... وَلَيسَ كَما اِحتَسَبتَ وَلا ظَنَنتا

وقال بعض السلف:

لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت

ثالثًا: تعظيم حرمات الله

من الدلائل على حياة القلب أن يعظِّم ما عظَّمه الله، وأن يقف عند حدوده، وأن يرى الحرام حرامًا لا يهوِّنه الاسم أو العادة، وأن يسلك

سبل الهداية فلا يضره قلة السالكين وأن يترك سبل الضلالة ولا يغتر بكثرة الهالكين.

قال تعالى:﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ ﴿سورة الحج﴾

وقال سبحانه:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ﴿سورة الحج ﴾

وقال تعالى:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

﴿سورة البقرة﴾

فالحرمات لا تُقاس بما اعتاده الناس، ولا بما تروجه الشاشات، ولا بما تميل إليه النفوس، بل بما حرَّم الله ورسوله ﷺ

وقال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ :أي يجتنب معاصيه ومحارمه، ويكون ارتكابها عظيمًا في نفسه.

رابعًا: تعظيم ما حرَّم الله من الفواحش

إن الله حرَّم الفواحش كلها، ما ظهر منها وما بطن، ونهى عن الاقتراب منها، ولم يجعلها أمرًا يسيرًا أو شأنًا خاصًا يُستهان به.

فقال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة الأعراف﴾

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

وقال عز وجل:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ﴿سورة الأنعام﴾

فإن الفاحشة ليست مجرد ضعف بشري، بل هي ذنب عظيم إذا أصر عليها العبد وتهاون بها، وقد سماها الله فاحشة ووصفت بأن طريقها ساء سبيلًا لما فيها من قبح ذاتي وفساد في العاقبة.

قال الطبري رحمه الله في معنى الفواحش:

هي قبائح الذنوب وعظائمها

وقال ابن القيم رحمه الله:

إذا عظمت الحرمة في قلب العبد عظمت عنده المخالفة، وإذا هانت عليه الحرمة هان عليه الذنب

خامسًا: مراقبة الله في السر والعلن

من أعظم أسباب النجاة من الفاحشة أن يستحضر العبد أن الله يراه في خلوته، ويسمع كلامه، ويعلم نظره، ويحيط بسره وعلانيته.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ ﴿سورة العلق﴾

وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ﴿سورة غافر﴾

وقال تعالى:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿سورة الحديد﴾

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ﴿سورة النساء﴾

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في تعريف الإحسان:

«أنْ تعبدَ اللهَ كأنك تراهُ فإن لم تكنْ تراهُ فإنه يراكَ» رواه مسلم

وقال القحطاني رحمه الله:

وإذا خلوتَ بريبةٍ في ظلمةٍ .... والنفسُ داعيةً إلى الطغيانِ

فاستحي من نظرِ الإلهِ وقل لها .... إن الذي خلقَ الظلامَ يراني

والمراقبة تجعل العبد يستحي من الله في خلوته كما يستحي من الناس في العلانية، بل أعظم.

قال ابن رجب رحمه الله:

من راقب الله في خواطره عصمه الله في حركات جوارحه

سادسًا: خطر ذنوب الخلوات

ذنوب الخلوات من أخطر ما يضعف القلب؛ لأن صاحبها قد يظهر أمام الناس بالصلاح، ثم يتعدى حدود الله بالمعصية إذا خلا.

قال تعالى:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ ﴿سورة النساء﴾

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لأعلمنَّ أقوامًا من أمتي يأتون يومَ القيامةِ بحسناتٍ أمثالِ جبالِ تهامةَ بيضًا فيجعلُها اللهُ عزَّ وجلَّ هباءً منثورًا قال ثوبانُ يا رسولَ اللهِ صِفْهم لنا جَلِّهم لنا أن لا نكونَ منهم ونحنُ لا نعلمُ قال أما إنهم إخوانُكم ومن جِلدتِكم ويأخذون من الليلِ كما تأخذون ولكنَّهم أقوامٌ إذا خَلْوا بمحارمِ اللهِ انتهكُوها» متفق عليه رواه ابن ماجه

وهذا الحديث من أعظم ما يوقظ القلب في زمن الهاتف والإنترنت؛ لأن كثيرًا من الفواحش المعاصرة تقع في الخلوة الرقمية، حيث يغيب الناس، ولا يغيب الله.

سابعًا: مراقبة الجوارح

الفاحشة غالبًا تبدأ من عينٍ أطلقت، أو أذنٍ استمعت، أو قلبٍ تمنى، ولذلك جاءت النصوص بمحاسبة هذه الجوارح.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كتب على ابنِ آدمَ حظُّه من الزنا فهو مدركٌ ذلك لا محالةَ، فالعينانِ تزنيانِ وزناهما النظرُ، والأذنانِ تزنيانِ وزناهما السمعُ، واليدان تزنيان

وزناهُما البطشُ، والرِّجلانِ تزنيانِ وزناهُما المشيُ، والقلبُ يتمنى ويشتهي، والفرجُ يصدقُ ذلك أو يكذبُه» متفق عليه

فالمراقبة لا تكون عند الفعل الأكبر فقط، بل تبدأ من أول نظرة، وأول استماع، وأول رسالة، وأول خاطرة يرضاها العبد ويسترسل معها.

قال ابن القيم رحمه الله:

دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات، ودفع الإرادات أيسر من دفع العزائم، ودفع العزائم أيسر من معالجة الفعل بعد وقوعه.

ثامنًا: تعظيم الله عند حضور الشهوة

أعظم لحظات الاختبار أن تحضر الشهوة، وتتهيأ الأسباب، ويغيب الناس، ثم يذكر العبد أن الله يراه، فيترك الحرام تعظيمًا لله.

قال تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿سورة النازعات﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في السبعة الذين يظلهم الله في ظله:

«ورَجُلٌ دَعَتْه امرَأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجَمالٍ إلى نَفسِها» متفق عليه

فهذا هو مقام التعظيم الحقيقي: أن يغلب خوف الله داعي الشهوة، وأن تكون كلمة إني أخاف الله أقوى من كل إغراء.

قال ابن القيم رحمه الله:

الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة من ألم وحسرة وعقوبة.



تاسعًا: تعظيم الله يورث الحياء منه

من عرف أن الله يراه استحيا منه، والحياء من الله من أعظم أسباب ترك الفاحشة

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«استحيوا من اللهِ تعالى حقَّ الحياءِ ، من اسْتحيا من اللهِ حقَّ الحياءِ فلْيحفظِ الرأسَ وما وعى ، ولْيحفظِ البطنَ وما حوى ، ولْيذكرِ الموتَ والبِلا، ومن أراد الآخرةَ ترك زينةَ الحياةِ الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من اللهِ حق الحياءِ» رواه الترمذي وأحمد

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ» متفق عليه

وقال ابن القيم رحمه الله:

الحياء مادة حياة القلب، وهو أصل كل خير، وذهابه ذهاب كل خير.

فإذا قوي الحياء من الله، صعب على العبد أن يستعمل عينًا رزقه الله إياها في النظر إلى الحرام، أو جسدًا عافاه الله به في معصيته.

عاشرًا: تعظيم الله يردُّ الشبهات والشهوات

من عظَّم الله عظَّم حُكمه، فإذا جاءت الشبهة قالت له: الناس تغيروا، والحرية حق، والشهوة طبيعية، والتطبيع واقع؛ ردَّ عليها بقوله: حُكم الله أعظم.

وإذا جاءت الشهوة قالت له: افعل ولن يراك أحد؛ ردَّ عليها فقال: إن الله يراني.

قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾

﴿سورة الأحزاب﴾

وقال سبحانه:
﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿سورة النساء﴾
وقال تعالى:
﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾
﴿سورة المائدة﴾
فمن عظَّم الله لم يجعل هواه حاكمًا على الوحي، ولم يجعل الواقع مبررًا لتجاوز الحرام.

حادي عشر: تعظيم الله طريق التوبة الصادقة

إذا وقع العبد في ذنب ثم تذكر عظمة الله، لم ييأس، ولم يصر، بل بادر إلى التوبة والرجوع، لأن تعظيم الله يجمع بين الخوف والرجاء.
قال تعالى:
﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾
وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾
وقال تعالى:
﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾
﴿سورة الحجر﴾

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«لَلَّه أشَدُّ فرَحًا بتَوبةِ عَبدِه مِن أحَدِكُم إذا استَيقَظَ على بَعيرِه، قد أضَلَّه بأرضِ فلاةٍ» متفق عليه

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَن تابَ قَبلَ أن تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها تابَ اللهُ عليه» رواه مسلم
فمن عظَّم الله لم يأمن مكره، ولم يقنط من رحمته، بل يتوب كلما زلَّ، ويستحي أن يصرَّ على ما يغضب مولاه وخالقه.



ثاني عشر: وسائل عملية لتعظيم الله في القلب

تعظيم الله لا يأتي بمجرد الدعوى، بل يُغذَّى بأسباب كثيرة، ومنها:

- تدبر أسماء الله وصفاته، وخاصة:
الرقيب، البصير، العليم، السميع، القريب، الجليل، العظيم
- قراءة القرآن بتدبر، لا قراءة اللسان فقط
- كثرة ذكر الموت والوقوف بين يدي الله
- تذكر نعم الله وستره، فإن الكريم يُستحيا من معصيته
- محاسبة النفس بعد الخلوات، لا بعد العلانية فقط
- ترك كل طريق يضعف المراقبة، كصحبة السوء والمحتوى المحرم والخلوة الطويلة بالهاتف.
- تعظيم الصلاة؛ لأنها صلة العبد بربه، ومن عظَّم الصلاة قويت مراقبته.
- الدعاء بأن يملأ الله القلب خشية وتعظيمًا.

قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ ﴿سورة فاطر﴾

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اللهمَّ إِنِّي أسألُكَ خشْيَتَكَ في الغيبِ والشهادَةِ»

رواه النسائي وأحمد

باب عدم اليأس وتجديد الأمل

إن من أعظم مداخل الشيطان على من وقع في الفاحشة أن يُلقي في قلبه اليأس، فيقول له: لا فائدة منك، وقد كثرت ذنوبك، وتكررت عودتك، ولن يقبلك الله بعد ما فعلت. وهذه من أخطر الشبهات القلبية؛ لأن اليأس قد يمنع العبد من التوبة، ويجعله يستمر في المعصية ظنًا أن طريق الرجوع قد أُغلق. والحق أن باب الله مفتوح، ورحمته واسعة، ومغفرته أعظم من الذنوب كلها وهذا لمن صدق في الرجوع إليه.

أولًا: اليأس من رحمة الله من كبائر الذنوب

نهى الغفور الرحيم عن اليأس من رحمته، وجعله من صفات الضالين القانطين

فقال تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿سورة الزمر﴾

وقال سبحانه: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ ﴿سورة الحجر﴾

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿سورة يوسف﴾

وقال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى:

﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾: أن هذه الآية دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبارٌ بأن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها.

فاليأس ليس صدقًا مع النفس، بل سوء ظن بالله، وجهل بسعة رحمته.



ثانيًا: رحمة الله أوسع من الذنوب

مهما عظمت الذنوب، فرحمة الله أعظم، ومغفرته أوسع، وكرمه أسبق إلى عبده من غضبه إذا تاب وأناب.

قال تعالى:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿سورة الأعراف﴾

وقال سبحانه:

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿سورة الأنعام﴾

وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿سورة الحجر﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لما قضى اللهُ الخلقَ ، كتب في كتابِه ، فهو عندَهُ فوقَ العرشِ : إنَّ رحمتي غلبتْ غضَبِي» متفق عليه

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يبسُطُ يدَه باللَّيلِ ليتوبَ مسيءُ النَّهارِ ، ويبسُطُ يدَه – يعني بالنَّهارِ – ليتوبَ مسيءُ اللَّيلِ ، حتَّى تطلُعَ الشَّمسُ من مغربِها»

رواه مسلم وأحمد

فالله لا يمل من قبول التائبين، ولا يغلق بابه في وجه الراجعين، وإنما الشأن أن يَصدق العبد في الرجوع.

ثالثًا: كثرة الذنب لا تمنع قبول التوبة

قد يقول المبتلى: تبت ثم عدت، واستغفرت ثم ضعفت، فهل بقي لي وجه عند الله؟ والجواب أن التوبة تُقبل كلما صدق العبد فيها، ولو تكرر الذنب، ما دام لا يصرَّ عليه مستحلًا ولا يترك التوبة يأسًا.

قال تعالى إن والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء

وقال جل وعلا:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿سورة الشورى﴾

وقال سبحانه:

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل:

« أذنَب عبدي ذنبًا فقال : أيْ ربِّ أذنَبْتُ فقال : أذنَب عبدي ذنبًا فعلِم أنَّ اللهَ يغفِرُ الذَّنوبَ ويأخُذُ بالذَّنوبِ ثمَّ عاد فأذنَب فقال : أيْ ربِّ أذنَبْتُ فقال : أذنَب عبدي وعلِم أنَّ ربَّه يغفِرُ الذَّنبَ ويأخُذُ بالذَّنبِ اعمَلْ ما شِئْتَ فقد غفَرْتُ لك» متفق عليه

قال النووي رحمه الله في معنى الحديث:

لو تكرر الذنب مائة مرة أو ألف مرة أو أكثر، وتاب في كل مرة، قُبلت توبته وسقطت ذنوبه.

فلا تجعل تكرر الضعف سببًا لترك التوبة، بل اجعله سببًا لزيادة المجاهدة وكثرة الرجوع إليه.

رابعًا: اليأس مراد الشيطان

الشيطان لا يفرح بالذنب وحده، ولكن يفرح بما بعده من اليأس والقنوط والإصرار. فإذا لم يقدر أن يمنع العبد من التوبة، خوَّفهُ من عدم قبولها، وإذا زلَّ مرةً أخرى قال له: أنت منافق، لا فائدة منك.

والله يحذر عباده من ذلك فيقول سبحانه:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وقال سبحانه:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

وقال تعالى:
﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿سورة فاطر﴾
وقال ابن القيم رحمه الله:
الشيطان يريد من العبد أن يظفر منه بإحدى اثنتين: إما إفراط وإما تفريط، فإذا لم يوقعه في المعصية أوقعه في القنوط بعد المعصية
فمن فقه العبد ألا يطيع الشيطان مرتين: مرة حين أوقعه في الذنب، ومرة حين يدعوه إلى اليأس بعد الذنب.

خامسًا: التوبة تبدل السيئات إلى حسنات

من كرم الله تعالى أن التوبة لا تمحو الذنب فقط، بل قد تبدل السيئات حسنات إذا صدق العبد في توبته وآمن وعمل صالحًا.
قال الله تعالى بعد ذكر الشرك والقتل والزنا:
﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿سورة الفرقان﴾
وقال سبحانه:
﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿سورة المائدة﴾
وقال ابن القيم رحمه الله:
التوبة النصوح توجب لصاحبها من المحبة والذل والانكسار ما قد يكون بعد الذنب خيرًا له مما كان قبله.
فلا تجعل ذنبك نهاية الطريق، فقد يكون بداية عودة صادقة إلى رب العالمين.

سادسًا: الله يفرح بتوبة عبده

من أعظم ما يطرد اليأس من القلب أن يعلم العبد أن الله يفرح بتوبته فرحًا يليق بجلاله، وأن رجوعه إلى الله محبوب عند ربه.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«لَلَّهُ أَشَدُّ فرَحًا بتَوبةِ عَبدِه حينَ يَتوبُ إليه، مِن أحَدِكُم كان على راحِلَتِه بأرضٍ فَلاةٍ، فانفَلَتَت منه وعليها طَعامُه وشَرابُه، فأيِسَ منها، فأتى شَجَرةً، فاضطَجَعَ في ظِلِّها، قد أيِسَ مِن راحِلَتِه، فبينا هو كَذلك إذا هو بها قائِمةً عِندَه، فأخَذَ بخِطامِها، ثُمَّ قال مِن شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهمَّ أنتَ عَبدي وأنا رَبُّكَ، أخطَأَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ» متفق عليه

فإذا كان الله يفرح بتوبة عبده، فكيف يظن التائب أن باب الله مغلقٌ في وجهه؟

قال ابن رجب رحمه الله:

في هذا الحديث دليل على عظم فرح الرب بتوبة عبده، وأن التوبة من أحب الأعمال إلى الله.

سابعًا: لا تيأس بسبب شدة الشهوة

قد يظن بعض المبتلين أن قوة الشهوة دليل على أنهم لا يصلحون للتوبة، وهذا خطأ؛ فإن المجاهدة لا تكون إلا مع وجود داعٍ يدفع إلى المعصية، وكلما قويت الشهوة وصدق العبد في مقاومتها عظم أجره.

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

﴿سورة العنكبوت﴾

وقال سبحانه:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿سورة النازعات﴾

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكارِهِ وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهواتِ» رواه مسلم والترمذي

فوجود الشهوة ليس عذرًا لليأس، بل هو ميدان للمجاهدة، ومن جاهد نفسه لله أعانه الله وفتح له أبواب الهداية.

ثامنًا: السقوط لا يعني النهاية

قد يسير العبد في طريق العفة أيامًا أو شهورًا، ثم يضعف ويسقط، فيظن أن كل ما مضى ضاع. وهذا من تلبيس الشيطان؛ فإن السقوط لا يبطل صدق المجاهدة، وإنما الواجب أن يقوم العبد سريعًا، ويتوب، ويعرف سبب سقوطه، ويعود أقوى.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ ﴿سورة الأعراف﴾

وقال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

وقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

وقال ابن كثير رحمه الله في معنى الآية:

أي تابوا من ذنوبهم، ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها.

فالعبرة ليست بأن لا يزلَّ العبد أبدًا في طريقه، بل العبرة أن لا يستسلم للزلل، وأن لا يجعل ذلك سببًا للإصرار.

تاسعًا: اليأس يحرم صاحبه العمل الصالح

إذا استسلم العبد لليأس، ترك الصلاة بخشوع، والدعاء، والقرآن، والصحبة الصالحة، وظن أنه لا يستحق القرب من الله. وهذا من أعظم مكايد الشيطان؛ لأن العمل الصالح بعد الذنب من أعظم أسباب في محو أثره.

قال تعالى:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ ﴿سورة هود﴾

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
« اتَّقِ اللهَ حيثُما كنتَ ، وأتبِعِ السَّيِّئةَ الحسَنةَ تَمْحُهَا ، وخالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسنٍ» الترمذي وأحمد

قال ابن رجب رحمه الله:

الحسنة بعد السيئة تمحوها، والتوبة تمحو ما قبلها، والإكثار من الطاعة بعد الزلة من علامات صدق الرجوع إلى الله.

فلا تقل: أنا مذنب فلا أصلح للطاعة، بل قل: أنا مذنب فأنا أحوج الناس إلى الطاعة.

عاشرًا: إن الله يحب التوابين

ليس معنى الصلاح أن العبد لا يخطئ أبدًا، بل الصلاح أن يرجع إلى الله كلما أخطأ، ويتوب كلما زل، ويجاهد نفسه كلما ضعفت.

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وعن عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:
«لو أن العباد لم يذنبوا لخلق الله عز وجل خلقا يذنبون ثم يغفر لهم وهو الغفور الرحيم» أخرجه البزار والحاكم والطبراني

وقال ابن القيم رحمه الله:

أحب الخلق إلى الله أكثرهم توبة، وأعظمهم رجوعًا إليه، وأشدهم افتقارًا بين يديه.

فلا تجعل وقوعك في الذنب دليلًا على أنك بعيد عن الله إلى الأبد؛ بل اجعله سببًا لصدق الافتقار والرجوع.

حادي عشر: حسن الظن بالله مع العمل

عدم اليأس لا يعني الأمن من مكر الله، ولا الاستمرار في الذنب بحجة الرحمة، بل يعني الجمع بين الرجاء والعمل، والخوف والتوبة، وحسن الظن مع صدق المجاهدة.



قال تعالى:

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ ﴿سورة الحجر﴾

وقال سبحانه:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ﴿سورة الكهف﴾

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: سَمِعتُ رسول الله ﷺ قَبلَ مَوتِه بثَلاثةِ أيَّامٍ يقولُ: «لا يَموتَنَّ أحَدُكُم إلَّا وهو يُحسِنُ الظَّنَّ باللَّهِ عَزَّ وجَلَّ» رواه مسلم

وقال الحسن البصري رحمه الله:

إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي، وكذب؛ لو أحسن الظن لأحسن العمل.

فالرجاء الصادق يدفع إلى العمل، أما الرجاء الكاذب فيستعمل الرحمة ذريعة للإصرار.

ثاني عشر: أسباب الإعانة على طرد اليأس

من أراد الثبات بعد الوقوع، وطرد اليأس من قلبه، فليأخذ بأسباب الرجوع وهي:

- المبادرة إلى التوبة فورًا دون تأخير.
- الاغتسال أو الوضوء وصلاة ركعتين توبة إلى الله.
- حذف أسباب الذنب من الهاتف والبيئة والصحبة.
- الإكثار من الاستغفار، خاصة في الأسحار.
- عدم الجلوس وحيدًا طويلًا بعد السقوط.
- الرجوع إلى كتاب الله والصلاة ولو كان القلب منكسرًا.
- مصاحبة الصالحين، مع عدم الاستسلام للعزلة.
- كتابة أسباب السقوط لتجنبها لاحقًا.

- أن نتذكر أن الله لا يمل حتى نمل نحن.
- الدعاء بإلحاح قائلين: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

قال تعالى:

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ﴿سورة هود﴾

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانَ رسول الله ﷺ يُكثِرُ أن يقولَ:

«يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ فقلتُ: يا نبيَّ اللَّهِ آمنَّا بِكَ وبما جئتَ بِهِ فَهل تخافُ علَينا ؟ قالَ: نعَم إنَّ القلوبَ بينَ إصبَعَينِ من أصابعِ اللَّهِ يقلِّبُها كيفَ شاءَ» رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه

وقال ابن القيم رحمه الله:

من صدق الله في اللجوء إليه، فتح له من أبواب الرحمة والهداية ما لم يخطر له على بال.



باب التوبة الصحيحة وشروطها

التوبة باب الله المفتوح لعباده، وسبيل النجاة بعد الذنب، وطريق الطهارة بعد التلوث بالمعصية. ومن رحمة سبحانه وتعالى أنه لم يجعل الذنب نهاية الطريق، بل دعا عباده إلى الرجوع إليه مهما عظمت ذنوبهم، ووعدهم بالمغفرة والقبول إذا صدقوا في التوبة والإنابة. والتوبة الصحيحة ليست كلمة تُقال باللسان فقط، بل رجوعٌ صادق من المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى المراقبة، ومن الإصرار إلى الندم والعمل.

أولًا: وجوب التوبة على كل مؤمن

التوبة واجبة على كل عبد، فلا يستغني عنها صالح ولا عاصٍ؛ لأن الإنسان محل تقصير، ولا نجاة له إلا بالرجوع الدائم إلى الله.

قال تعالى:

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

وقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿سورة التحريم﴾

وعن أبي مالك الأغر المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يا أَيُّها النَّاسُ توبوا إلى اللهِ؛ فإنِّي أتوبُ في اليَومِ إليه مِئةَ مَرَّةٍ»

متفق عليه

فإذا كان رسول الله ﷺ ، وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يكثر من التوبة والاستغفار، فغيره أولى وأحوج.

قال ابن القيم رحمه الله:

منزلة التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقها العبد السالك، ولا يزال فيها إلى الممات.

ثانيًا: معنى التوبة الصحيحة

التوبة في حقيقتها هي رجوع العبد إلى ربه، بترك ما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، والندم على ما مضى، والعزم على الاستقامة فيما بقي.

قال تعالى:﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿سورة الذاريات﴾

وقال سبحانه:

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ﴿سورة الزمر﴾

وقال تعالى:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿سورة الفرقان﴾

فالتوبة ليست مجرد تركٍ مؤقت للذنب، بل هي إنابة وإيمان وعمل صالح، يظهر أثرها في حياة العبد وسلوكه.

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله:

التوبة ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهي أبلغ وجوه الاعتذار

ثالثًا: شرط التوبة الأول: الإقلاع عن الذنب

لا تصح التوبة مع الاستمرار في المعصية؛ فمن تاب بلسانه وهو مقيم على الذنب مختارًا له، لم يحقق بذلك حقيقة التوبة.

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

وقال سبحانه:

﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿سورة المائدة﴾

فقرن الله التوبة بالإصلاح، لأن الصادق لا يكتفي بالندم، بل يترك طريق الذنب ويغلق أبوابه.

قال النووي رحمه الله:

إن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي، فلها ثلاثة شروط: أن يقلع عن المعصية، وأن يندم على فعلها، وأن يعزم ألا يعود إليها أبدًا.

وفي باب الفاحشة المعاصرة، يدخل في الإقلاع: ترك الفعل المحرم، وحذف المواد المثيرة، وقطع العلاقات المحرمة، وإغلاق الحسابات المفسدة، والبعد عن الخلوات والأسباب التي تجر إلى الذنب.

رابعًا: شرط التوبة الثاني: الندم على ما مضى

الندم هو روح التوبة، فمن لم يحزن على معصيته، ولم ينكسر قلبه بين يدي ربه، كان في توبته نقص عظيم.

قال الله تعالى في وصف عباده المتقين إذا أذنبوا:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

فالعبد الصادق إذا ذكر الله بعد الذنب لم يفرح بمعصيته، ولم يتلذذ بذكرها، بل يستحي من ربه، ويندم على تفريطه.

قال ابن القيم رحمه الله:

الندم علامة حياة القلب؛ فإن القلب الحي يتألم بالمعصية كما يتألم البدن الحي بالجرح.

خامسًا: شرط التوبة الثالث: العزم على عدم العودة

من شروط التوبة أن يعزم العبد عزمًا صادقًا ألا يرجع إلى الذنب، لا أن يتركه لحظة ثم يبقي في قلبه نية العودة إليه عند القدرة أو الفرصة.

قال تعالى:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿سورة التوبة﴾

وقال سبحانه:

﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿سورة الأنفال﴾

فالله مطلع على صدق العزم في القلب العبد، ويعلم من ترك الذنب حياءً وخوفًا، ومن تركه لعجز مؤقت مع بقاء التعلق به.

قال النووي رحمه الله:

من شروط التوبة أن يعزم ألا يعود إلى المعصية أبدًا

وليس معنى العزم أن العبد يضمن ألا يضعف مستقبلًا، فهذا لا يملكه أحد، وإنما معناه أن يكون صادقًا عند التوبة في رفض الذنب وبغضه وعدم إرادة الرجوع إليه.

سادسًا: الشرط الرابع: رد الحقوق إلى أهلها

إذا كان الذنب متعلقًا بحقوق الناس، فلا تكفي التوبة بين العبد وربه حتى يرد الحقوق أو يطلب المسامحة أو يرفع الظلم بحسب القدرة والمصلحة الشرعية.

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

﴿سورة النساء﴾

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿سورة هود﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَن كانَت عِندَه مَظلِمةٌ لأخيه فليَتَحَلَّلْه مِنها؛ فإنَّه ليس ثَمَّ دينارٌ ولا درهَمٌ، مِن قَبلِ أن يُؤخَذَ لأخيه مِن حَسَناتِه، فإن لم يَكُنْ له حَسَناتٌ أُخِذَ مِن سَيِّئاتِ أخيه فطُرِحَت عليه» رواه البخاري

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«لتؤدُّنَّ الحُقوقَ إلى أَهلِها ، حتَّى يقادَ الشَّاةُ الجلحاءُ منَ الشَّاةِ القرناءِ»

رواه مسلم والترمذي

وقال النووي رحمه الله:
إن كانت المعصية تتعلق بآدمي، فشروطها أربعة: وهي هذه الثلاثة السابقة، وأن يبرأ من حق صاحبها.
وفي أبواب الفاحشة قد تتعلق التوبة بحقوق الآخرين، مثل ظلم الضحية، أو نشر صورة محرمة، أو ابتزاز، أو فضيحة، أو خيانة، أو مال محرم، أو اعتداء؛ فحينئذ لا بد من إزالة الضرر، ورد الحقوق، وطلب العفو حيث أمكن بلا مفسدة أعظم، وتمكين أهل الحق من أخذ حقهم.

سابعًا: التوبة النصوح

التوبة المطلوبة ليست توبة شكلية، بل توبةً نصوحًا، صادقة خالصة، تقطع العبد عن الذنب وترده إلى الله ردًا جميلًا.
قال تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿سورة التحريم﴾

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في التوبة النصوح:
أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن في الضرع

وقال الحسن البصري رحمه الله:
التوبة النصوح أن يكون العبد نادمًا على ما مضى، مجمعًا على ألا يعود فيه
وقال ابن كثير رحمه الله:
التوبة النصوح هي الصادقة الجازمة، التي تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث التائب وتجمعه

ثامنًا: تأخير التوبة

من أخطر ما يفعله العبد أن يؤخر التوبة، ويقول: أتوب بعد حين، أو بعد الزواج، أو بعد الكبر، أو بعد أن أملَّ من الذنب؛ وهو لا يدري متى يأتيه الموت.
قال تعالى:
﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾
وقال سبحانه:
﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿سورة الحديد﴾
وقال تعالى:
﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

﴿سورة المؤمنون﴾

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّ اللهَ يَقبَلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ» رواه الترمذي وأحمد
فالتأخير خدعة من الشيطان، ومن صدقَ في طلب النجاة لم ينتظر ساعةً عن أخرى.



تاسعًا: التوبة قبل طلوع الشمس من مغربها

باب التوبة مفتوح ما لم يأتِ الأجل الخاص بالموت، أو الأجل العام بطلوع الشمس من مغربها.

قال تعالى:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ﴿سورة الأنعام﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ تابَ قبلَ أنْ تطْلُعَ الشمسُ مِنْ مَغْرِبِها ، تابَ اللهُ عليْهِ» رواه مسلم

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يبسُطُ يدَه باللَّيلِ ليتوبَ مسيءُ النَّهارِ ، ويبسُطُ يدَه - يعني بالنَّهارِ - ليتوبَ مسيءُ اللَّيلِ ، حتَّى تطلُعَ الشَّمسُ من مغربِها»

رواه مسلم وأحمد

وهذا من سعة رحمة الله، ومن أعظم الدوافع للمبادرة قبل أن يغلق هذا الباب العظيم.

عاشرًا: قبول توبة صاحب الفاحشة

مهما عظمت الفاحشة، فإن التوبة الصادقة تمحوها، وقد ذكر الله الزنا مع الشرك والقتل، ثم فتح باب التوبة بعدها.

فقال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

﴿سورة الفرقان﴾

وقال تعالى:
﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿سورة الزمر﴾
وآيتان فرحَ النبي ﷺ بنزولهما فرحًا شديدا كما نقل الإمام ابن القيم رحمه الله:
قوله تعالى:
﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿سورة الفرقان﴾
وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمانٌ وعملٌ صالحٌ، وهو حقيقة التوبة.
قال ابن عباس: ما رأيتُ النبيَّ فرِحَ بشيءٍ قَطُّ فرحه بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول:
﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ ﴿سورة الفتح﴾
فلا توجد فاحشة أعظم من رحمة الله إذا صدق العبد في الرجوع.

حادي عشر: حاجة التوبة إلى إصلاح بعدها

من صدق التوبة أن يتبعها العبد بإصلاح واقعه، لا أن يترك الذنب ثم يبقى في بيئته وأسبابه ودواعيه.
قال تعالى:
﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿سورة البقرة﴾
وقال سبحانه:
﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿سورة المائدة﴾

وقال تعالى:
﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ ﴿سورة مريم﴾
والإصلاح بعد التوبة يكون بقطع العلاقات المحرمة، وترك الرفقة الفاسدة، وحذف المثيرات، ورد الحقوق، واستبدال السيئات بالحسنات، وبناء حياة جديدة تقرب العبد من ربه سبحانه وتعالى.
قال ابن القيم رحمه الله:
التوبة الصحيحة تقتضي مفارقة الذنب وأسبابه، والاشتغال بضده من الطاعات.

ثاني عشر: من علامات صدق التوبة

للتوبة الصادقة علامات تظهر على العبد، منها:

- كراهية الذنب بعد أن كان يحبه.
- الحزن على ما فات من التفريط.
- قطع الطرق المؤدية إلى المعصية.
- تبديل الصحبة والبيئة الفاسدة.
- المحافظة على الفرائض، وخاصة الصلاة.
- الإكثار من الاستغفار والعمل الصالح.
- التواضع والانكسار بين يدي الله.
- الخوف من العودة إلى الذنب.
- رد الحقوق والمظالم إن وُجدت.
- الاستمرار في المجاهدة ولو تكرر الضعف.

قال تعالى:
﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ ﴿سورة هود﴾

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«اتَّقِ اللهَ حيثُما كنتَ، وأتبِعِ السَّيِّئةَ الحسَنةَ تَمْحُهَا ، وخالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسنٍ» رواه الترمذي وأحمد

وقال بعض السلف:
علامة التوبة النصوح أن يكون العبد بعد التوبة خيرًا منه قبلها

ثالث عشر: الحذر من توبة اللسان فقط

قد يقول الإنسان: تبت، لكنه يحتفظ بصور أو محادثات أو علاقات أو روابط أو ذكريات يستدعي بها الذنب متى شاء. وبهذا فإن توبته ليست توبةً كاملة؛ لأن الصادق أول عهده في طريق التوبة أن يقطع الجسر الذي يعيده إلى المعصية.

وقد قال الله تعالى محذرًا:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿سورة النور﴾

وقال سبحانه:﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿سورة الذاريات﴾

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّ الحلالَ بيِّنٌ وإنَّ الحرامَ بيِّنٌ وبينهما أمورٌ مُشتبِهاتٌ لا يعلمهنَّ كثيرٌ من الناس فمنِ اتَّقى الشُّبُهاتِ استبرأ لدِينِه وعِرضِه ، ومن وقع في الشُّبهاتِ وقع في الحرامِ ، كالراعي يرعى حول الحِمى يوشكُ أن يرتعَ فيه ، ألا وإنَّ لكلِّ ملكٍ حمًى ، ألا وإنَّ حمى اللهِ محارمُه ، ألا وإنَّ في الجسدِ مُضغةً إذا صلُحتْ صلُح الجسدُ كلُّه وإذا فسدتْ فسد الجسدُ كلُّه ألا وهي القلبُ» متفق عليه

وقال ابن الجوزي رحمه الله:
من ادعى التوبة وهو مقيم على أسباب المعصية، فتوبته مدخولة
وعلى هذا فإن من تاب من الفاحشة عليه أن يحذف أسبابها، ويغلق أبوابها، ويفر من مواضعها كفراره من النار.

رابع عشر: التوبة لا تعني العصمة

إن العبد قد يتوب توبة صادقة ثم يضعف بعد ذلك، ولا يعني هذا أن توبته الأولى كانت كاذبة، بل الواجب عليه أن يجدد التوبة، ويعرف سبب سقوطه، ويغلق الباب الذي دخل منه الشيطان.
قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ ﴿سورة الأعراف﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه:عن النبيﷺ يحكي عن ربه عز وجل فيقول:
«أذنب عبد ذنبا. فقال: اللهم! اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب. فقال: أي رب! اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبا. فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب فقال: أي رب! اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا. فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. اعمل ما شئت فقد غفرت لك» رواه مسلم

وقال النووي رحمه الله:
إذا تكرر الذنب وتكررت التوبة، قُبلت التوبة كل مرة إذا استوفت شروطها
فلا يترك العبد التوبة بسبب تكرر السقوط، بل يزداد صدقًا وحذرًا ومجاهدة.

خامس عشر: فتوحات التوبة

التوبة لا تعيد العبد إلى الحياد فقط، بل قد ترفعه إلى مقام المحبة إذا صدق فيها، لأن الله يحب التوابين.

قال تعالى:
﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«اللهُ أفرَحُ بتَوبةِ عَبدِه مِن أحَدِكُم سَقَطَ على بَعيرِه، وقد أضَلَّه في أرضِ فَلاةٍ» رواه البخاري

وقال ابن القيم رحمه الله:
للتوبة عند الله منزلة لا تحصل بغيرها، حتى إن الله يحب التوابين ويفرح بتوبة عبده أعظم فرح.
فالعبد بعد التوبة ليس مطرودًا من بابها، بل هو داخل في محبة الله إذا صدق في رجوعه وطهّر قلبه من الإصرار.

سادس عشر: نت التائبين

من أعظم ما يعين التائب على الصدق والثبات أن يكثر من الدعاء.
قال تعالى:
﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿سورة الأعراف﴾
وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء:
«اللهمَّ اغفِرْ لي خطيئَتي وجَهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلمُ به مني، اللهمَّ اغفرْ لي خطَئي وعَمْدي ، وهَزْلي وجِدِّي ، وكلُّ ذلك عندي، اللهمَّ اغفرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، أنت المقدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، وأنت على كلِّ شيء قديرٌ» متفق عليه

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول اللَّه ﷺ يُكثِرُ أن يقول:
«يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ» رواه الترمذي وأحمد
فالتائب أحوج الناس إلى الدعاء، لأن الثبات فضل من الله، والهداية بيده، والقلوب بين أصابعه يقلبها كيف يشاء.



باب الدعاء

إن الدعاء والتوسل لله من أعظم أبواب العلاج من الفاحشة، لأنه يربط العبد بربه، ويذكره بضعفه، ويفتح له باب المعونة والهداية والثبات. فمن عرف ضعف نفسه أمام الشهوة، وقوة الفتن من حوله، علم أنه لا نجاة له بمجرد عزيمته، ولابقوة إرادته وحدها، بل لا بد له من افتقار صادق إلى الله، وسؤالٍ دائمٍ أن يحفظ قلبه وبصره وفرجه، وأن يصرف عنه السوء والفحشاء.

أولًا: عظمة عبادة الدعاء

الدعاء ليس مجرد طلب حاجة، بل هو عبادة يتقرب بها العبد إلى الله، ويظهر بها فقره وافتقاره.

قال تعالى:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ﴿سورة غافر﴾

وقال سبحانه:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿سورة الأعراف﴾

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« الدُّعاءُ هو العبادةُ ثمَّ قرأ: ﴿وَقال رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾»

رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى:

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾: هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه، حيث ندب عباده إلى دعائه، وتكفَّل لهم بالإجابة.

فمن أراد النجاة من الفاحشة، فليكثر من الدعاء، لأن من أكثرَ طرقَ الباب أوشك أن يُفتح له.

ثانيًا: حاجة العبد إلى ربه في حفظ قلبه

القلب ضعيف، والشهوة قوية، والفتن متجددة، ولا يثبت القلب إلا بتثبيت الله.

قال تعالى:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

وقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿سورة الأنفال﴾

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول:

«يا مقلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلبِي على دينك فقلت يا نبيَّ اللهِ آمنَّا بك وبما جئتَ به فهل تخافُ علينا؟ قال نعم إن القلوبَ بينَ إصبعينِ من أصابعِ اللهِ يُقلِّبُها كيفَ يشاءُ» أخرجه الترمذي وأحمد وابن ماجه

وقال ابن القيم رحمه الله:

القلب بين داعيين: داعي الملك وداعي الشيطان، ولا ثبات له إلا بتثبيت الله

فلا يغتر العبد بصلاح سابق، ولا بعزم حاضر، بل يسأل الله الثبات كل يوم.

ثالثًا: الدعاء يصرف الفاحشة

من أعظم ما يدل على أثر الدعاء في دفع الفاحشة ما قصَّه الله عن نبي الله يوسف عليه السلام، حين واجه الفتنة العظيمة، فاعتصم بالله ودعاه.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ۝ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿سورة يوسف﴾

فيوسف عليه السلام مع عفته ونبوته لم يعتمد على نفسه، بل قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾، فكان الجواب: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾.

وقال ابن القيم رحمه الله:

في قصة نبي يوسف عليه السلام دليل على أن العبد لا يستغني عن ربه طرفة عين في دفع أسباب الفتنة، ولو كان من أعبد الناس وأعفهم.

رابعًا: الدعاء بالعفة من هدي النبي ﷺ

كان النبي ﷺ يسأل ربه الهدى والتقى والعفاف والغنى، وهذا من أجمع الأدعية في علاج الشهوة وحفظ النفس.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: أنَّ النبي ﷺ كانَ يَدعو:

«اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ الهُدى والتُّقى والعَفافَ والغِنى» رواه الترمذي ومسلم

فالعفاف هنا يشمل عفة القلب، وعفة البصر، وعفة الفرج، وعفة اللسان، وعفة الجوارح كلها.

وعن قطبة بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من منكراتِ الأخلاقِ و الأعمالِ و الأهواءِ و الأدواءِ»

أخرجه الترمذي وابن حبان والطبراني

وهذا الدعاء عظيم في هذا الباب، لأن الفاحشة تجمع فساد الخلق، وفساد العمل، واتباع الهوى.

وقال النووي رحمه الله في معنى العفاف:

هو الكف عما لا يحل ولا يجمل.

خامسًا: الدعاء بالنجاة من شر النفس

كثير من الفاحشة يبدأ من داخل النفس قبل أن يظهر في الجوارح، ولذلك كان من أعظم الدعاء أن يسأل العبد ربه أن يقيه شر نفسه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿سورة الحشر﴾

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«اللهم آتِ نفسي تقواها أنت خيرُ مَن زكَّاها أنت وليُّها ومولاها أعوذُ بك من قلبٍ لا يخشعُ وعلمٍ لا ينفعُ ودُعاءٍ لا يُسمعُ أو قال دعوةٍ لا يُستجابُ لها» رواه مسلم والنسائي والطبراني

وعن أبي بكرٍ الصديقَ رضي الله عنه قال يا رسولَ اللهِ مرني بكلماتٍ أقولُهُن إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ, فقال قل:
«اللهم فاطرَ السمواتِ والأرضِ عالمَ الغيبِ والشهادةِ ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكَه، أشهدُ أن لا إله إلا أنت، أعوذُ بك من شرِّ نفسي، وشرِّ الشيطانِ وشِرْكِه. قال: قلْها إذا أصبحتَ, وإذا أمسيتَ، وإذا أخذتَ مضجعَك» رواه

أبو داود والترمذي وأحمد

وقال ابن تيمية رحمه الله:

العبد مفتقر إلى الله في كل لحظة، في هدايته، وتوفيقه، وتثبيته، وصرف الشر عنه

فمن عرف شر نفسه لم يركن إليها، ومن عرف ربه لم ييأس من إصلاحها.

سادسًا: الدعاء عند حضور الشهوة

أشد ما يحتاج العبد إليه هو الدعاء حين تحضر الشهوة، وتتهيأ الأسباب، ويضعف القلب. ففي تلك اللحظة لا ينبغي أن يفاوض نفسه طويلًا، بل يفر إلى الله مباشرة.

قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿سورة الذاريات﴾

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ ﴿سورة الأعراف﴾

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النَّبيَّ ﷺ قال لعَبدَ اللهِ بنَ قَيس:
«ألا أدُلُّكَ على كَلِمةٍ هي كَنزٌ مِن كُنوزِ الجَنَّةِ؟ لا حَولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ»

متفق عليه

فذكر العبد ربه بقوله «لا حول ولا قوة إلا بالله» هو اعتراف بأن العبد لا يتحول عن المعصية، ولا يقوى على الطاعة، إلا بعون الله.



قال ابن القيم رحمه الله:
هذه الكلمة لها تأثير عجيب في معاناة الأشغال الصعبة، وتحمل المشاق، ودفع المخاوف

سابعًا: الدعاء بعد السقوط في الذنب

إذا وقع العبد في الذنب، فلا يهرب من الله، بل يهرب إليه؛ مستغفرًا، نادمًا، يسأل ربه القبول والثبات.

قال تعالى:
﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

وقال سبحانه:
﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿سورة الأعراف﴾

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«ما من عبدٍ يُذنبُ ذنبًا ثم يتطهرُ فيحسنُ الطهورَ ، ثم يصلِّي ركعتين ثم يتوبُ للَّهِ من ذنبِه ، إلا تاب اللهُ عليهِ» رواه أبو داوود والترمذي والنسائي

وقال ابن رجب رحمه الله:
دواء الذنب الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله، لا الإصرار ولا القنوط.

ثامنًا: الدعاء في أوقات الإجابة

ينبغي لمن ابتُلي بفتنة الشهوة أن يتحرى أوقات الإجابة، وأن يكثر فيها من سؤال الله العفة والثبات.

ومن أوقات الإجابة:

- السجود

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجِدٌ فأكثِروا الدُّعاءَ» رواه مسلم

- الثلث الأخير من الليل

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
« ينزلُ اللهُ كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدنيا ، حين يبقى ثلثُ الليلِ الآخرِ ، فيقولُ: من يدعوني فأستجيبُ له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرُني فأغفرُ له» متفق عليه

- بين الأذان والإقامة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
« الدُّعاءُ لا يردُّ بينَ الأذانِ والإقامةِ " قالوا: فما نقولُ يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: سلوا اللَّهَ العافيةَ في الدُّنيا والآخرةِ» رواه أبو داود والترمذي

- آخر ساعة من يوم الجمعة

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذَكَرَ يَومَ الجُمُعةِ فقال:
«فيه ساعةٌ لا يوافِقُها عَبدٌ مُسلِمٌ وهو قائِمٌ يُصَلِّي، يَسألُ اللهَ تَعالى شيئًا، إلَّا أعطاه إيَّاه، وأشارَ بيَدِه يُقَلِّلُها» متفق عليه

فمن صدق في طلب العفة، جعل لهذه الأوقات نصيبًا من دعائه وبكائه وافتقاره

تاسعًا: موانع إجابة الدعاء

قد يدعو العبد ولا يرى أثرًا سريعًا، فينبغي أن يفتش عن موانع الإجابة، ومن أعظمها: أكل الحرام، والإصرار على الذنب، والغفلة، والدعاء بقلب لاهٍ

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«يا أَيُّها النَّاسُ إنَّ اللَّهَ طيِّبٌ لا يقبلُ إلَّا طيِّبًا ، وإنَّ اللَّهَ أمرَ المؤمنينَ بما أمرَ بِه المرسلينَ فقالَ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وقالَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ قالَ وذَكرَ الرَّجلَ يُطيلُ السَّفرَ أشعثَ أغبرَ يمدُّ يدَه إلى السَّماءِ يا ربِّ يا

ربِّ ومطعمُه حرامٌ ومشربُه حرامٌ وملبسُه حرامٌ وغذِّيَ بالحرامِ فأنَّى يستجابُ لذلِك» رواه الترمذي ومسلم

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
« ادْعُوا اللهَ وأنتمْ مُوقِنُونَ بالإجابةِ، واعلمُوا أنَّ اللهَ لا يَستجيبُ دُعاءً من قلْبٍ غافِلٍ لَاهٍ» رواه الترمذي

وقال بعض السلف:
لا تستبطئ الإجابة وقد سددت طرقها بالمعاصي
فمن أراد إجابة دعائه فليطهر مطعمه، ويترك إصراره على المعصية، وليدع الله بقلب حاضر منكسر.

عاشرًا: عدم استعجال الإجابة

قد يدعو العبد بالعفة أيامًا أو شهورًا، ثم يضعف، فيظن أن دعاءه لم ينفع. وهذا خطأ؛ فإن الله قد يؤخر الإجابة لحكمة، وقد يدفع بالدعاء شرًا أعظم، وقد يدخر الدعاء للعبد أجرًا يوم القيامة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«يُستَجابُ لأحَدِكُم ما لم يَعجَلْ، يقولُ: دَعَوتُ فلَم يُستَجَبْ لي» متفق عليه

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
« ما من مسلمٍ يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ، ولا قطيعةُ رَحِمٍ؛ إلا أعطاه بها إحدى ثلاثٍ: إما أن يُعجِّلَ له دعوتَه، وإما أن يدَّخِرَها له في الآخرةِ، وإما أن يَصرِف عنه من السُّوءِ مثلَها. قالوا :إذًا نُكثِرُ. قال: اللهُ أكثرُ»

رواه أحمد

وقال ابن القيم رحمه الله:
الدعاء بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحدِّه فقط؛ فمتى كان السلاح تامًا، والساعد قويًا، والمانع مفقودًا، حصلت النكاية في العدو.
فلا تترك الدعاء لأنك لم ترَ أثره سريعًا؛ فالدعاء يعمل في القلب ولو لم تشعر به.

حادي عشر: الجمع بين الدعاء والعمل

الدعاء لا يعني ترك الأسباب، بل الصادق في دعائه يأخذ بالأسباب التي تعينه على النجاة: يغض بصره، ويقطع علاقاته المحرمة، ويحذف المثيرات، ويترك الخلوة، ويصاحب الصالحين.

قال تعالى:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿سورة يوسف﴾

وقال سبحانه في شأن مريم عليها السلام:

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ ﴿سورة مريم﴾

مع أن الله قادر على رزقها بلا فعل منها، لكنه علَّم عباده الأخذ بالأسباب

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«احرِص على ما ينفعُكَ واستعِن باللَّهِ ولا تعجِزْ» رواه مسلم

وقال ابن تيمية رحمه الله:

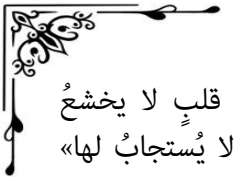
الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع.

فمن دعا الله بالعفة ثم أبقى أبواب الفتنة مفتوحة، فقد ناقض دعاءه بعمله.

ثاني عشر: أدعية نافعة في باب العفة والثبات

ينبغي أن يحفظ العبد أدعية جامعة يكثر منها في خلواته وصلاته وسجوده، ومنها:

- «اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ الهُدى والتُّقى والعَفافَ والغِنى» رواه مسلم
- «يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ». رواه الترمذي
- «اللهمَّ إني أعوذُ بكَ من العجزِ والكسلِ والجُبنِ والبُخلِ والهمِّ وعذابِ القبرِ وفتنةِ الدجَّالِ اللهم آتِ نفسي تقواها أنت خيرُ



مَن زكَّاها أنت وليُّها ومولاها أعوذُ بك من قلبٍ لا يخشعُ وعلمٍ لا ينفعُ ودُعاءٍ لا يُسمعُ أو قال دعوةٍ لا يُستجابُ لها»

رواه مسلم

- «اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من منكراتِ الأخلاقِ و الأعمالِ و الأهواءِ و الأدواءِ» رواه الترمذي
- «اللهم فاطرَ السمواتِ والأرضِ عالمَ الغيبِ والشهادةِ ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكَه، أشهدُ أن لا إله إلا أنت، أعوذُ بك من شرِّ نفسي، وشرِّ الشيطانِ وشِرْكِه» رواه أبو داود والترمذي
- «رَبِّ اغفِرْ لي وتُبْ عليَّ؛ إنَّك أنت التَّوابُ الرَّحيمُ»

رواه والترمذي وابن ماجه

- ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾
- ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿سورة الأعراف﴾

وهذه الأدعية تجمع طلب الهداية، والعفة، والثبات، وطهارة النفس، والوقاية من الهوى، وهي من أعظم ما يحتاجه العبد الذي يريد النجاة من الفاحشة.

باب الصبر والمجاهدة

إن طريق العفاف لا يخلو من المجاهدة، لأن النفس تميل إلى الشهوة، والشيطان يزين المعصية، والواقع المعاصر يفتح أبواب الفتنة من كل اتجاه. ومن ظن أن ترك الفاحشة يكون بلا صبر ولا مقاومة فقد جهل طبيعة الابتلاء. فالعفة ثمرة الصبر، والطهارة ثمرة المجاهدة، والثبات لا يُنال بالأماني، بل بمغالبة الهوى، والاستعانة بالله، وتكرار القيام بعد كل ضعف.

أولًا: الصبر أصل في النجاة

الصبر من أعظم مقامات الدين، ولا يثبت العبد أمام الفتنة إلا به.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

وقال سبحانه:

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ ﴿سورة النحل﴾

وقال تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

﴿سورة الزمر﴾

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من يستعففْ يعفَّه اللهُ، ومن يستغنِ يغنِه اللهُ، ومن يتصبَّرْ يصبرْه اللهُ، وما أُعطيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعُ من الصبرِ» متفق عليه

وقال ابن القيم رحمه الله:

الصبر للنفس بمنزلة الخطام والزمام، فإن لم يكن للنفس خطام ولا زمام شردت في كل مذهب

فمن أراد العفة احتاج إلى صبر يحبس به نفسه عن الحرام، ويمنعها من الاستجابة العاجلة للشهوة.

ثانيًا: المجاهدة طريق الهداية

لم يجعل الله الهداية لمن يتمنى فقط، بل وعد بها من جاهد نفسه في سبيله.

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿سورة العنكبوت﴾

وقال سبحانه: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ ﴿سورة الحج﴾

وقال تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿سورة النازعات﴾

وقال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾: أي الذين يعملون بما يعلمون، يهديهم الله لما لا يعلمون.

وقال ابن القيم رحمه الله:

علَّق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا.

فمن جاهد نظره، ولسانه، وخلوته، وهاتفه، وخواطره، فتح الله له من أبواب الهداية ما لم يكن يظن.

ثالثًا: مخالفة النفس

النفس إذا تُركت لهواها قادت صاحبها إلى الشهوة، وإذا رُوضت بالمجاهدة انقادت للطاعة.

قال تعالى:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿سورة يوسف﴾

وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ ﴿سورة الشمس﴾

وقال بعض السلف:

من لم يؤدب نفسه لم ينتفع بعلمه.

وقال ابن القيم رحمه الله:

النفس كالطفل؛ إن تهمله شبَّ على حب الرضاع، وإن تفطمه ينفطم.

فالمجاهدة ليست قسوة على النفس، بل تربية لها حتى تخرج من أسر الهوى إلى عز الطاعة.

رابعًا: الصبر عند حضور الشهوة

ليست العفة أن لا تُعرض الشهوة أصلًا، بل العفة أن يملك العبد نفسه لله حين تعرض الشهوة.

قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ ﴿سورة الرحمن﴾

وقال سبحانه:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿سورة النازعات﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة:

«ورَجُلٌ دَعَتْه امرَأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجَمالٍ إلى نَفسِها، قال: إنِّي أخافُ اللهَ»

متفق عليه

فهذا الرجل لم يُمدح لأنه لم تُعرض عليه الفتنة، بل مُدح لأنه صبر عند حضورها، وغلب خوف الله على دافع الشهوة.

قال ابن القيم رحمه الله: الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة من ألم وعقوبة وحسرة.

خامسًا: الصبر على ترك الحرام عبادة

ترك الحرام لله عبادة عظيمة، وقد يكون من أعظم القربات إذا زاد الدافع إلى المعصية ثم تركها العبد خوفًا من الله.

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ﴿سورة الرعد﴾

وقال سبحانه:

﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿سورة يوسف﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَن هَمَّ بحَسَنةٍ فلَم يَعمَلها كُتِبَت له حَسَنةً، ومَن هَمَّ بحَسَنةٍ فعَمِلَها كُتِبَت له عَشرًا إلى سَبعِ مِئةِ ضِعفٍ، ومَن هَمَّ بسَيِّئةٍ فلَم يَعمَلْها لَم تُكتَبْ، وإن عَمِلَها كُتِبَت» رواه مسلم

فمن ترك مشاهدة الحرام، أو المحادثة المحرمة، أو العلاقات المحرمة، أو الخلوة تجر إلى الفاحشة، كتب الله له بذلك أجرًا إذا كان تركه خالصًا لوجه لله وابتغاء مرضاته.

قال علي رضي الله عنه:

ترك الذنب أهون من طلب التوبة

سادسًا: المجاهدة تكرار وثبات

قد يظن العبد أنه إذا جاهد مرة انتهت المعركة، وهذا خطأ؛ فالنفس تحتاج إلى تكرار، والشيطان لا ييأس، والفتنة قد تعود في صور مختلفة.

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ﴿سورة الحجر﴾

وقال سبحانه:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿سورة هود﴾

وقال تعالى:
﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:
«أَحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ أدْومُها و إن قَلَّ» متفق عليه

وقال ابن رجب رحمه الله:
من سار إلى الله بصدق لم يزل في مجاهدة حتى يلقى الله فالمجاهدة ليست موقفًا عابرًا، بل طريقٌ طويل، ومن ثبت فيه أعانه الله.

سابعًا: الصبر لا يعني السكون أمام الفتنة

ليس الصبر أن يبقى الإنسان في موضع الفتنة ثم يزعم أنه يصبر، بل من الصبر أن يفر من أسباب الحرام، ويقطع الطرق المؤدية إليه.

قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿سورة الذاريات﴾

وقال سبحانه:
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

وقال تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿سورة النور﴾

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:
« إنَّ الحلالَ بيِّنٌ وإنَّ الحرامَ بيِّنٌ وبينهما أمورٌ مُشتبِهاتٌ لا يعلمهنَّ كثيرٌ من الناس فمنِ اتَّقى الشُّبُهاتِ استبرأ لدِينِه وعِرضِه ، ومن وقع في الشُّبهاتِ وقع في الحرامِ ، كالراعي يرعى حول الحِمى يوشكُ أن يرتعَ فيه ، ألا وإنَّ لكلِّ ملكٍ حمًى ، ألا وإنَّ حمى اللهِ محارمُه ، ألا وإنَّ في الجسدِ مُضغةً إذا صلُحتْ صلُح الجسدُ كلُّه وإذا فسدتْ فسد الجسدُ كلُّه ألا وهي القلبُ» متفق عليه

فمن أبقى أبواب الفتنة مفتوحة، ثم قال: سأصبر، فقد عرَّض نفسه للضعف والسقوط.

ومن تمام الصبر أن يغلق العبد الباب قبل أن يدخل منه الشيطان.

ثامنًا: ألم الترك يعقبه حلاوة الإيمان

إن ترك الشهوة المحرمة قد يكون مؤلماً في البداية، ولكن هذا الألم يعقبه نور وحلاوة وسلامة. أما لذة المعصية فهي قصيرة، يعقبها ندم وظلمة وحسرة.

قال تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿سورة النحل﴾

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ ﴿سورة الطلاق﴾

وعن رجل من أهل البادية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنك لَن تدَع شيئًا للهِ عزَّ وجلَّ إلا بدَلك اللهُ به ما هو خيرٌ لكَ منه»

رواه أحمد

وقال ابن القيم رحمه الله:

من ترك لله شيئًا عوَّضه الله خيرًا منه، والعوض أنواع مختلفة، وأجلَّ ما يُعوَّض به العبد هو الأنس بالله ومحبته وطمأنينة قلبه بالله سبحانه وتعالى.

فمن صبر عن الحرام لله، عوَّضه الله قوة في قلبه، ونورًا في وجهه، وراحة لا يجدها أهل الشهوات.

تاسعًا: المجاهدة بعد السقوط

قد يجاهد العبد ثم يضعف ويسقط، فلا يجوز له أن يترك الطريق أو يظن أن المجاهدة انتهت. بل يقوم، ويتوب، ويعود إلى المعركة بقلب أصدق.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ ﴿سورة الأعراف﴾

وقال سبحانه:
﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾
وقال بعض أهل العلم:
ليست العبرة ألا تسقط، ولكن العبرة ألا تقيم في موضع السقوط.
فالسقوط لا يلغي المجاهدة، وإنما يكشف موضع الضعف، ليتداركه العبد ويغلقه.

عاشرًا: الصبر بالصحبة الصالحة

من أعظم ما يعين على الصبر والمجاهدة صحبة الصالحين، لأن المرء يضعف وحده، ويقوى بإخوانه.
قال تعالى:
﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ﴿سورة الكهف﴾
وقال سبحانه:
﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿سورة الزخرف﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«المرءُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ» رواه أبو داود والترمذي
وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:
عليكم بإخوان الصدق، تعيشوا في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء، وعدة في البلاء
فالذي يريد العفة يحتاج إلى من يذكره إذا غفل، ويعينه إذا ضعف، ويدله على الخير إذا اضطرب.



حادي عشر: المجاهدة بالقلب والجوارح والبيئة

إن المجاهدة ليست قرارًا من العبد داخل نفسه فقط، بل تشمل القلب والجوارح والبيئة.

- فمجاهدة القلب تكون بدفع الخواطر والتعلقات الفاسدة.
- ومجاهدة العين تكون بغض البصر.
- ومجاهدة اللسان تكون بترك الكلام المحرم.
- ومجاهدة اليد تكون بحذف الحرام وقطع أسبابه.
- ومجاهدة البيئة تكون بمفارقة مواضع الفتنة وأهلها.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كتب على ابنِ آدمَ حظُّه من الزنا فهو مدركٌ ذلك لا محالةَ ، فالعينانِ تزنيانِ وزناهما النظرُ ، والأذنانِ تزنيانِ وزناهما السمعُ ، واليدان تزنيان وزناهُما البطشُ ، والرِّجلانِ تزنيانِ وزناهُما المشيُ ، والقلبُ يتمنى ويشتهي ، والفرجُ يصدقُ ذلك أو يكذبُه» متفق عليه

وقال ابن القيم رحمه الله:

أصل الفساد من قِبَل الخواطر؛ فإنها مبدأ الإرادة، والعبد قادرٌ على دفع الخاطر أول وروده، فإن لم يدفعه صار فكرة، ثم شهوة، ثم إرادة، ثم عزيمة.

ومن جاهد الخاطر في أوله سلم من الفعل في آخره.

ثاني عشر: الصبر والمجاهدة من أبواب محبة الله

المجاهد الصابر ليس محرومًا من محبة الله، بل هو محبوبٌ عند الله إذا صدق وصابر واحتسب.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

وقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وقال تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿سورة الأنفال﴾

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكارِهِ وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهواتِ» رواه مسلم والترمذي وأحمد

من صبر على المكاره في طريق العفة، فإن نهاية طريقه إلى الجنة، ومن استسلم للشهوات، فقد عرَّض نفسه لطريق النار.

قال ابن القيم رحمه الله:

لولا مشقة الصبر لما كان للصابرين هذا الفضل العظيم، فإنما عظم الأجر لعظم المجاهدة.

باب طلب العلم الشرعي

العلم الشرعي من أعظم وسائل النجاة من الفاحشة والتي يجهلها الكثير، لأن الجهل يفتح على العبد أبواب الشبهات، ويضعف تعظيم الحرام عنده، ويجعله أسيرًا لما يسمع من الإعلام والهوى والرفقة الفاسدة.

فإذا تعلم دينه، عرف ربه، وعرف حدوده، وعرف خطر الذنب، وعرف طريق التوبة والعفة.

فالعلم نورٌ يهدي القلب، وميزانٌ يفرق به العبد بين الحق والباطل، ودواءٌ لكثير من أمراض الشهوات والشبهات.

أولًا: فضل العلم الشرعي

رفع الله شأن العلم وأهله، وجعل العلم طريقًا للخشية والهداية والبصيرة.

قال تعالى:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿سورة الزمر﴾

وقال سبحانه:

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿سورة طه﴾

وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَن يُرِدِ اللهُ به خَيرًا يُفَقِّهْه في الدِّينِ، وإنَّما أنا قاسِمٌ ويُعطي اللهُ، ولَن يَزالَ أمرُ هذه الأُمَّةِ مُستَقيمًا حتَّى تَقومَ السَّاعةُ، أو: حتَّى يَأتيَ أمرُ اللهِ»

متفق عليه

فمن علامات إرادة الخير بالعبد أن يفتح الله له باب الفقه في الدين، فيعرف الحلال والحرام، والحق والباطل، ومداخل الشيطان ومخارج النجاة.

قال الإمام أحمد رحمه الله:

الناس محتاجون إلى العلم قبل الخبز والماء؛ لأن العلم يحتاج إليه الإنسان في كل ساعة.

وقال الإلبيري رحمه الله:

أَبا بَكرٍ دَعَوتُكَ لَو أَجَبتا .... إِلى ما فيهِ حَظُّكَ إِن عَقَلتا
إِلى عِلمٍ تَكونُ بِهِ إِماماً .... مُطاعاً إِن نَهَيتَ وَإِن أَمَرتا
وَتَجلو ما بِعَينِكَ مِن عشاها .... وَتَهديكَ السَبيلَ إِذا ضَلَلتا
وَتَحمِلُ مِنهُ في ناديكَ تاجاً .... وَيَكسوكَ الجَمالَ إِذا اِغتَرَبتا
يَنالُكَ نَفعُهُ مادُمتَ حَيّاً .... وَيَبقى ذُخرُهُ لَكَ إِن ذَهَبتا
هُوَ العَضبُ المُهَنَّدُ لَيسَ يَنبو .... تُصيبُ بِهِ مَقاتِلَ مَنْ ضَرَبتا
وَكَنزاً لا تَخافُ عَلَيهِ لِصّاً .... خَفيفَ الحَملِ يوجَدُ حَيثُ كُنتا
يَزيدُ بِكَثرَةِ الإِنفاقِ مِنهُ .... وَينقُصُ إِن بِهِ كَفّاً شَدَدتا
فَلَو قَد ذُقتَ مِن حَلواهُ طَعماً .... لَآثَرتَ التَعَلُّمَ وَاِجتَهَدتا
وَلَم يَشغَلَكَ عَنهُ هَوى مُطاعٌ .... وَلا دُنيا بِزُخرُفِها فُتِنتا
وَلا أَلهاكَ عَنهُ أَنيقُ رَوضٍ .... وَلا خِدرٌ بِرَبرَبِهِ كَلِفتا

ثانيًا: العلم طريق الخشية

العلم النافع لا يملأ العقل بالمعلومات فحسب، بل يورث القلب خشية الله وتعظيمه.

قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ ﴿سورة فاطر﴾

وقال ابن مسعود رضي الله عنه:

كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا

وقال الإلبيري رحمه الله:

إذا ما لَم يُفِدكَ العِلمُ خَيراً .... فَخَيرٌ مِنهُ أَن لَو قَد جَهِلتا

وهذا للزجر والتخويف وليس نهيأ عن عدم التعلم

وقال ابن القيم رحمه الله:

العلم النافع هو ما باشر القلب فأوجب له السكينة والخشية والإخبات لله.

فالعلم الذي لا يزيد صاحبه خشيةً ومراقبةً يحتاج صاحبه أن يراجع قلبه ونيته، لأن ثمرة العلم الحق أن يبتعد العبد عن معصية الله حياءً وخوفًا وتعظيمًا.

ثالثًا: الجهل من أبواب الفاحشة

كثير من الناس لا يقع في الفاحشة بقوة الشهوة وحدها، بل بسبب الجهل بخطرها، ومقدماتها، وعقوباتها، وآثارها على القلب والأسرة والمجتمع. فإذا غاب العلم، هان الحرام، وضعفت البصيرة، وصارت الشبهة أقرب إلى القبول.

قال تعالى:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾

﴿سورة النمل﴾

فالجهل هنا ليس مجرد عدم معرفة، بل انحراف في الفهم، وعمى عن العاقبة، وفساد في الميزان، فالله ما عُصي إلا بالجهل، ولو علم العاصي حقيقة ما يطلب وما يفوته لما آثر المعصية.

رابعًا: العلم يكشف خطوات الشيطان

من أعظم فوائد العلم أنه يعلم العبد كيف يبدأ الانحراف، وكيف ينتقل الشيطان به من خطوة إلى أخرى.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿سورة النور﴾

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿سورة فاطر﴾

قال ابن كثير رحمه الله في معنى خطوات الشيطان:

أي طرائقه ومسالكه وما يأمر به

فالعلم يجعل العبد يرى الطريق قبل نهايته، فيعرف أن النظرة ليست مجرد نظرة، وأن الرسالة ليست مجرد رسالة، وأن الخلوة ليست مجرد وقت فراغ، بل قد تكون بداية طريق طويل إلى الفاحشة.

خامسًا: العلم يضبط الشهوة بالشرع

الشهوة فطرة في الإنسان، لكن العلم الشرعي يعلم العبد كيف يضبطها بالحلال، ويحميها من الحرام، ويمنعها من التحول إلى عبوديةٍ للهوى.

قال تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿سورة النازعات﴾

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ ﴿سورة ص﴾

وقال تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

﴿سورة الجاثية﴾

وقال ابن تيمية رحمه الله:
من عبد الله بالعلم كان على بصيرة، ومن عبد الله بالهوى والجهل ضلَّ وإن ظن أنه يحسن صنعًا.
فالعلم لا يلغي وجود الشهوة، لكنه يحكمها ويلجمها بشريعة الله وأوامره، لا بحكم الهوى ولجامه.

سادسًا: العلم يرد الشبهات المعاصرة

في زمن الفاحشة المعاصرة لا تنتشر المعصية بالشهوة فقط، بل تنتشر بالشبهة أيضًا: باسم الحرية، والتمثيل، والاسترزاق، والتطبيع، وتغيير الفطرة، والعلاقات المفتوحة، والواقع الجديد. ولا ينجو من هذه الشبهات إلا من بنى قلبه وعقله على العلم الشرعي.
قال تعالى:
﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾
وقال سبحانه: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النحل﴾
وقال تعالى:
﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿سورة الشورى﴾
وقال ابن القيم رحمه الله:
الشبهات إنما تُدفع بالعلم، والشهوات إنما تُدفع بالصبر.
فمن جمع العلم والصبر نجا من فتنة الشبهة والشهوة معًا.

سابعًا: العلم يورث البصيرة قبل العمل

العابد بلا علم قد يضل الطريق، والمتحمس بلا فقه قد يخطئ في العلاج، أما العلم فيجعل العمل على بصيرة.
قال تعالى:
﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿سورة يوسف﴾

وقال سبحانه:
﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿سورة الملك﴾

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:
«من أحدَث في أمرِنا هذا ما ليس فيه فهو رَدٌّ وفي لفظٍ: من عمل عملًا ليس عليه أمرِنا فهو رَدٌّ» متفق عليه

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله:
من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح

فالعلم يجعل التوبة صحيحة، والعلاج مستقيمًا، والإنكار حكيمًا، والوقاية نافعة.

ثامنًا: العلم يحفظ القلب من زينة المعصية

كلما ضعف العلم في القلب، سهل على الشيطان أن يزين الحرام للناس، وأن يلبسه لباسًا حسنًا. أما العلم فيكشف حقيقة المعصية، ويُري العبد ما وراء اللذة المؤقتة من الندم والحسرة.

قال تعالى:
﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿سورة فاطر﴾

وقال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

وقال تعالى:
﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿سورة المطففين﴾

وقال ابن الجوزي رحمه الله:
الجاهل يرى المعصية لذة، والعالم يرى وراءها العقوبة والوحشة وسوء العاقبة.

فالعلم ينبه العبد قبل أن ينخدع بزينة الشهوة.

تاسعًا: العلم يعين على التوبة

من جهل معنى التوبة قد ييأس، أو يظن أن التوبة مجرد كلمة، أو يترك شروطها، أو يبقى على أسباب الذنب. أما العلم فيرشد العبد كيف يتوب، ومتى تصح التوبة، وكيف يرد الحقوق، وكيف يثبت بعد الرجوع.

قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وقال سبحانه:

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

فالعلم يرفع عن التائب الفوضى والاضطراب، ويدله على الطريق الصحيح للرجوع إلى الله.

عاشرًا: الحماية من الغلو والتساهل

في علاج الفاحشة قد يقع الناس بين طرفين: طرف يهون المعصية، وطرف يجعل العصاة يقنطون من رحمة الله. والعلم الشرعي هو الذي يضبط الخطاب بين الخوف والرجاء، وبين التحذير والرحمة.

قال تعالى:

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾

﴿سورة الحجر﴾

وقال سبحانه:

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿سورة المائدة﴾

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«بَشِّروا وَلا تُنفِّروا، ويَسِّروا وَلا تُعسِّروا» متفق عليه

وقال ابن القيم رحمه الله:

القلب في سيره إلى الله بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه.

فالعلم يجعل الداعية والمربي والتائب يسيرون بتوازن: لا يستهينون بالذنب، ولا ييأسون من الرحمة.

حادي عشر: الإخلاص في طلب العلم

ليس المقصود بالعلم جمع المعلومات للجدل أو الظهور، بل للعمل والخشية والنجاة.

قال تعالى:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ ﴿سورة البينة﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« من تعلَّم علمًا مما يبتغى به وجهَ اللهِ تعالى ، لا يتعلَّمُه إلا ليُصيبَ به عرضًا من الدنيا لم يجِدْ عَرْفَ الجنةِ يومَ القيامةِ . يعني ريحَها» رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد

وعن أبي برزة الأسلمي نضلة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« لا تَزولُ قَدَمَا عَبْدٍ يومَ القيامةِ، حتَّى يُسأَلَ عن عُمُرِه؛ فيمَ أفناه؟ وعن عِلْمِه؛ فيم فعَلَ فيه؟ وعن مالِه؛ من أين اكتسَبَه؟ وفيم أنفَقَه؟ وعن جِسمِه؛ فيمَ أبلاه؟» رواه الترمذي والدرامي والبيهقي

وقال سفيان الثوري رحمه الله:

ما عالجت شيئًا أشد عليّ من نيتي

فطلب العبد العلم يكون لمعرفة الله، وعبادة الله بصورة صحيحة، وحفظ النفس والأهل والمجتمع.

ثاني عشر: العلم النافع يثمر العمل الصالح

العلم الذي لا يتحول إلى عمل يكون حجة على صاحبه يوم القيامة، أما العلم النافع فهو الذي يثمر طاعة، وخشية، وتوبة، وعفة.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿سورة الصف﴾

وقال سبحانه:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اللَّهمَّ إني أعوذُ بك من علمٍ لا ينفعُ ، ومن قلبٍ لا يخشعُ ، ومن نفسٍ لا تشبعُ ، ومن دعاءٍ لا يُسمعُ» رواه مسلم

وقال الحسن البصري رحمه الله:

كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يُرى ذلك في تخشعه وهديه ولسانه وبصره وبره

وقال الإلبيري رحمه الله:

وَإِن راعَيتَهُ قَولاً وَفِعلاً .... وَتاجَرتَ الإِلَهَ بِهِ رَبِحتا

فإذا تعلم العبد حكم النظر، ظهر العلم في غض بصره. وإذا تعلم خطر الفاحشة، ظهر العلم في فراره منها. وإذا تعلم التوبة، ظهر العلم في رجوعه إلى الله وإنابته.

ثالث عشر: مصادر العلم التي يحتاجها طالب العفة

من أراد أن يجعل العلم سببًا في نجاته من الفاحشة، فليعتنِ بأصول عظيمة وهي:

- تعلم القرآن وتدبر آيات العفة والتقوى والتوبة.
- تعلم أحاديث النبي ﷺ في غض البصر، وحفظ الفرج، والصوم، والزواج، والتوبة.
- قراءة كلام أهل العلم في أمراض القلوب ومداخل الشيطان.
- تعلم فقه العلاقات والحدود بين الرجال والنساء.

- معرفة أحكام الخلوة، والنظر، والمحادثات، والتبرج، والستر.
- تعلم شروط التوبة، وحقوق العباد، وكيفية إصلاح ما فسد.
- سؤال أهل العلم عند الاشتباه، بدلًا من اتباع الهوى أو فتوى النفس.

قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النحل﴾

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:
«ألَا سألوا إذْ لم يَعلَموا؛ فإنَّما شِفاءُ العِيِّ السُّؤالُ» أخرجه أبو داود والبيهقي

فالسؤال عن الدين ليس جهلًا أو ضعفًا، بل طلبٌ للنجاة والخروج من الجهل.

رابع عشر: العلم والعمل في زمن الفتن

في زمن الفتن تكثر الأصوات، وتختلط المفاهيم، ويتصدر غير المؤهلين، ويلبس الباطل لباس الحق. ولا يثبت في هذا الزمن إلا من كان عنده نور من العلم.

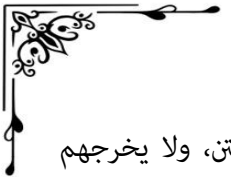
قال تعالى:
﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿سورة النور﴾

وقال سبحانه:
﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿سورة الأنعام﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«بادروا بالأعمالِ فتنًا كقطعِ اللَّيلِ المظلمِ ، يصبحُ الرَّجلُ مؤمنًا ويمسي كافرًا ، ويمسي مؤمنًا ويصبحُ كافرًا يبيعُ أحدُهم دينَهُ بعرضٍ منَ الدُّنيا»

رواه مسلم والترمذي



وقال ابن تيمية رحمه الله:
إذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمات الفتن، ولا يخرجهم منها إلا العلم بما جاء به الرسول ﷺ.
فالعلم في زمن الفاحشة المعاصرة ليس ترفًا فكريًا، بل ضرورة لحفظ الدين والقلب والأسرة.

خامس عشر: دعاء طالب العلم

ينبغي لطالب العلم أن يسأل الله علمًا نافعًا، وقلبًا خاشعًا، وعملًا صالحًا، وأن يحفظه من علم لا يثمر خشية.
قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿سورة طه﴾

وعن أبي هريرة وابن عمرو وأنس رضي الله عنهم قالوا: قال رسول الله ﷺ:
«اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ منَ الأربعِ، مِن عِلمٍ لا ينفَعُ، ومِن قَلبٍ لا يخشَعُ، ومِن نَفسٍ لا تَشبعُ، ومِن دُعاءٍ لا يُسمَعُ» رواه أبو داود والنسائي
وقال ابن القيم رحمه الله:
العلم النافع ما عرَّف العبد بربه، ودلَّه عليه، حتى عرفه ووحَّده وأنس به واستحيا من قربه.
فليكن طلب العلم طريقًا إلى الله، لا مجرد ثقافة، وليكن أثره طهارة القلب، وحفظ الجوارح، والبعد عن الفاحشة ظاهرًا وباطنًا.

باب الطاعة

الفاحشة إذا كانت ظلمةً تدخل القلب، فإن الطاعة نور يطردها، وإذا كانت الشهوة نارًا تشتعل في النفس، فإن العبادة ماءٌ يطفئها، وإذا كان الحرام يضعف القلب ويكسر الحياء، فإن القرب من الله يرد للقلب حياته، وإلى النفس طهرها، وإلى الجوارح استقامتها.

وليس علاج الفاحشة بمجرد الترك، بل بملء القلب بما يضادها؛ لأن القلب إذا خلا من محبة الله وذكره وطاعته، ازدحمت فيه الشهوات، وتسللت إليه الفتن، ومال إلى ما يفسده.

أما إذا عمر بالطاعة، ضاقت فيه مساحة الحرام، واستقوت فيه المراقبة، وصار بعيدًا كل البعد عن مواضع السقوط.

قال تعالى:

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ ﴿سورة العنكبوت﴾

وهذه آية عظيمة في بيان أثر الطاعة؛ فإن الصلاة إذا أقيمت بحقها، وخشع لها القلب، كانت حاجزًا بين العبد وبين الفاحشة، ونورًا يمنعه من اتباع الهوى.

أولًا: الصلاة حصن من الفاحشة

الصلاة أعظم ما يتطهر به العبد من أدران الشهوة، فهي صلةٌ بين القلب وربه، ووقوف بين يدي الله، وتذكير متكرر بأن العبد مراقَبٌ ومحاسَبٌ ومحتاج إلى سيده ومولاه.

قال تعالى:

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ ﴿سورة طه﴾

وقال سبحانه:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ﴿سورة المؤمنون﴾

ومن خشع في صلاته رقَّ قلبه، ومن رقَّ قلبه استحيا من ربه، ومن استحيا من ربه عظم عليه أن يبارزه بالفاحشة في خلوته أو علانيته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أرَأيتُم لو أنَّ نَهرًا بِبابِ أحَدِكُم يَغتَسِلُ منه كُلَّ يَومٍ خَمسَ مَرَّاتٍ، هل يَبقى مِن دَرَنِه شيءٌ؟ قالوا: لا يَبقى مِن دَرَنِه شيءٌ، قال: فذلك مَثَلُ الصَّلَواتِ الخَمسِ، يَمحو اللهُ بهِنَّ الخَطايا» متفق عليه

فالصلوات الخمس غسلٌ متكررٌ للروحِ، ومن حافظ عليها بقلب حاضرٍ، كانت له طهارةً من الذنوبِ، وقوة على مقاومة الشهوة.

ثانيًا: القرآن حياة القلوب

القرآن يوقظ القلب من غفلته، ويذكره بالله، ويعرض عليه وعد الجنة ووعيد النار، ويكشف له قبح المعصية وجمال الطاعة.

ومن أكثر من القرآن وجد في قلبه نورًا يزاحم ظلمة الفاحشة.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿سورة يونس﴾

وقال سبحانه:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

فالقرآن شفاء لما في الصدور من مرض الشهوة والشبهة والغفلة والقسوة.

وإذا كان القلب يمرض بكثرة النظر إلى الحرام، فإنه يصح بكثرة النظر في كلام الملك العلام.

قال تعالى:
﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿سورة الحديد﴾
ومن أراد علاج الفاحشة، فليجعل له وردًا من القرآن، يسمعه ويتلوه ويتدبره، فإن القلب الذي يسكنه القرآن يضيق بالحرام.

ثالثًا: الذكر يطرد الغفلة والشهوة

الغفلة أرض تنبت فيها الفاحشة، والذكر حياة للقلب وحراسة للعبد من الشيطان.
فإذا أكثر العبد من ذكر الله، قويت مراقبته، وانكسر سلطان الشهوة عليه، واستحيا أن يذكر الله بلسانه ثم يعصيه بجوارحه.
قال تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿سورة الأنفال﴾
وقال سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ﴿سورة الرعد﴾
والقلب القلق بالشهوة لا يطمئن بكثرة الصور والمحادثات، وإنما يطمئن بذكر الله، والروح التي أتعبها الحرام لا يسكنها إلا القرب من الله.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَثَلُ الذي يَذكُرُ رَبَّه والذي لا يَذكُرُ رَبَّه مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ» متفق عليه
فمن قل ذكره قلت حياة قلبه، ومن كثرت غفلته قويت عليه شهوته، ومن لازم الذكر صار في قلبه نورٌ يمنعه من الانقياد للحرام.

رابعًا: الطاعة تمحو أثر الذنوب

إذا وقع العبد في ذنب، فليس علاجه أن يستسلم لليأس، بل أن يبادر إلى الطاعة؛ فإن الحسنات تمحو السيئات، والطاعة تغسل أثر المعصية، والرجوع إلى الله يحيي ما أفسدته الشهوة.

قال تعالى:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ ﴿سورة هود﴾

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اتَّقِ اللهَ حيثُما كنتَ ، وأتبِعِ السَّيِّئةَ الحسَنةَ تَمْحُهَا ، وخالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسنٍ» رواه الترمذي وأحمد

ومن أظلم قلبه بنظرة محرمة، فليغسله بالتلاوة والذكر، ومن أضعفته الخلوة الآثمة، فليعالجها بالصلاة والتوبة، ومن تعثر في طريق العفة، فليقم إلى الله ولا يقعد في موضع السقوط.

خامسًا: مجالس الطاعة تحفظ القلوب

كل قلب يتأثر بالبيئة التي يعيش فيها؛ فإذا أكثر العبد من مجالس الطاعة، وصحب الصالحين، وسمع الموعظة، وشارك في الخير، وجد من يعينه على الثبات ويذكره إذا غفل.

قال تعالى:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ﴿سورة الكهف﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«المرءُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ» رواه أبو داود والترمذي

ومن عاش بين أهل الغفلة استوحش من الطاعة، ومن صاحب أهل الطاعة استوحش من الحرام.

والصحبة الصالحة لا تعصم وحدها، لكنها من أعظم أسباب الثبات بعد توفيق الله.

سادسًا: الطاعة تملأ الفراغ

كثير من الفواحش يدخل من باب الفراغ؛ فراغ الوقت، وفراغ القلب، وفراغ الروح. فإذا امتلأ وقت العبد بالطاعة والعمل النافع، ضاقت عليه أبواب الفتنة، وضعفت عليه خواطر الحرام.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ ﴿سورة الشرح﴾

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ منَ النَّاسِ الصِّحَّةُ والفراغُ» رواه البخاري

والفراغ إذا لم يشغله بالطاعة شُغل بمعصية الله، والقلب إذا لم يُعمره صاحبه بالحق عمر الباطل، والنفس إن لم يقدها إلى الله قادته إلى هواها.

سابعًا: بناء حاجز المراقبة

كلما ازداد العبد طاعةً ازداد شعوره بقرب الله واطلاعه عليه، فإذا خلا بمعصية ذكر أن الله يراه، وإذا دعته الشهوة استحيا من ربه، وإذا عرضت له الفتنة وجد في قلبه واعظًا يرده.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ﴿سورة النساء﴾

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ ﴿سورة العلق﴾

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في مقام الإحسان:

«أنْ تعبدَ اللهَ كأنك تراهُ فإن لم تكنْ تراهُ فإنه يراكَ» متفق عليه

وقال القحطاني رحمه الله:

وَإِذَا خَلَوْتَ بِرِيبَةٍ فِي ظُلْمَةٍ .... وَٱلنَّفْسُ دَآعِيَةٌ إِلىٰ ٱلطُّغْيَانِ

فَاسْتَحْيِّ مِنْ نَظَرِ الإِلَهِ وَقُلْ لَهَآ .... إِنَّ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلظَّلَامَ يَرَآنِي

وإذا استقر هذا المعنى في القلوب، صارت الخلوة موضع حياء لا موضع انتهاك، والهاتف ابتلاءً يراقب فيه العبد ربه، والطاعة حارسًا على السريرة.



باب تضييق الوصول

صار الهاتف والإنترنت في هذا الزمان من أعظم الأبواب التي يدخل منها الخير والشر إلى القلوب والبيوت، فإن استُعملا في طاعة الله وطلب العلم وصلة الرحم ونفع الناس كانا من وسائل الخير، وإن تُركا بلا ضبط ورقابة ولا حدود صارا بابًا واسعًا إلى النظر المحرم، والعلاقات الفاسدة، والخلوات الخفية، وإشاعة الفاحشة، وتطبيع المنكر في النفوس.

ولم تعد الفاحشة في هذا العصر تحتاج دائمًا إلى خروج من البيوت ولقاء ظاهر، بل قد تدخل على الإنسان في غرفته، وفي خلوته، وفي يده، وفي أوقات فراغه، عبر صورة أو مقطع أو محادثة أو متابعة أو رسالة.

ومن هنا صار تضييق الوصول إلى أبواب الفتنة في الهاتف والإنترنت من أعظم أسباب حفظ الدين والحياء والعفة، خاصة للصغار والشباب ومن غلبت عليهم دواعي الشهوة وضعفت عندهم المراقبة.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء)

والنهى قربان الزنا يشمل كل طريق يقرب إليه، من النظر المحرم، أو الخلوة، أو المحادثة، أو التعلق، أو المشاهدة التي تثير الشهوة وتضعف القلب.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (سورة الأنعام)

والهاتف والإنترنت قد يجمعان بين الفواحش الظاهرة والباطنة؛ فالظاهرة تكون في صورة أو كلمة أو مقطع وغير ذلك من الأمور، والباطنة تكون في الخاطر والتمني والتعلق وخيانة العين والقلب.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (سورة الإسراء)

وهذه الآية من أعظم ما يضبط استعمال الهاتف والإنترنت؛ لأن أكثر ما يمر عبرهما داخل في ما يسمعه الإنسان، وما يراه، وما يتركه في قلبه من أثر.

أولًا: الهاتف والإنترنت باب واسع إلى النظر المحرم

من أخطر أبواب الفاحشة في الهاتف والإنترنت إطلاق البصر فيما حرم الله.

فقد كانت النظرة المحرمة في السابق محدودة بمكان أو موقف، أما اليوم فقد صارت الصور والمقاطع والمشاهد تصل إلى الإنسان في كل وقت، وتلاحقه في خلوته، وتعرض عليه الفتنة بألوانها المتعددة.

قل تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾

وقال سبحانه:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (سورة النور)

فبدأ الله بغض البصر قبل حفظ الفرج؛ لأن النظر من أعظم أبواب الفاحشة، وإذا فُتح باب النظر ضعف القلب، وتحركت الشهوة، وسهلت كل الخطوات التالية.

عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يا عليُّ ! لا تُتبعِ النَّظرةَ النَّظرةَ، فإنَّ لَكَ الأولى ، ولَيسَتْ لَكَ الآخرةُ» رواه أبو داود والترمذي

وإذا كان النبي ﷺ قد حذر من اتباع النظرة بالنظرة في الواقع، فكيف بزمن يستطيع فيه الإنسان أن يتبع النظرة بمئات النظرات، وأن ينتقل

من صورة إلى صورة، ومن مقطع إلى مقطع، حتى يتبلد قلبه ويضعف حياؤه؟

قال ابن القيم رحمه الله:

النظرة سهم مسموم من سهام إبليس

وإن الهاتف إذا تُرك بلا ضبط مستقيم له قد يصير وعاءً لهذه السهام المسمومة والتي يضرب بها الشيطان قلب العبد في خلوته حتى يفسد عليه حياءه وخياله وعبادته.

ثانيًا: تضييق الوصول من سد الذرائع

من أصول الشريعة أنها لا تحرم الفاحشة وحدها، بل تمنع الطرق الموصلة إليها. فكل طريق غلب على الظن أنه يفتح باب الحرام، أو يضعف القلب، أو يجر إلى المعصية، كان تضييقه ومنعه من الحكمة والفقه في الدين.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ (سورة البقرة)

فالشرع لا يقول للعبد: اقترب من الحرام ثم زعم أنك ستثبت، بل أمره أن يبتعد عن الحدود التي يخشى معها السقوط.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(سورة النور)

والهاتف والإنترنت قد يكونان من أكثر المواضع التي تظهر فيها خطوات الشيطان من: الفضول، ثم البحث، ثم المشاهدة، ثم التكرار، ثم التعلق، ثم المحادثة، ثم الخلوة، ومن ثم وقوع فيما حرم الله.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ الحلالَ بيِّنٌ وإنَّ الحرامَ بيِّنٌ وبينهما أمورٌ مُشتبِهاتٌ لا يعلمهنَّ كثيرٌ من الناس فمنِ اتَّقى الشُّبُهاتِ استبرأ لدِينِه وعِرضِه ، ومن وقع في

الشُّبهاتِ وقع في الحرامِ ، كالراعي يرعى حول الحِمى يوشكُ أن يرتعَ فيه ، ألا وإنَّ لكلِّ ملكٍ حمًى ، ألا وإنَّ حمى اللهِ محارمُه ، ألا وإنَّ في الجسدِ مُضغةً إذا صلُحتْ صلُح الجسدُ كلُّه وإذا فسدتْ فسد الجسدُ كلُّه ألا وهي القلبُ» متفق عليه

وتضييق أبواب الفتنة في الهاتف والإنترنت من الاستبراء للدين والعرض، لأن من ترك لنفسه كل باب مفتوح لم يأمن أن تضعف عند أول فتنة أو عند طول الخلوة والفراغ.

قال ابن القيم رحمه الله:

ما حرم الله شيئًا إلا عوض منه ما هو خير منه، كما حرم الاستقسام بالأزلام وعوض منه دعاء الاستخارة، وحرم الربا وعوض منه البيع، وحرم السفاح وعوض منه النكاح.

من هنا نعلم أن من ضيق على نفسه طريق الحرام، لم يحرمه الله الخير، بل حفظ له قلبه ودينه، وأغناه بما أحل عما حرم.

ثالثا: صنع خلوة محرمة خفية

الخلوة لم تعد محصورة في مكان مغلق يجتمع فيه رجل وامرأة، بل قد تقع الخلوة في محادثة خاصة، أو اتصال طويل، أو رسائل متتابعة، أو علاقة خفية لا يطلع عليها أحد وقد تكون هذه الخلوة الرقمية أشد خطرًا عند بعض الناس؛ لأنها تختبئ خلف الشاشات، وتلبس ثوب الخصوصية، وتبدأ بكلام يسير ثم تنتهي بتعلق وفتنة

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يَخلونَّ رَجُلٌ بامرَأةٍ إلَّا ومعها ذو مَحرَمٍ، ولا تُسافِرِ المَرأةُ إلَّا مع ذي مَحرَمٍ» متفق عليه

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يخلوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ فإنَّ الشيطانَ ثالثُهما» رواه الترمذي وأحمد

والعلة في الخلوة هي اجتماع الخفاء وداعي الشهوة ووسوسة الشيطان، وهذه المعاني توجد في المحادثات الخاصة كما توجد في اللقاءات

الظاهرة، بل ربما زادت بسبب سهولة التدرج وطول الكلام وغياب الرقابة.

قال تعالى:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ ﴿سورة النساء﴾

وهذا من أعظم ما يقال في خلوات الهاتف؛ فإن العبد قد يستخفي عن أهله والناس، ويغلق على نفسه الباب، ويمحو أثر المحادثة، وينسى أن الله مطلع عليه، وأن السر عند الله علانية.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ ﴿سورة العلق﴾

ومن غاب عنه هذا المعنى في استعمال الهاتف والإنترنت، سهل عليه أن يجعل خلوته بابًا إلى ما لا يرضي الله.

رابعًا: حفظ الصغار من الفساد المبكر

الصغير لا يملك من العلم والخبرة والرقابة الذاتية ما يملكه الكبير، فإذا فُتح له الهاتف والإنترنت بلا حدود، تعرض قلبه الصغير لما لا يحتمله من شبهات وشهوات، وربما رأى في طفولته ما يفسد حياءه، ويشوه فطرته، ويعجل بانتباه شهوته قبل أوانها.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿سورة التحريم﴾

وهذه الآية تشمل حفظ الأهل من أبواب النار وأسبابها، ومن ذلك حفظ الأبناء والبنات من أبواب الفتنة التي تدخل عليهم في أجهزتهم الرقمية وخلواتهم.

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ» متفق عليه

ومن الرعاية أن لا يُترك الصغير وحده أمام عالم مفتوح لا يميز فيه بين النافع والضار، ولا بين الطاهر والخبيث، ولا بين الحق والباطل.

عن جد عمرو بن شعيب رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ:
« مُرُوا أولادَكُم بالصلاةِ وهُم أبناءُ سبعِ سنينَ ، واضرِبُوهُم عليهَا وهُمْ أبْنَاءُ عَشْرٍ وفرِّقُوا بينهم في المَضَاجِعِ» رواه أبو داود

فإذا كانَ الشرع راعى حدود المضاجع داخل البيت حمايةً للحياء والفطرة، فكيف بما هو أخطر من ذلك من أبواب مفتوحة تعرض الصور والمشاهد والعلاقات والشبهات بلا حجاب؟

قال ابن القيم رحمه الله:

من أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى فقد أساء إليه غاية الإساءة.

وترك الأبناء بلا ضبط في الهاتف والإنترنت من أعظم صور الترك والإهمال في هذا العصر، لأنه يترك عقولهم وقلوبهم لمن يشكلها بالهوى والشهوة والشبهة.

خامسًا: حفظ القلب من التعلق والاعتياد

الخطر في الهاتف والإنترنت لا يقف عند المشاهدة الأولى، بل في الاعتياد والتكرار.

لأن الإنسان إذا اعتاد دخول المواقع والحسابات والمحادثات المثيرة، صار قلبه متعلقًا بها، يرجع إليها عند الفراغ والضيق، ويتغذى منها خياله، ويضعف بسببها حياؤه.

قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة المطففين)

والذنوب إذا تكررت تركت أثرًا على القلب، حتى يغطيه الران، ويضعف إنكاره للمنكر.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ عَرْضَ الحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَتْ فيه نُكتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنْكَرَها نُكِتَتْ فيه نُكتةٌ بيضاءُ، حتى

يصِيرَ القلبُ أبيضَ مثلَ الصَّفا، لا تَضُرُّه فِتنةٌ ما دامَتِ السمواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسودَ مُربَدًّا كالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلا ما أُشْرِبَ من هَواه» رواه مسلم.

والهاتف والإنترنت يعرضان الفتن على القلوب عودًا عودًا، وصورة صورة، ومقطعًا مقطعًا، حتى إذا لم يحفظ العبد قلبه أُشرب الفتنة، وضعف نوره.

قال ابن القيم رحمه الله:

المعاصي تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضًا، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها.

وهذا ظاهرٌ في إدمان النظر والمشاهدة والمحادثة؛ فإن أول الأمر يكون اختيارًا، ثم يتحول إلى عادة، ثم يصير أسرًا يثقل على صاحبه تركه.

سادسًا: حفظ اللسان والكتابة

الهاتف لا يفتح باب النظر فقط، بل يفتح باب الكلام والكتابة والتعليق والمراسلة.

وقد تكون الكلمة المكتوبة سببًا في فتنة، أو علاقة، أو شهوة، أو نشر فاحشة، أو إيذاء عرض، أو تزيين منكر.

قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (سورة ق)

ويدخل في هذا كل ما يكتبه الإنسان ويرسله وينشره؛ لأن الكتابة قولٌ بالمعنى، محفوظةٌ عند الله، وإن حذفها صاحبها من جهازه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ الرجلَ لَيتكلَّمُ بالكلمةِ لا يرى بها بأسًا يهوي بها سبعين خريفًا»

متفق عليه

فكلمةٌ في محادثة، أو تعليق على صورة، أو مزاح فاحش، أو دعوة إلى علاقة محرمة، قد يظنها صاحبها عابرة، وهي عند الله عظيمة.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« ليس المُؤمِنُ بالطَّعَّانِ ولا اللَّعَّانِ ولا الفاحشِ ولا البَذيءِ» رواه الترمذي

والهاتف إذا تُرك بلا ضبط صار اللسان فيه أطول، والجرأة فيه أكثر، لأن الإنسان قد يكتب خلف الشاشة ما يستحي أن يقوله مواجهة، وهذا من مداخل الفحش والبذاءة والفتنة.

سابعًا: منع إشاعة الفاحشة

من أخطر ما يصنعه الهاتف والإنترنت أنه يجعل نشر الفاحشة أسهل من أي وقت مضى؛ فقد ينشر الإنسان صورة، أو مقطعًا، أو رابطًا، أو قصة، أو مزاحًا فاحشًا، فيصل إلى عدد كبير في لحظات.

وهنا لا يبقى الذنب خاصًا بصاحبه، بل يتحول إلى باب لإفساد غيره.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

فإذا كان مجرد حب إشاعة الفاحشة له هذا الوعيد، فكيف بمن يشارك في نشرها، أو يدل عليها، أو يسهل الوصول إليها، أو يجعلها مألوفة في أعين الناس؟

وقال تعالى:

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿سورة المائدة﴾

ومن التعاون على الإثم نشر أسباب الفاحشة ومقدماتها، أو تداول ما يثير الشهوة، أو يفتح الأبواب التي توصل الناس إلى ما حرم الله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَن دعا إلى هُدًى كان له مِن الأجرِ مِثْلُ أجورِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن أجورِهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه مِن الإثمِ مِثْلُ آثامِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن آثامِهم شيئًا» رواه مسلم وأحمد

فمن أرسل إلى غيره بابًا من أبواب الفاحشة، أو زينه له، أو أعانه على الوصول إليه، حمل من الإثم بقدر أثره في غيره، وإن ظن أن الأمر مجرد مشاركة أو مزاح.

ثامنًا: حماية البيوت من دخول الفتنة

البيت في الإسلام موضع السكن الستر والحياء، فإذا دخلت إليه الفاحشة من خلال الأجهزة والشاشات، ضعف أثر البيت، وصار داخله من الفتن ما قد يكون أشد من خارجه.

فقد يكون البيت مغلق الأبواب، لكن مفتوح النوافذ على كل فتنة عبر الإنترنت.

قال تعالى:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ﴿سورة الأحزاب﴾

وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ ﴿سورة النحل﴾

فالبيت موضع سكن وطمأنينة، وليس موضعًا لإدخال ما يفسد القلب والحياء.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ ﴿سورة النور﴾

وهذه الآية تدل على عناية الشرع بخصوصية البيت وحفظ العورات والحياء، فإذا كان الشرع أمر بالاستئذان داخل البيت، فكيف يليق أن تكون الشاشات متروكةً للصغار والكبار تكشف لهم ما يهتك الحياء ويفسد الفطرة؟

ومن فتح على نفسه باب الفتنة لم يأمن أن يسلبه الله العافية

والهاتف المفتوح على كل شيء بابُ فتنة عظيم، لا سيما في البيوت التي غاب عنها الوعي والضبط والمراقبة.

تاسعًا: حفظ الوقت

من مداخل الفاحشة في الهاتف والإنترنت طول الفراغ، وكثرة التصفح، والتنقل بلا هدف.

فالإنسان إذا طال بقاؤه أمام الشاشات بلا حاجة، كثرت عليه الخواطر، وضعفت مراقبته، وتعرض للفتن التي لم يكن يبحث عنها في أول الأمر.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«نِعمَتانِ مَغبونٌ فيهما كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ والفَراغُ» رواه البخاري
والفراغ مع الهاتف من أخطر صور النقص والخداع في هذا العصر؛ لأن الوقت لا يضيع فقط، بل قد يضيع معه القلب والبصر والحياء.
قال تعالى:
﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ ﴿سورة الشرح﴾
فالمؤمن لا يجعل فراغه مرتعًا للهوى، ولا يترك وقته مفتوحًا لكل ما يعرض عليه، لأن الفراغ إذا لم يُحرس صار طريقًا للغفلة والشهوة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«من حُسنِ إسلامِ المرءِ تركُه ما لا يَعنيهِ» رواه الترمذي وابن ماجه
وكثير مما يراه الإنسان ويسمعه ويتابعه في الهاتف لا يعنيه، بل يضره، ويضعف قلبه، ويقربه من الحرام، ويجره إلى فضول النظر والكلام.
قال ابن الجوزي رحمه الله:
ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه وقدر وقته، فلا يضيع منه لحظة في غير شيء نافع.
فكيف إذا لم يكن الضياع مجرد وقت، بل وقتًا يصاحبه نظر محرم، أو محادثة فاسدة، أو غفلة عن الله؟

عاشرًا: ضعف سلطان الشيطان

الشيطان يدخل على الإنسان من الأبواب المفتوحة، فإذا وجد بابًا قريبًا سهلًا متكررًا استعمله لإضعاف القلب. والهاتف المفتوح بلا حدود قد يكون من أعظم هذه الأبواب، لأنه يجمع بين الخلوة، والفراغ، والصورة، والكلمة، والصحبة، والسرعة، وسهولة الإخفاء.
قال تعالى:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿سورة فاطر﴾

ومن اتخاذه عدوًا أن لا يُترك له الطريق ممهدًا إلى القلب، وألا تُفتح له أبواب الخلوة والنظر والمحادثة بلا رادع.

قال تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿سورة الأعراف﴾

فالشيطان يترصد مواضع الضعف، ويعرف متى يكون العبد وحده، ومتى يكون فارغًا، ومتى يكون متعبًا أو حزينًا أو ضعيف الإرادة، فيفتح عليه من أبواب الهاتف ما يفسد قلبه.

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ الشَّيطانَ يجري من ابنِ آدمَ مجرَى الدَّمِ» متفق عليه

فإذا كان الشيطان بهذه الملازمة، احتاج العبد إلى قطع الطرق التي يقوى بها عليه، ومن ذلك تضييق أبواب الفتنة التي تتكرر عليه صباحًا ومساءً.

حادي عشر: حفظ القلب من المقارنة والاضطراب

الهاتف والإنترنت لا يقدمان الفاحشة في صورة محرمة فقط، بل يقدمان معها صورًا مزيفة عن الجسد والجمال والعلاقات والحياة.

وهذا يورث القلب مقارنة واضطرابًا وعدم الرضا بما أحل الله، ويشوه صورة الزواج والعفة والستر.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿سورة طه﴾

ومدُّ العين إلى ما عند الناس يفسد الرضا، وإذا كان هذا في متاع الدنيا عمومًا، فهو في باب الصور والشهوات أشد خطرًا على القلب.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾
والإنترنت يزيد هذا التزيين بتكرار الصور، وتحسين الباطل، وإظهار العلاقات المحرمة في صورة جذابة، حتى يظن الضعيف أن الحرام أجمل من الحلال
والله تعالى يقول: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ ﴿سورة فاطر﴾
ومن أخطر آثار كثرة المشاهدة أن القبيح يصير في نظر صاحبه حسنًا، وأن الفاحشة تظهر في صورة الحرية، والعفة تظهر في صورة الحرمان، وهذا انقلاب في موازين الشرع والعقل.

ثاني عشر: تضييق الوصول من مسؤولية الأسرة

لا يجوز أن تترك الأسرة أبناءها وبناتها بلا توجيه ولا ضبط في عالم مفتوح يختلط فيه الحق بالباطل، والطهر بالفاحشة، والعلم بالشبهة، والنفع بالفساد. فالأجهزة ليست أشياء صامتة، بل أبواب يدخل منها أصحاب الأفكار والشهوات والصور والمؤثرات.
قال تعالى:
﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ﴿سورة طه﴾
فكما أن الأسرة مأمورة برعاية الصلاة، فهي مأمورة برعاية أسباب حفظ الدين، ومن أعظمها في هذا العصر ضبط ما يدخل إلى الأبناء عبر الهواتف والشاشات.

عن الحسن رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّ اللهَ سائلٌ كلَّ راعٍ عمَّا استرعاه: أحفِظ أم ضيَّع حتَّى يسأَلَ الرَّجلَ عن أهلِ بيتِه» رواه ابن حبان
والرعاية ليست طعامًا وكسوة وتعليمًا دنيويًا فقط، بل حفظٌ للدين والخلق والحياء.

عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«ما مِنْ عبدٍ يسترْعيه اللهُ رعيَّةً، يموتُ يومَ يموتُ، وهوَ غاشٌّ لرعِيَّتِهِ، إلَّا حرّمَ اللهُ عليْهِ الجنَّةَ» متفق عليه

ومن الغش للرعية أن تُترك قلوبهم للفتن، وأن نظن أن الحرية المطلقة في الهاتف والإنترنت لا أثر لها، مع ظهور أثرها في اللسان والحياء والصلاة والعلاقات والأفكار.

والأبوان مسؤولان عن أولادهما في تأديبهم وتعليمهم ما يحتاجون إليه من أمر دينهم، وفي زمن الأجهزة هذه المفتوحة، صار من أعظم ما يحتاجه الأبناء أن يعرفوا حدود الله فيما يرون ويسمعون ويرسلون ويستقبلون.

ثالث عشر: حفظ خصوصية المرأة والرجل والبيت

من آثار الفاحشة المعاصرة أنها كسرت كثيرًا من حواجز الستر، فجعلت الصور الشخصية، والتفاصيل الخاصة، والمحادثات، والمشاهد، قابلة للانتشار في لحظة.

والهاتف إذا لم يُضبط قد يكون بابًا لهتك الستر، أو نشر الأسرار، أو التهاون بالخصوصيات، أو الوقوع في الابتزاز والفضيحة.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿سورة الحجرات﴾

وعن مسلمة بن مخلد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«من ستر مسلمًا في الدنيا ستره اللهُ في الدنيا والآخرةِ» رواه أحمد

والفاحشة الرقمية كثيرًا ما ترتبط بكشف الستر، أو تبادل ما لا يجوز، أو نشر ما يجب أن يبقى مصونًا.

ومن فتح هذا الباب على نفسه أو غيره لم يأمن أن تنقلب المعصية فضيحة، وأن يصير ما كان سرًا بينه وبين جهازه بلاءً عليه في دينه ودنياه.

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«يا معشرَ من أسلمَ بلسانهِ ولم يُفضِ الإيمانُ إلى قلبهِ، لا تُؤذُوا المسلمينَ ولا تُعيّروهُم ولا تَتّبعوا عوراتهِم، فإنه من يتبِعْ عورةَ أخيهِ المسلمِ تتبعَ اللهُ عورتَهُ، ومن يتبعِ اللهُ عورتهُ يفضحْه ولو في جوفِ رحلهِ» رواه الترمذي

والهاتف قد يكون أداة لتتبع العورات، أو حفظ الصور، أو نشر الأسرار، أو الدخول في خصوصيات الناس، وكل ذلك من أبواب الفساد التي تضاد الستر والحياء.

رابع عشر: منع التدرج إلى الإدمان

من أعظم مخاطر الهاتف والإنترنت في باب الفاحشة أن الطريق فيهما متدرج ومتكرر.

فالإنسان يبدأ بفضول، ثم مشاهدة عابرة، ثم بحث، ثم اعتياد، ثم تعلق، ثم إدمان، ومن ثم يضعف سلطان القلب حتى يصير العبد مقهورًا أمام ما كان في أول الأمر يظنه يسيرًا.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ ﴿سورة ص﴾

وقال عز وجل:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿سورة الجاثية﴾

وإذا صار الهوى قائدًا لصاحبه، لم يعد ينظر إلى الحكم الشرعي بوضوح، بل يبحث عما يشبع شهوته، ولو كان يعلم أنه يضره.

قال ابن القيم رحمه الله:

الصبر عن الشهوة أيسر من الصبر على ما توجبه الشهوة

ومن ترك باب الهاتف مفتوحًا لكل شهوة، ظن أنه يطلب لذةً عابرة، ثم يجد بعد ذلك آثارًا أثقل من: قسوة، وندم، وتعلق، وضعف صلاة، وفساد خيال، وجرأة على الحرام.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«ألا وإنَّ لكلِّ ملكٍ حمًى، ألا وإنَّ حمى اللهِ محارمُه» متفق عليه

ومن ظل يحوم حول المواقع والحسابات والمحادثات المثيرة، لم يأمن أن يقع فيما هو أعظم، ولو ظن في نفسه القوة.

خامس عشر: حفظ العفة العامة

النية وحدها لا تحفظ العفة إذا تُركت أبواب الفتنة مفتوحة، بل يحتاج الإنسان إلى أسباب تحفظ القلب والمجتمع.

فإذا اتسع وصول الناس إلى الفاحشة عبر الهواتف والإنترنت بلا رادع ولا وعي، ضعفت العفة العامة، واعتاد الناس المنكر، وصار القبيح مألوفًا.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ﴿سورة المؤمنون﴾

وقال تعالى:

﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿سورة الأحزاب﴾

وحفظ الفرج لا ينفصل عن حفظ البصر، وحفظ السمع، وحفظ الخلوة، وحفظ الخاطر، وحفظ الوسائل التي تقود إلى الفتنة.

عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَن يَضمَنْ لي ما بينَ لَحيَيه وما بينَ رِجلَيه أضمَنْ له الجَنَّةَ»

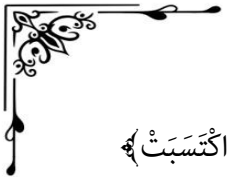
رواه البخاري

ومن أعظم أبواب النجاة حفظ اللسان والفرج ، ولكن الهاتف يجمع خطر اللسان والبصر والفرج والقلب في موضع واحد، ولذلك كان ضبطه من أعظم أسباب حفظ العفة.

قال تعالى:
﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ ﴿سورة النساء﴾
فالذين يتبعون الشهوات يريدون للناس الميل العظيم، ومن وسائل ذلك فتح الأبواب، وتسهيل الوصول، وتطبيع المشاهدة، وإضعاف الإنكار، حتى تميل القلوب عن الطهر والعفة.

سادس عشر: حفظ الخلوة

الخلوة موضع امتحان صدق الإيمان، وكثير من ذنوب الهاتف والإنترنت تقع في الخلوات، حين يغيب الناس، ويظن العبد أنه وحده، فمن ضيق على نفسه أبواب الحرام في خلوته، كان ذلك أقرب لحفظ قلبه من خيانة السر.
قال تعالى:﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿سورة الحديد﴾
وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ﴿سورة النساء﴾
وقال تعالى:
﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ ﴿سورة الحاقة﴾
فما يراه الإنسان في هاتفه، وما يكتبه، وما يمحوه، وما يخفيه عن الناس، لا يخفى على الله تعالى
سابع عشر: تضييق الوصول لا يناقض الانتفاع بالمباح
ليس كل استعمال للهاتف والإنترنت مذمومًا، فقد يُستعملان في القرآن الكريم والعلوم النافعة والدعوة الصالحة وصلة الأرحام والعمل النافع وقضاء الحوائج.
لكن الوسيلة التي تجمع الخير والشر لا تترك بلا ميزان، بل يفتح منها باب الخير، ويغلق منها باب الشر، ويؤخذ منها النافع، ويدفع منها الضار.
قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ﴿سورة التغابن﴾



وقال تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾

﴿سورة البقرة﴾

والمقصود أن يستعمل الإنسان الوسائل بقدر حاجته ونفعه، لا أن يجعلها بابًا مفتوحًا على قلبه بلا حدود.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«احرِص على ما ينفعُكَ واستعِن باللَّهِ ولا تعجِزْ» رواه مسلم

فمن الحرص على ما ينفع أن يأخذ الإنسان من الهاتف والإنترنت حاجته النافعة، وأن يحذر مما يضره في دينه وقلبه وعفته.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا ضَررَ ولا ضِرارَ» رواه ابن ماجه

فإذا ظهر ضرر الهاتف أو الإنترنت على دين الإنسان أو حيائه أو صلاته أو قلبه أو أسرته، كان تضييق هذا الضرر داخلًا في معنى دفع الضرر، لا في معنى التشدد المذموم.

ثامن عشر: تضييق الوصول علامة في حفظ الدين

من صدق في حفظ دينه لم يترك أبواب الفتنة مفتوحة له ثم يشكو من ضعف قلبه، لأن الإنسان إذا عرف موضع ضعفه وجب عليه أن يحذر منه، ومن علم بابًا يجره إلى الحرام فليس من العقل أبدًا ولا الدين أن يداوم الوقوف عنده.

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

﴿سورة العنكبوت﴾

وتضييق أبواب الفتنة في الهاتف والإنترنت من المجاهدة؛ لأنه مخالفة للهوى، وحفظ للقلب، وإغلاق لطريق اعتاد الشيطان الدخول منه.

قال تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿سورة النازعات﴾

فمن خاف مقام ربه لم يترك نفسه لكل ما تهوى، بل منعها عما يفسدها، ولو كان قريبًا وسهلًا ومتاحًا.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا

ومن محاسبة النفس في هذا العصر أن ينظر العبد: ماذا يدخل إلى قلبه من هاتفه؟ وماذا يرى؟ وماذا يكتب؟ وماذا يتابع؟ وهل زاده ذلك قربًا من الله أو جرأة على حدود الله؟

قال ابن الجوزي رحمه الله:

من تفكر في عواقب الدنيا أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر

ومن تفكر في عاقبة إطلاق الهاتف والإنترنت بلا ضبط، علم أن أول الأمر فضول، وآخره قد يكون فتنة في الدين، وجرأة على الحرام، وضعفًا في الحياء، ومرضًا في القلب.

باب إشغال الوقت

الوقت رأس مال العبد، وميدان عمله، ووعاء عمره، فإذا شغله العبد بالطاعة والخيرات صار سببًا للنجاة والرفعة، وإذا تركه للفراغ والغفلة صار بابًا للفتنة والانحراف. وكثير من أبواب الفاحشة لا تنفتح على الإنسان من قوة الشهوة وحدها، بل من فراغ القلب والوقت، فإذا اجتمع الفراغ مع الهاتف، والخلوة، وضعف المراقبة، وجد الشيطان بذلك طريقًا سهلًا إلى النفس. ومن أعظم العلاج أن يملأ العبد وقته بما ينفعه في دينه ودنياه، لكي لا يبقى للباطل موضع يتمدد وينتشر فيه.

أولًا: السؤال عن نعمة الوقت

العمر نعمة كبرى، والعبد مسؤول عنه: فيم أفناه؟ وبماذا ملأ أيامه وساعاته؟

قال تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿سورة المؤمنون﴾

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ﴿سورة التكاثر﴾

وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تَزولُ قَدَمَا عَبْدٍ يومَ القيامةِ، حتَّى يُسأَلَ عن عُمُرِه؛ فيمَ أفناه؟ وعن عِلْمِه؛ فيم فعَلَ فيه؟ وعن مالِه؛ من أين اكتسَبَه؟ وفيم أنفَقَه؟ وعن جِسمِه؛ فيمَ أبلاه؟» رواه الترمذي والدارمي والبيهقي

فالوقت ليس شيئًا زائدًا على الحياة، بل هو الحياة نفسها، ومن ضيع وقته فقد ضيع جزءًا من عمره الذي لا يعود.

قال الحسن البصري رحمه الله:

يا ابن آدم، إنما أنت أيام، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك

ثانيًا: فتنة الفراغ

إذا لم يُمتلأ الفراغ بالحق امتلأ بالباطل، وإذا لم يُستثمر في النافع صار طريقًا للخواطر والشهوات والوساوس.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ منَ النَّاسِ الصِّحَّةُ والفراغُ» رواه البخاري

والمغبون هو الذي يملك النعمة ثم لا ينتفع بها كما ينبغي، فيخسرها دون أن يشعر.

وقال بعض السلف:

نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

وقال ابن القيم رحمه الله:

من أعظم أسباب فساد القلب أن يكون خاليًا من الاشتغال بما ينفعه، فإن القلب إذا خلا من الحق اشتغل بضده.

والفراغ ليس راحة دائمة، بل قد يشكل خطرًا على العبد إذا خلا من الذكر والعمل والصحبة الصالحة.

ثالثًا: استغلال الشيطان للفراغ والغفلة

الشيطان يفتش عن لحظات الغفلة والكسل والخلوة، فإذا وجد قلبًا فارغًا ووقتًا خاليًا ووسيلة قريبة، زين للعبد المعاصي وسهل له طريقها.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿سورة النور﴾

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿سورة فاطر﴾

وقال تعالى:

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ ﴿سورة الأعراف﴾

فالفراغ الطويل مع الغفلة من أعظم مسالك الشيطان، ولهذا كان إشغال الوقت بالنافع قطعًا لطريقه، وإغلاقًا لبابٍ عظيمٍ من أبواب المعاصي والفتن.

رابعًا: العمل الصالح يطرد أثر المعصية

من ملأ وقته بالطاعات قلت عليه دوافع المعاصي، ومن أكثرَ من الحسنات أذهب الله بها آثار السيئات.

قال تعالى:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ ﴿سورة هود﴾

وقال سبحانه:

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اتَّقِ اللهَ حيثُما كنتَ ، وأتبِعِ السَّيِّئةَ الحسَنةَ تَمْحُهَا ، وخالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسنٍ» رواه الترمذي وأحمد

وليس العلاج أن يترك الإنسان الذنب فقط، ثم يبقى فارغًا، بل يستبدل الفراغ بعمل الطاعات، والأعمال النافعة، والأهداف الصالحة؛ لأن القلب لا يثبت على الترك إلا إذا ذاق لذة البديل الحلال.

قال ابن القيم رحمه الله:

من ترك محبوبًا ولم يعوض عنه محبوبًا أعلى منه رجع إليه أو إلى ما يشبهه

خامسًا: إشغال القلب قبل الجوارح

ليس المقصود إشغال الجسد وحده، بل إشغال القلب بما ينفع؛ لأن القلب إذا فرغ من ذكر الله امتلأ بالخواطر الرديئة السيئة، وإذا عُمِر بالإيمان والذكر ضعفت عليه الشهوة.

قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ﴿سورة الرعد﴾

وقال سبحانه:

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ ﴿سورة الكهف﴾

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ الذي يَذكُرُ رَبَّه والذي لا يَذكُرُ رَبَّه مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ» متفق عليه

فالقلب الحي بالذكر أقل استجابة للفتنة، وأسرع رجوعًا إذا زل، وأشد نفورًا من الحرام.

قال ابن تيمية رحمه الله:

الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟

سادسًا: خطر الفراغ الرقمي المعاصر

كان الفراغ قديمًا يعني الجلوس بلا عمل، أما اليوم فقد صار الفراغ يُقضى أمام الشاشات، وينتقل الإنسان فيه من مقطع إلى مقطع، ومن صفحة إلى صفحة، حتى تضعف إرادته، وتكثر خواطره، وتُفتح عليه أبواب الشهوة والشبهات والفتن.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ﴿سورة غافر﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«العينان تزنيان وزناهما النَّظرُ» متفق عليه
فالوقت الذي يُترك للهاتف بلا هدف يتحول في الأغلب إلى باب نظر محرم، أو محادثة فاسدة، أو تعلق، أو فضول لا ينفع، ولذلك كان ضبط وقت الهواتف والشاشات من أعظم وسائل حفظ العفة.

سابعًا: تنظيم اليوم

من يعيش بلا نظام يسهل على الفراغ أن يبتلعه، أما من جعل ليومه وردًا من الصلاة والقرآن والعمل والرياضة والتعلم وصلة الرحم، ضاقت عليه مساحة الفتنة.

قال تعالى:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ ﴿سورة الشرح﴾

وقال ابن كثير رحمه الله في معناها:

إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها، فانصب في العبادة، وإلى ربك فارغب

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«احرِص على ما ينفعُكَ واستعِن باللَّهِ ولا تعجِزْ» رواه مسلم

وهذه قاعدة عظيمة: الحرص على النافع، والاستعانة بالله، وترك العجز والكسل. ومن طبق هذه القاعدة في يومه قلت عليه أبواب الفتنة والمعصية.

ثامنًا: الصحبة الصالحة تعين على حفظ الوقت

الإنسان يتأثر بمن يجالس، فإذا صاحب العبد أهل الفراغ والغفلة ضاع وقته معهم، وإذا صاحب أهل الخير نشط للطاعة والعلم النافع.

قال تعالى:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ﴿سورة الكهف﴾

وقال سبحانه:
﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿سورة الزخرف﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«المرءُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ» رواه أبو داود والترمذي

فالصاحب الصالح يعينك على حفظ وقتك، ويذكرك إذا غفلت، ويجذبك إلى ما يرفعك، أما صاحب الغفلة فيجرك إلى ضياع الساعات والأيام والسنوات وإلى الفتن والمعاصي.

تاسعًا: وسائل الوقاية المباحة

ليست كل الوقاية في العبادة فقط، بل يدخل فيها كل مباح نافع يقوي البدن، ويهذب النفس، ويصرف الطاقة عن الحرام.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللهِ من المؤمنِ الضعيفِ وفي كلٍ خيرٌ» رواه مسلم

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«احرِص على ما ينفعُكَ واستعِن باللَّهِ ولا تعجِزْ» رواه مسلم

فالرياضة المباحة، وتعلم المهارات، والعمل الجاد، وخدمة الأهل، وصلة الرحم، والمشاركة في أعمال الخير، كلها مما يعين على تفريغ الطاقة في النافع، ويمنع تكدس الفراغ الذي تستغله الشهوة.

قال بعض أهل العلم:

المباح إذا صلحت فيه النية صار قربة.

عاشرًا: اغتنام الشباب قبل الهرم

مرحلة الشباب أقوى مراحل الشهوة والطاقة، ولذلك كان من أعظم العلاج أن تُوجَّه هذه القوة إلى ما ينفع العبد والأمة، لا أن تُترك للفراغ والعبث.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه:
« اغتنِمْ خمسًا قبل خمسٍ : شبابَك قبل هَرَمِك، وصِحَّتَك قبل سَقَمِك، وغناك قبل فقرِك، وفراغَك قبل شُغلِك، وحياتَك قبل موتِك» رواه الحاكم

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله:
«وشابٌّ نَشَأَ في عِبادةِ اللهِ» متفق عليه
فالشاب الذي يغالب نفسه، ويحفظ وقته، ويملأ يومه بما يرضي الله، له عند الله منزلة عظيمة؛ لأنه جاهد في وقت قوة الدافع فيه شديدة للشهوة.

حادي عشر: تخطيط الوقت

من يخطط لوقته خططت له شهوته
ومن ترك اليوم بلا هدف أصبح تابعًا لما يعرض له: مقطع هنا، ومحادثة هناك، وخلوة طويلة، ونوم زائد، ثم فتن لا تحصى.
أما صاحب الهدف فيعرف أين يذهب وقته.
قال تعالى:
﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿سورة الحشر﴾
وقال سبحانه:
﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ﴿سورة العصر﴾
قال الشافعي رحمه الله:
لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم
فكل إنسان في خسران إلا من ملأ عمره بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والصبر.

ثاني عشر: إشغال الوقت بعد التوبة

من تاب من فاحشة معينة أو إباحية أو علاقة محرمة، فلا بد أن يملأ الفراغ الذي كان يشغله الذنب، وإلا عادت النفس تبحث عن الطريق القديم.

قال تعالى:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿سورة الفرقان﴾

وقال سبحانه:

﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿سورة المائدة﴾

فالتوبة الصادقة لا تقتصر على ترك المعصية، بل تحتاج إلى إصلاح الواقع، وتغيير العادات، وبناء برنامج يومي جديد.

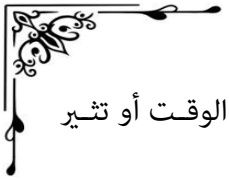
قال ابن القيم رحمه الله:

التوبة النصوح تقتضي مفارقة الذنب وأسبابه، والاشتغال بضده من الطاعات.

ثالث عشر: وسائل عملية نافعة

من الوسائل النافعة في هذا الباب:

- تثبيت أوقات الصلاة في أول اليوم وجعلها أعمدة الجدول.
- تخصيص ورد يومي من القرآن، ولو قليلًا.
- تخصيص وقت ثابت لطلب العلم الشرعي.
- ممارسة رياضة مباحة منتظمة.
- تعلم مهارة نافعة أو حرفة أو لغة.
- تقليل وقت الهاتف، ووضع حدود واضحة لاستخدامه.



- حـذف التطبيقـات والحسـابات التـي تضـيع الوقـت أو تثـير الشهوة.
- شغل أوقات الخلوة بعمل محدد لا بفراغ مفتوح.
- ملازمة الصحبة الصالحة والأنشطة النافعة.
- خدمة الوالدين والأهل والمشاركة في أعمال الخير.
- النوم المبكر قدر المستطاع؛ لأن السهر بابٌ واسعٌ للفتنة.
- كتابة أهداف أسبوعية ومحاسبة النفس عليها.

قال تعالى:

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الكَيِّسُ مَن دان نفسَه وعمِل لما بعدَ الموتِ والعاجِزُ مَن أتبَع نفسَه هَواها وتمنَّى على اللهِ الأمانِيَّ» رواه الترمذي وأحمد

والعاقل لا ينتظر الفتنة حتى تهجم عليه، بل يسبقها بعمل نافع، ووقت منظم، وقلب مشغول بطاعة الله عز وجل.

باب الصحبة الصالحة

الإنسان يتأثر بمن يخالط ويجالس، ويتشرب من أخلاق أصحابه وأفكارهم وعاداتهم، حتى يصيرَ كثيرٌ من سلوكه انعكاسًا للبيئة التي يعيش فيها. ومن أعظم أسباب الثبات على العفة والنجاة من الفاحشة: اختيار الصحبة الصالحة التي تذكر بالله، وتعين على الطاعة، وتنهى عن المنكر، وتحفظ القلب من الانزلاق. كما أن من أعظم أسباب السقوط: صحبة السوء التي تزين الحرام، وتكسر الحياء، وتهون الفاحشة، وتجر صاحبها خطوة بعد خطوة إلى مواطن الهلاك.

أولًا: أثر الصحبة في الدين والسلوك

بين النبي ﷺ أن الصاحب ليس أمرًا هينًا في حياة الإنسان، بل له أثرٌ مباشرٌ في دينه وخُلقه واتجاهه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«المرءُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ» رواه أبو داود والترمذي

وهذا الحديث أصل عظيم في اختيار الصحبة؛ لأن الإنسان قد يبدأ مستقلًا في رأيه، ثم لا يلبث أن يتأثر بكلام صاحبه، ونظراته، ومزاحه، وعاداته، وما يهونه أو يعظّمه.

قال الخطابي رحمه الله:

لا تخالل إلا من رضيت دينه وأمانته، فإنك إذا خاللته قادك إلى دينه ومذهبه

ثانيًا: الأمر بملازمة أهل الخير

أمر الله نبيه ﷺ أن يصبر نفسه مع أهل الإيمان والذكر، وهذا بيانٌ وتوجيهٌ للأمة كلها إلى لزوم صحبة الصالحين.

قال تعالى:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ﴿سورة الكهف﴾

وقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿سورة التوبة﴾

فمن أراد التقوى فليبحث عن الصادقين، ومن أراد العفة فليصبر نفسه مع من يعينه عليها.

قال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى:

﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: أي الزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك.

والصحبة الصالحة من أعظم ما يعين العبد على لزوم الصدق مع الله ومع نفسه.

وقال علي رضي الله عنه:

وصاحب تقيا عالما تنتفع به .... فصحبة أهل الخير ترجى وتطلب
وإياك والفساد لا تصحبنّهم .... فصحبتهم تعدي وذاك مجرب
واحذر مؤاخاة الدنيء فإنه .... يعدي كما يعدي الصحيح الأجرب
واختر صديقك واصطفيه تفاخرا .... إن القرين إلى المقارن ينسب

ثالثًا: الصحبة الصالحة تقوي الإيمان

الصالحون إذا جالستهم ذكَّروك بالله، وإذا ضعفت أعانوك، وإذا غفلت نبهوك، وإذا زللت لم يفضحوك بل ينصحوك.

قال تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ﴿سورة العصر﴾

وقال سبحانه:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿سورة التوبة﴾

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«المُؤْمِنَ للمؤمنِ كالبُنْيانِ يشدُّ بَعضُهُ بعضًا» متفق عليه

فالصديق الصالح ليس مجرد رفيق وقت، بل عون على النجاة، وسند في لحظات الضعف، ومرآة تريك عيبك قبل أن يستحكم فيك.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

رحم الله امرأً أهدى إليَّ عيوبي

رابعًا: صحبة السوء باب إلى الفاحشة

كثير من الفواحش لا تبدأ من شهوة مجردة، بل تبدأ من صديق يهون النظر، أو يرسل مقطعًا، أو يفتح باب علاقة، أو يضحك من الحياء، أو يسخر من العفة، حتى يضعف القلب تدريجيًا.

قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ ﴿سورة الفرقان﴾

وهذه الآيات تصور ندمًا عظيمًا يوم القيامة، حين يكتشف الإنسان أن بعض من كان يظنه صديقًا كان سببًا في ضياعه.

قال ابن كثير رحمه الله:

كل خليل وصاحب على غير طاعة الله، فإن خلته تنقلب يوم القيامة عداوة.

خامسًا: الصديق إما حامل المسك أو نافخ الكير

ضرب النبي ﷺ مثلًا عظيمًا لأثر الصديق الصالح وصديق السوء.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّما مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ ، وجَلِيسِ السُّوءِ ، كَحامِلِ المِسْكِ، ونافِخِ الكِيرِ، فَحامِلُ المِسْكِ، إِمَّا أَنْ يَحْذِيَكَ، وإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، ونافِخُ الكِيرِ، إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيابَكَ، وإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»

متفق عليه

فالصحبة الصالحة لا بد أن ينالك منها خير، وإن لم تشعر، وصحبة السوء لا بد وأن ينالك منها شر، ولو ظننت أنك ثابت.

قال النووي رحمه الله:

في الحديث فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق، والنهي عن مجالسة أهل الشر والبدع والغيبة وكثرة الفجور والبطالة.

سادسًا: الصالحون يعينون على العفاف

من صفات الصحبة الصالحة أنها لا تفتح لك باب الحرام، ولا تجرك إلى مواطن الشبهة، ولا تزيّن لك النظر أو الكلام أو العلاقات المحرمة.

قال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

وقال سبحانه:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ﴿سورة النور﴾

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تُصاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، ولا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ» رواه أبو داود

فالذي يضحك من غض البصر، أو يهون العلاقات المحرمة، أو ينشر الإباحية، أو يجر صاحبه إلى قلة الحياء، والصلابة في ارتكاب المعاصي أو الأقوال دون مبالاة،فهذا ليس رفيق نجاة، بل باب لفتن عظيمة.

سابعًا: الصديق الصالح حماية من العزلة الفاسدة

العزلة الطويلة بلا طاعة مدخلٌ للشهوةِ، خاصةً في زمن الهاتف والإنترنت.

والصحبة الصالحة تخرج الإنسان من فراغه، وتشغله بما ينفع، وتجعله يعيش في بيئة تذكره بطريق الله.

قال تعالى:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ﴿سورة الكهف﴾

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«عليكم بالجماعةِ، وإيَّاكم والفُرقَةَ؛ فإنَّ الشَّيطانَ معَ الواحدِ، وهو منَ الاثنَينِ أبعَدُ، مَن أراد بحبوحةَ الجنَّةِ فلْيلزَمِ الجماعةَ، ومَن سرَّتْه حسنتُه وساءَتْه سيِّئتُه فذلك المؤمنُ» رواه الترمذي وأحمد

ومعنى ذلك ظاهر في باب الفاحشة؛ فإن الإنسان إذا انفرد كثيرًا، وضعف قلبه، وسهل وصوله إلى أسباب الحرام، كان أحوج إلى صحبة تخرجه من دائرة الضعف.

قال بعض السلف:

استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعة، فلعلك تدخل في شفاعة أخيك.

ثامنًا: الصحبة الصالحة تعين على التوبة

من تاب من الفاحشة أو الإباحية أو العلاقات المحرمة، فهو أحوج ما يكون إلى رفقة جديدة تعينه على الثبات، لأن الرجوع إلى نفس الصحبة القديمة قد يعيده إلى نفس الذنب.

قال تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿سورة التوبة﴾

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كانَ فيمَن كانَ قَبلكم رَجُلٌ قَتَلَ تِسعةً وتِسعينَ نَفسًا، فسَألَ عن أعلَمِ أهلِ الأرضِ فدُلَّ على راهِبٍ، فأتاه فقال: إنَّه قَتَلَ تِسعةً وتِسعينَ نَفسًا، فهل له مِن تَوبةٍ؟ فقال: لا، فقَتَلَه، فكَمَّلَ به مِئةً، ثُمَّ سَألَ عن أعلَمِ أهلِ الأرضِ، فدُلَّ على رَجُلٍ عالِمٍ، فقال: إنَّه قَتَلَ مِئةَ نَفسٍ، فهل له مِن تَوبةٍ؟ فقال: نَعَم، ومَن يَحولُ بينَه وبينَ التَّوبةِ؟ انطَلِقْ إلى أرضِ كَذا وكَذا؛ فإنَّ بها أُناسًا يَعبُدونَ اللهَ، فاعبُدِ اللهَ معهُم، ولا تَرجِعْ إلى أرضِك؛ فإنَّها أرضُ سَوءٍ، فانطَلَقَ حتَّى إذا نَصَفَ الطَّريقَ أتاه المَوتُ، فاختَصَمَت فيه مَلائِكةُ الرَّحمةِ ومَلائِكةُ العَذابِ، فقالت مَلائكةُ الرَّحمةِ: جاءَ تائبًا مُقبِلًا بقَلبِه إلى اللهِ، وقالت مَلائِكةُ العَذابِ: إنَّه لَم يَعمَلْ خَيرًا قَطُّ، فأتاهم مَلَكٌ في صورةِ آدَميٍّ، فجَعَلوه بينَهم، فقال: قيسوا ما بينَ الأرضَينِ، فإلى أيَّتِهما كانَ أدنى فهو له، فقاسوه فوجَدوه أدنى إلى الأرضِ التي أرادَ، فقَبَضَتْه مَلائِكةُ الرَّحمةِ. قال قَتادةُ: فقال الحَسَنُ: ذُكِرَ لَنا أنَّه لَمَّا أتاه المَوتُ نَأى بصَدرِه» متفق عليه

فدل الحديث على أن تغيير البيئة والصحبة من أعظم أسباب صدق التوبة وثباتها.

وقال ابن رجب رحمه الله:

فيه أن التائب ينبغي له مفارقة المواضع التي أصاب فيها الذنوب، ومفارقة من كان يعينه عليها.

تاسعًا: معايير اختيار الصاحب

ليس كل من كان لطيف الكلام أو قريب السن يصلح أن يكون صاحبًا. الصاحب الذي يُختار للعشرة القريبة ينبغي أن تظهر عليه علامات الخير.

ومن علامات الصاحب الصالح:

- يذكرك بالله ولا يجرك إلى الغفلة.
- يعظم ما حرم الله.
- لا يهون الفاحشة ولا مقدماتها.
- يعينك على الصلاة والقرآن.
- ينصح في الخطأ ولا يفضح.
- يحفظ السر ولا يستعمل ضعفك ضدك.
- يدفعك إلى النافع لا إلى الفراغ.
- يستحيي من المنكر ولا يجاهر به.
- يحب لك النجاة لا المتعة العابرة.
- إذا رأى منك ضعفًا ردك إلى الله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«المرءُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ» رواه أبو داود والترمذي

وكلمة فلينظر دليلٌ على التأمل والاختيار، لا الصحبة العشوائية.

عاشرًا: الصحبة الرقمية

في هذا العصر لم تعد الصحبة مقتصرة على الجلوس المباشر، بل صار الإنسان يصاحب حسابات وقنوات ومجموعات ومؤثرين، وقد يتأثر بمن لا يعرفه أكثر من تأثره بمن يراه.

قال تعالى:
﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾
وقال سبحانه:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿سورة النور﴾
ومن يتابع حسابات تنشر التبرج، أو الإباحية، أو العلاقات المحرمة، أو السخرية من الدين، فقد أدخل إلى قلبه صحبة فاسدة ولو لم يجالس أصحابها.
قال أهل العلم:
النظر في كتب أهل الباطل ومجالستهم كلاهما يورث القلب من شبهاتهم بقدر ما يخالطهم.
وفي زماننا يدخل في ذلك المحتوى المرئي والمسموع، فإن القلب يتأثر بما يتكرر عليه.

حادي عشر: مفارقة صحبة السوء عبادة

قد تكون مفارقة صديق سوء مؤلمة في البداية، لكنها من أعظم القربات إذا كانت لله، ومن أعظم أسباب النجاة.
قال تعالى:
﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿سورة الأنعام﴾

وقال سبحانه:
﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ ﴿سورة النساء﴾

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:
«من التمس رِضا اللهِ بسخَطِ الناسِ ؛ رضِيَ اللهُ عنه ، وأرْضى عنه الناسَ ، ومن التَمس رضا الناسِ بسخَطِ اللهِ ، سخِط اللهُ عليه ، وأسخَط عليه الناسَ» رواه الترمذي وابن حبان

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجَدَ حلاوَةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مِمَّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المرْءَ لا يُحبُّهُ إلَّا للهِ، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفرِ بعدَ إذْ أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ؛ كَما يَكرَهُ أنْ يُلْقى في النارِ» متفق عليه
ومن ترك صاحب سوء خوفًا على دينه، عوضه الله خيرًا منه، حتى ولو شعر في البداية بوحدة أو غربة.

ثاني عشر: الصحبة الصالحة من أسباب محبة الله

المحبة في الله من أعظم الأعمال القلبية، وأهلها لهم منزلة عظيمة عند الله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«سَبعةٌ يُظِلُّهمُ اللهُ يَومَ القيامةِ في ظِلِّه يَومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه... وذكر منهم: ورَجُلانِ تَحابَّا في اللهِ» متفق عليه

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«قال اللهُ عزَّ وجلَّ وجبت محبتي للمتحابِّين فيَّ والمتجالسين فيَّ والمتزاورين فيَّ والمتباذلين فيَّ» رواه أحمد ومالك والطبراني
فالصحبة ليست مجرد منفعة دنيوية، بل عبادة قلبية عظيمة، إذا كانت قائمة على محبة الله، والتعاون على طاعته، والتواصي بالحق.

قال ابن القيم رحمه الله:
الاجتماع بالإخوان قسمان: أحدهما اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، والثاني الاجتماع بهم على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر، فهذا من أعظم الغنيمة.

ثالث عشر: أثر الصحبة في الثبات

من أراد الثبات بعد التوبة والعلاج، فلا بد أن يختار بيئة تعينه على طريقه الجديد؛ لأن القلب إذا خرج من بيئة الفاحشة ثم عاد إلى أصحابها، عاد إليه الحنين القديم.

قال تعالى:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ﴿سورة الكهف﴾

وقال سبحانه:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

﴿سورة العصر﴾

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما من ثلاثةٍ في قريةٍ ولا بَدوٍ لا تقامُ فيهمُ الصَّلاةُ إلَّا قدِ استحوذَ عليهمُ الشَّيطانُ فعليكَ بالجماعةِ فإنَّما يأكلُ الذِّئبُ القاصيةَ» رواه أبو داود والنسائي وأحمد

فالقاصي المنفرد أقرب إلى الخطر، وكذلك من ينفرد عن أهل الخير ويقترب من أهل الغفلة.

رابع عشر: كيف تبحث عن الصحبة الصالحة

الصحبة الصالحة تُطلب في مواضع الخير، لا في مواطن اللهو والفتنة.

ومن مواضعها:

- المساجد ومجالس العلم.
- حلقات القرآن.



- الأعمال الدعوية والخيرية.
- الصحبة المهتمة بطلب العلم.
- المجموعات النافعة المنضبطة.
- الرفقة التي تعين على الصلاة والصيام والرياضة النافعة والعمل.
- الأقارب الصالحون الذين يذكرونك بالله.
- أهل الخبرة والفضل ممن يحسنون النصيحة والستر.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إِنَّما مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ، وجَلِيسِ السُّوءِ ، كَحامِلِ المِسْكِ ، ونافِخِ الكِيرِ ، فَحامِلُ المِسْكِ، إِمَّا أنْ يَحْذِيَكَ ، وإِمَّا أنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ ، وإِمَّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، ونافِخُ الكِيرِ ، إِمَّا أنْ يَحْرِقَ ثِيابَكَ ، وإِمَّا أنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً» متفق عليه

فابحث عن حامل المسك، ولو قل، وابتعد عن نافخ الكير ولو كثر حولك؛ فإن رائحة الصاحب لا بد أن تعلق بالقلب.

باب الزواج

الزواج من أعظم أبواب العفة، وأقوى وسائل الوقاية من الفاحشة، لأنه يفتح للإنسان طريق الحلال، ويجمع بين السكن والمودة والرحمة، ويحفظ البصر والفرج، ويقيم الشهوة في موضعها الذي أباحه الله. ولهذا لم يجعل الإسلام علاج الشهوة في الكبت المطلق، ولا في إطلاقها بلا قيد، بل جعل لها طريقًا طاهرًا كريمًا تُحفظ به النفس، وتصان به الأسرة، ويُبنى به المجتمع على العفاف والاستقرار.

أولًا: الزواج آية من الله

جعل الله الزواج من آياته الدالة على حكمته ورحمته، لما فيه من السكن النفسي، والمودة، والرحمة، والأنس، والعفاف.

قال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿سورة الروم﴾

وقال سبحانه: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

فالزواج ليس مجرد إشباعِ شهوةٍ، بل سكنٌ وعفافٌ وسترٌ وقربٌ ومودةٌ ورحمةٌ.

واللباس يدل على الستر، والاحتواء، والاختصاص، والقرب، وهذا من أبلغ ما يبين منزلة العلاقة الزوجية في الإسلام.

قال ابن كثير رحمه الله في معنى قوله تعالى:

﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾: أي تألفوهن وتسكنوا إليهن

ثانيًا: الزواج طريق العفة وحفظ الفرج

أرشد النبي ﷺ الشباب إلى الزواج لأنه أغض للبصر وأحصن للفرج، وهذان هما أصل الوقاية من الفاحشة.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قال لَنا النَّبيُّ ﷺ:
«يا مَعشَرَ الشَّبابِ، مَنِ استَطاعَ منكمُ الباءةَ فليَتَزَوَّجْ، ومَن لم يَستَطِعْ فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّه له وِجاءٌ» متفق عليه

وهذا الحديث أصل عظيم في علاج الشهوة، فقد جعل النبي ﷺ الزواج أول طريقٍ لمن استطاع، لأنه يعالج أصل الدافع الفطري بطريق مشروع طاهر.

قال النووي رحمه الله:

فيه الأمر بالنكاح لمن استطاعه وطاقت نفسه إليه، وهذا مجمع عليه.

وقال ابن حجر رحمه الله:

قوله: أغض للبصر وأحصن للفرج، أي أشد إعانة على كف البصر وحفظ الفرج عن الحرام.

ثالثًا: الأمر بتيسير الزواج والإعانة عليه

لم يترك الإسلام الزواج شأنًا فرديًا فقط، بل أمر المجتمع والأسرة بالإعانة عليه، خاصة لمن كان محتاجًا إلى العفة.

قال تعالى:

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿سورة النور﴾

وهذه الآية أمرٌ للأولياء والمجتمع بتزويج من لا زوج له، ووعدٌ من الله بالغنى من فضله لمن قصد الحلال والعفة.

قال ابن كثير رحمه الله:

هذا أمر بالتزويج، وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :عجبت لمن لا يطلب الغنى في النكاح، وقد قال الله:

﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ ﴿سورة الزمر﴾

رابعًا: الزواج من سنن المرسلين

الزواج ليس أمرًا دنيويًا مجردًا، بل هو من هدي الأنبياء والمرسلين.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ﴿سورة الرعد﴾

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«إنَّ رهطًا من الصحابَةِ ذهبوا إلى بيوتِ النَّبيِّ يسألونَ أزواجَهُ عن عبادتِهِ فلمَّا أُخبِرُوا بها كأنَّهُم تقالُّوها أي : اعتبروها قليلةً ثُمَّ قالوا : أينَ نحنُ مِن رسولِ اللَّهِ و قد غَفرَ اللَّهُ له ما تقدَّمَ من ذنبِهِ و ما تأخَّرَ ؟ فقال أحدُهُم : أما أنا فأصومُ الدَّهرَ فلا أفطرُ و قال الثَّاني : و أنا أقومُ اللَّيلِ فلا أنامُ و قال الثَّالثُ : و أنا أعتَزِلُ النِّساءَ فلمَّا بلغ ذلك النَّبيَّ بيَّنَ لهم خطأَهم و عِوَجَ طريقِهِم و قال لهم : إنَّما أنا أعلمُكُم باللَّهِ و أخشاكم له و لكنِّي أقومُ و أنامُ وأصومُ و أفطِرُ و أتزوَّجُ النِّساءَ فمَن رغِبَ عن سُنَّتي فليسَ منِّي» متفق عليه

فالنبي ﷺ ردَّ على من ظن أن ترك الزواج أقرب إلى العبادة، وبيَّن أن كمال الدين ليس في مخالفة الفطرة، بل في ضبطها بشرع الله.

قال ابن حجر رحمه الله:

المراد بالسنة هنا الطريقة، لا السنة المقابلة للفرض، والمعنى: من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني.

خامسًا: الزواج يحفظ البصر

كثير من أبواب الفاحشة تبدأ من إطلاق النظر، والزواج من أعظم ما يعين على غض البصر، لأن القلب إذا وجد حلالًا طيبًا سكن إليه، وضعف تطلعه إلى الحرام.

قال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

وقال سبحانه:
﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ﴿سورة النور﴾

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قال لَنا النَّبيُّ ﷺ:
«مَنِ استطاع البَاءَةَ، فلْيتزوَّجْ؛ فإنَّه أَغَضُّ للبصَرِ، وأحصَنُ للفَرْجِ، ومَن لم يستطِعْ فلْيصُمْ؛ فإنه له وِجاءٌ» رواه النسائي

ومن أعظم مقاصد الزواج أنه يعين النفس على الاكتفاء بالحلال، ويصرف القلب عن التعلق بما لا يحل.

قال ابن القيم رحمه الله:

وفي النكاح من غض البصر، وحفظ الفرج، وتحصين النفس، ودفع غوائل الشهوة، ما هو من أعظم مصالح الدين والدنيا.

سادسًا: الزواج يحول الشهوة إلى طاعة

من عظمة الإسلام أنه لا ينظر إلى العلاقة الزوجية النظرة الهابطة كما في المعتقدات الأخرى، بل يجعلها إذا وُضعت في الحلال أصبحت بابًا للأجر والثواب من الله.

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«وفي بُضْعِ أحدِكم صدقةٌ قالوا : أَيَأْتِي أحدُنا شهوتَه يا رسولَ اللهِ ويكونُ له فيها أجرٌ ؟ قال : أليس أن وضعها في حرامٍ كان عليه وِزْرٌ ؟ فكذلك إذا وضعها في حلالٍ كان له أَجْرٌ» رواه مسلم

فالشهوة نفسها إذا ضُبطت بشرع الله صارت طريقًا إلى الأجر، بعد أن كانت في الحرام طريقًا إلى الإثم.

قال النووي رحمه الله:

في هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات.

فالزواج يعيد الشهوة إلى موضعها الطاهر، ويجعلها بابًا للعفة لا بابًا للندم.



سابعًا: الزواج يحفظ القلب من التعلق المحرم

كثير من الشباب والفتيات يضعفون بسبب التعلق العاطفي المحرم، أو العلاقات الخفية، أو الخيال المتكرر.

والزواج يعالج هذا الباب بإقامة علاقة شرعية قائمة على الوضوح والمسؤولية والستر.

قال تعالى:

﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ ﴿سورة المائدة﴾

وقال سبحانه:

﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ ﴿سورة النساء﴾

فالنكاح الشرعي إحصان، أما العلاقات الخفية والأخدان فهي طريق إلى الفتنة والفساد.

وقال ابن كثير رحمه الله في معنى

﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾: المسافحة هي الزانية المعلنة، وذات الخدن هي التي تتخذ خليلًا في السر.

والزواج يخرج العاطفة من السر والريبة إلى الوضوح والحلال والميثاق الغليظ بين الجنسين.

ثامنًا: الميثاق غليظ

العلاقة الزوجية في الإسلام ليست علاقة عابرة ولا متعة مؤقتة، بل ميثاق عظيم له حقوق ومسؤوليات.

قال تعالى:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ﴿سورة النساء﴾

وقال سبحانه:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ ﴿سورة النساء﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«استوصُوا بالنِّساءِ خيرًا ؛ فإنَّ المرأةَ خُلِقَتْ من ضِلَعٍ ،وإنَّ أعْوجَ شيءٍ في الضِّلَعِ أعْلَاهُ ؛فإنْ ذهبْتَ تُقِيمُهُ كسرْتَهُ ، وإنْ تركْتَهُ لمْ يزلْ أعوَجَ ؛ فاسْتوصُوا بالنِّساءِ خيرًا» متفق عليه

فمن أراد الزواج علاجًا للفاحشة، فليعلم أنه يدخل باب مسؤولية، لا باب شهوة مجردة، وأن العفة الحقيقية لا تنفصل عن الوفاء، والإحسان، وحسن العشرة، وتحمل الحقوق.

قال القرطبي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾:

هو عقد النكاح، وسماه الله غليظًا لعظم حرمته وحقه.

تاسعًا: تعسير الزواج باب لإشاعة الفاحشة

إذا عُسّر الحلال، فُتحت أبواب الحرام على كثير من الناس. ومن أعظم الأخطاء الاجتماعية المغالاة في المهور، والتكلف في النفقات، وكثرة الشروط، وتأخير الزواج بلا مصلحة معتبرة.

عن أبي حاتم المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إذا جاءَكُم مَن تَرضَونَ دينَهُ وخُلقَهُ، فأنكِحوهُ، إلَّا تَفعلوهُ تَكُن فِتنةٌ في الأرْضِ وفَسادٌ كبيرٌ، وفي روايةٍ : عَريضٌ : قالوا : يا رَسولَ اللَّهِ وإن كانَ فيهِ قالَ : إذا جاءَكُم مَن تَرضَونَ دينَهُ وخلقَهُ فأنكِحوهُ قالَها ثَلاثَ مرَّاتٍ»

رواه البخاري الترمذي وابن معين

والنبي ﷺ ربط بين رد صاحب الدين والخلق وبين حصول الفتنة والفساد، وهذا ظاهر في واقع كثير من المجتمعات حين صُعب الحلال وسُهلت دواعي الحرام.

ولقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

لا تغالوا في صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله، كان أولاكم بها النبي ﷺ.



عاشرًا: الزواج الصالح باختيار الشريك الصالح

ليس المقصود مجرد الزواج بأي صورة، بل الزواج الذي يعين على الدين والعفة، ويُبنى على الصلاح والخلق

عن أبي هريرة المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«تُنكَحُ المَرأةُ لأربعٍ: لمالِها، وحَسَبِها، ودِينِها، وجَمالِها؛ فاظفَرْ بذاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَداكَ» رواه البخاري والترمذي

وعن أبي حاتم المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا جاءَكُم مَن تَرضَونَ دينَهُ وخُلقَهُ، فأنكِحوهُ، إلَّا تَفعلوهُ تَكُن فِتنةٌ في الأرْضِ وفَسادٌ كبيرٌ» رواه البخاري والترمذي

فالدين والخلق أساسان عظيمان في بناء الزواج؛ لأن الجمال والمال قد يضعف أثرهما إذا غاب الخلق والتقوى.

قال ابن قدامة رحمه الله:

ويستحب أن يختار ذات الدين، لقول النبي ﷺ: فاظفر بذات الدين

ومن أراد الزواج علاجًا للفاحشة فليبحث عمن يعينه على الطاعة، وليس من يزيد قلبه غفلة أو يفتح عليه أبواب الفتنة.

حادي عشر: الزواج لا يغني عن التقوى

الزواج علاج عظيم، لكنه لا ينفع صاحبه تمام النفع إذا بقي العبد يطلق بصره، أو يتابع الحرام، أو يقيم علاقات محرمة، أو يقارن زوجه بصور فاسدة.

قال تعالى:﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

وقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿سورة النور﴾

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«اتَّقِ اللهَ حيثُما كنتَ ، وأتبِعِ السَّيِّئةَ الحسَنةَ تَمْحُهَا ، وخالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسنٍ» رواه الترمذي وأحمد

فالزواج يعين على العفة، لكنه لا يكون بدلًا عن التقوى، ولا يغني عن مجاهدة النفس، ولا عن قطع أسباب الحرام.

قال ابن القيم رحمه الله:

من لم يحفظ عينه وقلبه قبل الزواج، لم يزده الزواج إلا كشفًا لحقيقة مرضه إن لم يتداركه بالتقوى.

ثاني عشر: الزواج حماية للأسرة والمجتمع

حين يتيسر الزواج الصحيح، تقوى الأسرة، وتقل العلاقات المحرمة، وتحفظ الأنساب، ويقوى الحياء، ويجد الشباب والفتيات طريقًا مشروعًا للعفة.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ ﴿سورة النحل﴾

وقال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ﴿سورة الفرقان﴾

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلودَ، فإني مُكَاثِرٌ بكم الأنبياءَ يومَ القيامةِ»

رواه أحمد والطبراني

فالزواج ليس مصلحة فردية فقط، بل هو بناء أمة، وحفظ نسل، وصيانة مجتمع من التفكك والفاحشة.

ثالث عشر: الزواج لمن خاف الفتنة

من كان قادرًا على الزواج، وخاف على نفسه الوقوع في الحرام، اشتد في حقه طلب الزواج، وقد قال بوجوبه كثيرٌ من أهل العلم إذا أصبح طريقًا لحفظ الفرج.

قال تعالى:
﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾

﴿سورة النور﴾

فأمر من لم يجد النكاح بالاستعفاف، وهذا يدل على أن من وجده وكان محتاجًا إليه فليأخذ به طريقًا للعفة.

قال ابن قدامة رحمه الله:

والناس في النكاح على ثلاثة أضرب: منهم من يخاف على نفسه الوقوع في محظور إن ترك النكاح، فهذا يجب عليه النكاح في قول عامة الفقهاء؛ لأنه يلزمه إعفاف نفسه وصونها عن الحرام.

و قال الإمام القرطبي في تفسيره :

المستطيع الذي يخاف الضرر على نفسه و دينه من العزوبة لا يُختلف في وجوب التزويج عليه

ومن علم من نفسه الضعف، ووجد القدرة، فليجعل الزواج من أعظم أولوياته.

رابع عشر: من لم يستطع الزواج فليستعفف

كل الناس ليسوا بالقادرين على الزواج فورًا، ولهذا أمر الله من لم يجد النكاح أن يستعفف، وأرشد النبي ﷺ إلى الصوم.

قال الله تعالى:

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾

﴿سورة النور﴾

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قال لَنا النَّبيُّ ﷺ:

«يا مَعشَرَ الشَّبابِ، مَنِ استَطاعَ منكمُ الباءةَ فليَتَزَوَّجْ، ومَن لم يَستَطِعْ فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّه له وِجاءٌ» رواه النسائي

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ثلاثةٌ حقٌّ على اللَّهِ عونُهُم: المُجاهدُ في سبيلِ اللَّهِ، والمُكاتِبُ الَّذي يريدُ الأداءَ، والنَّاكحُ الَّذي يريدُ العفافَ» رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد

فالعجز عن الزواج ليس عذرًا للوقوع في الفاحشة، بل هو باب للصبر والاستعفاف، مع الأخذ بالأسباب المشروعة لتيسير الزواج.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية:

هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجًا بالتعفف عن الحرام.

قال ابن تيمية رحمه الله: إن احتاج الإنسان إلى النكاح و خشي العنت بتركه قدَّمه على الحج الواجب وإن لم يخف قدم الحج.

و قال ابن رشد: فأما النكاح فإنه في الجملة مرغب فيه و مندوب إليه وأما من احتاج إلى النكاح ولم يقدر على الصبر دون النساء، ولا كان عنده ما يتسرى به وخشي على نفسه العَنَت إن لم يتزوج، فالنكاح عليه واجب.

خامس عشر: التوكل على الله في الزواج

قد يمنع بعض الناس من الزواج خوف الفقر، مع أن الله وعد من قصد الحلال والعفة بالغنى من فضله.

قال تعالى:

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿سورة النور﴾

وقال سبحانه:

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

﴿سورة الطلاق﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ثلاثةٌ حقٌّ على اللَّهِ عونُهُم: المُجاهدُ في سبيلِ اللَّهِ، والمُكاتِبُ الَّذي يريدُ الأداءَ، والنَّاكحُ الَّذي يريدُ العفافَ» رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد

فمن تزوج يريد العفاف، وأخذ بالأسباب، وتوكل على الله، كان جديرًا بعون الله.



وقال أحد السلف:
التمسوا الرزق بالنكاح، ثم تلا
قوله تعالى:﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾

سادس عشر: النية في الزواج

كلما صلحت نية الزواج عظمت بركته. فمن نوى به إعفاف نفسه، وإعفاف زوجه، وغض بصره، وبناء بيت مسلم، وطلب الذرية الصالحة، صار زواجه عبادة يؤجر عليها.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ وإنَّما لِكلِّ امرئٍ ما نوى» متفق عليه

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«وفي بُضْعِ أحدِكم صدقةٌ قالوا : أيَأْتِي أحدُنا شهوتَه يا رسولَ اللهِ ويكونُ له فيها أجرٌ ؟ قال : أليس أن وضعها في حرامٍ كان عليه وِزْرٌ ؟ فكذلك إذا وضعها في حلالٍ كان له أَجْرٌ» رواه مسلم

ويتقدم العبد الزواج بنية العفة والطاعة، لا بمجرد العادة أو الشهوة، حتى يتحول بيته إلى باب أجر وبركة.
قال ابن القيم رحمه الله:
المباحات تصير طاعات بالنيات الصالحات، ورب عمل صغير تعظمه النية

سابع عشر: الزواج مسؤولية

ينبغي أن يعلم من يريد الزواج أن الزواج ليس مجرد وسيلة لإطفاء الشهوة، بل هو أمانة وحقوق ومعاشرة وصبر وتربية.
قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ﴿سورة النساء﴾
وقال سبحانه: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وعن عائشة وابن عباس ومعاوية رضي الله عنهم قالوا: قال رسول الله ﷺ:
«خيرُكُم خيرُكم لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خيرُكم لِأَهْلِي» رووه الترمذي والدارمي

ومن أراد الزواج علاجًا، فليتعلم فقهه وآدابه وحقوقه، وليدخل إليه بقلب مسؤول، لا بعقل مستهلك للشهوة.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:

النكاح مسؤولية عظيمة، وليس المقصود به مجرد الاستمتاع، بل المقصود به السكن، وبناء الأسرة، والقيام بالحقوق.

ثامن عشر: تيسير الزواج مسؤولية الأسرة والمجتمع

على الآباء والأمهات والأولياء أن يدركوا أن تعسير الزواج في زمن كثرت فيه الفتن جناية على الشباب والفتيات، وأن من أعان على الحلال كان شريكًا في العفة.

قال تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿سورة المائدة﴾

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« بَشِّروا وَلا تُنفِّروا، ويَسِّروا وَلا تُعسِّروا» رواه مسلم وأبو داود

وعن أبي حاتم المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا جاءَكُم مَن تَرضَونَ دينَهُ وخُلقَهُ، فأنكِحوهُ، إلَّا تَفعلوهُ تَكُن فِتنةٌ في الأرْضِ وفَسادٌ كبيرٌ» رواه الترمذي والبخاري

فليست المباهاة بالمهر، ولا التكلف في الحفلات، ولا المطالب الثقيلة، من الدين في شيء إذا صارت حاجزًا أمام العفاف.

قال بعض أهل العلم:

كلما خفّت مؤونة النكاح عظمت بركته، وكلما دخل التكلف ضعف مقصودة.

تاسع عشر: العفة في المودة والرحمة والمعروف

العفة في الزواج لا تتحقق بمجرد العقد، بل تحتاج إلى مودة ورحمة وحسن عشرة واحتواء متبادل.

قال تعالى:
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿سورة الروم﴾
وقال سبحانه: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلقًا وخيارُكم خيارُكم لأهلِه»

رواه أبو داود الترمذي وأحمد

فإذا قام الزواج على الإيمان والخلق والرحمة، كان حصنًا للعفة، أما إذا خلا من الرحمة وحسن العشرة، ضعف أثره في السكن والإحصان.

عشرون: الزواج باب شكر لله

من رزقه الله وأعطاه الزوجة صالحة، فقد أعطاه نعمة عظيمة، يجب أن يحفظها بالشكر، وليصنها عن المعاصي، وليجعل بيته موضع طاعة لا موضع فتنة.

قال تعالى:
﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾

﴿سورة إبراهيم﴾
وقال سبحانه:
﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ﴿سورة الفرقان﴾

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:
«الدُّنيا متاعٌ وخيرُ متاعِها المرأةُ الصَّالحةِ» رواه مسلم

ومن شكر نعمة الزواج حفظ بصره، وأحسن إلى أهله، وقطع أبواب الحرام عنهم، واستعان بنعمة زواجه على طاعة الله تبارك وتعالى.

باب الصوم

إن الصوم من أعظم العبادات التي تزكي النفس، وتكسر سلطان الشهوة وقوتها، وتربي العبد على الصبر والمراقبة ومخالفة الهوى.

ولهذا أرشد النبي ﷺ الشباب الذين لا يجدون مؤن النكاح إلى الصوم، لأنه يضعف اندفاع شهوتهم، ويعين على حفظ البصر والفرج، ويذكِّر العبد بأنه قادر بعون الله وفضله على ترك ما تشتهيه نفسه إذا كان ذلك طاعةً لله. فالصوم ليس مجرد امتناع عن الطعام والشراب، بل مدرسة عملية في ضبط النفس، ومجاهدة الهوى، وتربية القلب على العفة.

أولًا: الصوم شرع للتقوى

بيَّن الله سبحانه وتعالى أن الغاية العظمى من الصيام تحقيق التقوى، والتقوى هي جماع الخير، وهي التي تمنع العبد من الفاحشة في السر والعلن.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

فالصوم يربي العبد على أن يترك المباح في نهار الصيام طاعةً لله، فمن قدر على ترك الطعام والشراب والشهوة المباحة لله، كان أقدر على ترك الحرام إذا صدق في مجاهدته.

قال ابن كثير رحمه الله:

الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان، ولهذا ثبت في الصحيحين: يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء.



ثانيًا: الصوم علاج الشهوة

أرشد النبي ﷺ من لم يقدر على الزواج إلى الصوم، وجعله علاجًا للشهوة ووقاية من الانحراف.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قال لَنا النَّبيُّ ﷺ:

«يا مَعشَرَ الشَّبابِ، مَنِ استَطاعَ منكمُ الباءةَ فليَتَزَوَّجْ، ومَن لم يَستَطِعْ فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّه له وِجاءٌ» متفق عليه

ومعنى قوله ﷺ: «وِجاء» أي: وقاية وكسر للشهوة

وقال النووي رحمه الله:

معنى وجاء: أنه يقطع الشهوة ويضعفها

وهذا الحديث أصل عظيم في علاج الفاحشة؛ لأن النبي ﷺ جمع فيه بين طريقين: الزواج لمن قدر، والصوم لمن عجز، وكلاهما لحفظ البصر والفرج.

ثالثًا: كسر اندفاع الشهوة

النفس إذا أُطلقت في المآكل والمشارب والراحة والفراغ قويت عليها دواعي الشهوة، أما الصوم فيضعف حدتها، ويكسر اندفاعها، ويذكر العبد بأنه ليس عبدًا لرغباته.

قال تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿سورة النازعات﴾

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ ﴿سورة ص﴾

والصوم من أعظم وسائل نهي النفس عن الهوى؛ لأن العبد يتدرب فيه على مخالفة رغباته المتكررة، فيصبح أقوى على رفض دواعي الفاحشة إذا حضرت.

قال ابن القيم رحمه الله:
الصوم لجام المتقين، وجُنَّة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين.

رابعًا: الصوم يضيق طرق الشيطان

الشهوة من أعظم مداخل الشيطان إلى الإنسان، والصوم يضعف هذه المداخل، ويعين القلب على اليقظة.

عن صفية أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّ الشَّيطانَ يجري من ابنِ آدمَ مجرَى الدَّمِ» رواه أبو داود وابن ماجه

وقد ذكر أهل العلم أن الصوم يضيق مسالك الشيطان؛ لأنه يضعف قوة الشهوة، ويقلل سلطان النفس الأمارة بالسوء، ويعين العبد على حضور القلب.

قال ابن رجب رحمه الله:
الصيام يضيق مجاري الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وبالصيام تضعف نفوذه، وتنكسر الشهوات.
ومن ابتُلي بالنظر المحرم، أو الإباحية، أو العادة السرية، أو العلاقات الخفية، فإن الصوم يضعف أصل الدافع، ويعين على مقاومة الخاطر قبل أن يتحول إلى فعل.

خامسًا: الصوم مدرسة في المراقبة

الصائم إنما يترك طعامه وشرابه وشهوته مع قدرته عليها، ولا يراه أحد من الناس، لكنه يعلم أن الله يراه. وهذا المعنى هو أصل العلاج من ذنوب الخلوات.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ ﴿سورة العلق﴾

وقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ﴿سورة النساء﴾

وقال تعالى:﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ﴿سورة غافر﴾

فالصوم يربي العبد على أن الله مطلع عليه في السر، وأن ترك المعصية في الخلوة أعظم دليل على صدق الإيمان.

قال ابن القيم رحمه الله:

الصوم سرٌ بين العبد وربه، لا يطلع عليه غيره، ولذلك اختصه سبحانه وتعالى بقوله: الصوم لي وأنا أجزي به.

سادسًا: الصوم حفظٌ للجوارح

الصوم الكامل ليس امتناعًا عن الطعام والشراب فقط، بل حفظ للسان، وغض للبصر، وكف للجوارح عن الحرام.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من لم يدَعْ قولَ الزُّورِ والعملَ بِهِ، فليسَ للَّهِ حاجةٌ بأن يدَعَ طعامَهُ وشرابَهُ» رواه البخاري

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الصيامُ جُنَّةٌ ، فإذا كان أحدُكم صائمًا فلا يَرفُثْ ولا يَجهلْ، فإنِ امْرُؤٌ شاتَمَه أو قاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إنِّي صائمٌ» متفق عليه

فمن صام عن الطعام ولم يصم بصره عن الحرام، أو لسانه عن الفحش، أو هاتفه عن المشاهد المحرمة، فقد نقص من حقيقة الصيام بقدر ما فرط في جوارحه

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال:

إذا صمتَ فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الخادم، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك.

سابعًا: الصوم علاج التعلق بالفواحش

الإباحية تقوم على سرعة الاستجابة للشهوة، والصوم يعالج هذا المعنى من أصله؛ لأنه يدرب النفس على التأخير والمنع والصبر.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿سورة الزمر﴾

وقال سبحانه:

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿سورة النحل﴾

ومن اعتاد الإباحية يحتاج إلى تربية إرادته من جديد، والصوم يعيد للنفس معنى الصبر، ويعلمها أن الرغبة ليست أمرًا يجب تنفيذه فورًا، بل يمكن منعها وضبطها لله عز وجل.

قال ابن القيم رحمه الله:

الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة من ألم وحسرة وعقوبة.

ثامنًا: الصوم يعين على غض البصر

من أعظم مقاصد الصوم في علاج الفاحشة أنه يعين على غض البصر، لأن الجوع المشروع يضعف ثورة الشهوة، ويجعل القلب أكثر استعدادًا للمراقبة.

قال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

وقال سبحانه:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ﴿سورة النور﴾

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قال لَنا النَّبيُّ ﷺ:

« يا معشر الشبَّاب من استطاع منكم البَاءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بَالصوم فإن الصوم له وجاء»

متفق عليه

فالعلاج النبوي للشهوة بدأ بحفظ البصر والفرج، والصوم وسيلة عظيمة لتحقيق ذلك لمن لم يستطع الزواج.

تاسعًا: الصوم يربي على ترك الحلال فكيف بالحرام

إن الصائم يترك الطعام والشراب والمعاشرة الزوجية في نهار رمضان مع كونها مباحة في أصلها، وذلك امتثالًا لأمر الله تعالى. فإذا تربت النفس على ترك الحلال المؤقت لله، كان ذلك أدعى لترك الحرام الدائم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«خلوفُ فمِ الصَّائمِ أطيبُ عند اللهِ عزَّ وجلَّ من ريحِ المسكِ قال ربُّكم عزَّ وجلَّ عبدي ترك شهوتَه وطعامَه وشرابَه ابتغاءَ مرضاتي والصَّومُ لي وأنا أجزي به» رواه أحمد وابن عساكر

وهذه الجملة أصل عظيم في التربية على العفة؛ لأن العبد يقول لنفسه: إذا كنت أترك ما أحل الله في وقت الصيام طاعة له، فكيف أجرؤ على ما حرَّم الله في كل وقت؟

وقال ابن رجب رحمه الله:

سرُّ الصيام أن النفس إذا تركت ما أُبيح لها في غير وقت الصيام تقربًا إلى الله، كان ذلك داعيًا إلى ترك ما حرم الله في كل حال.

عاشرًا: الصوم لا ينفع مع إطلاق أسباب الفتن

الصوم علاج عظيم، لكنه يضعف أثره إذا صام العبد ثم أطلق بصره، وخلا بهاتفه، وتابع المثيرات، وجالس أهل الفساد. فالدواء لا يكتمل مع فتح أبواب المرض.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿سورة النور﴾

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
« إنَّ الحلالَ بيِّنٌ وإنَّ الحرامَ بيِّنٌ وبينهما أمورٌ مُشتبِهاتٌ لا يعلمهنَّ كثيرٌ من الناس فمنِ اتَّقى الشُّبُهاتِ استبرأ لدِينِه وعِرضِه ، ومن وقع في الشُّبهاتِ وقع في الحرامِ ، كالراعي يرعى حول الحِمى يوشكُ أن يرتعَ فيه ، ألا وإنَّ لكلِّ ملكٍ حمًى ، ألا وإنَّ حمى اللهِ محارمُه ، ألا وإنَّ في الجسدِ مُضغةً إذا صلُحتْ صلُح الجسدُ كلُّه وإذا فسدتْ فسد الجسدُ كلُّه ألا وهي القلبُ» متفق عليه

ومن أراد أن ينتفع بالصوم في علاج الفاحشة فليجمع معه قطع الأسباب من غض البصر، وترك الخلوة، وحذف المواد المحرمة، والبعد عن العلاقات المريبة، ومصاحبة الصالحين.

قال ابن القيم رحمه الله:

دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات، ودفع الإرادات أيسر من دفع العزائم، ودفع العزائم أيسر من معالجة الفعل بعد وقوعه

حادي عشر: الصوم المشروع لا الإفراط المؤذي

الصوم علاج شرعي، لكن لا يكون بإهلاك النفس ولا بإضعاف البدن على وجه يضر العبد أو يقطعه عن واجباته، بل يكون وفق هدي الشريعة.

قال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وقال النبي ﷺ لعبدالله بن عمرو رضي الله عنهما لما أكثر من الصيام:

«صُمْ أفضَلَ الصَّومِ صَومَ داوُدَ: صيامَ يَومٍ، وإفطارَ يَومٍ، واقرَأْ في كُلِّ سَبعِ لَيالٍ مَرَّةً» متفق عليه

فالمقصود أن يكون الصوم عونًا على الطاعة والعفة، لا سببًا للضعف المفرط أو ترك الحقوق أو الانقطاع عن الواجبات.



قال النووي رحمه الله:
أفضل الصيام لمن قوي عليه ولم يتضرر به صيام داود، وهو صوم يوم وفطر يوم.

ثاني عشر: أنواع الصيام النافع في علاج الشهوة

من الصيام النافع لمن ابتُلي بدواعي الفاحشة:

- صيام رمضان إيمانًا واحتسابًا.
- صيام الاثنين والخميس.
- صيام ثلاثة أيام من كل شهر.
- صيام يوم عرفة لغير الحاج.
- صيام عاشوراء.
- صيام يوم وإفطار يوم لمن قوي عليه ولم يضيع حقًا من الحقوق.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«تُعرضُ الأعمالُ يومَ الإثنين والخميسِ فأُحِبُّ أن يُعرضَ عملي وأنا صائمٌ» رواه الترمذي وابن ماجه

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«صيامُ ثلاثةِ أيَّامٍ من كلِّ شَهرٍ صيامُ الدَّهرِ ، وأيَّامُ البيضِ صبيحةَ ثلاثَ عشرةَ وأربعَ عشرةَ وخمسَ عشرة» متفق عليه

فالمداومة على قدر من الصيام المشروع تجعل النفس في رياضة مستمرة، وتبقي القلب متيقظًا، وتضعف سلطان الشهوة مع الوقت.

ثالث عشر: قوة الصوم مع الدعاء

للصائم دعاء لا ينبغي أن يغفل عنه، ومن أعظم ما يدعو به أن يرزقه الله العفة، ويصرف عنه الفاحشة.

قال تعالى:
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾
وقد جاءت هذه الآية في سياق آيات الصيام، إشارة إلى قرب باب الدعاء من عبادة الصوم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
« ثلاثةٌ لا تُردُّ دعوتُهم الصَّائمُ حتَّى يُفطرَ والإمامُ العادلُ ودعوةُ المظلومِ يرفعُها اللهُ فوق الغمامِ وتُفتَّحُ لها أبوابُ السَّماءِ ويقولُ الرَّبُّ وعزَّتي لأنصُرنَّك ولو بعد حينٍ» رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد
وليكثر الصائم من هذا الدعاء:

- اللهم ارزقني الهدى والتقى والعفاف والغنى.
- اللهم اغنني بحلالك عن حرام واغنني بفضلك عمن سواك.
- اللهم طهر قلبي.
- اللهم اصرف عني السوء والفحشاء.
- اللهم أعني على غض بصري وحفظ فرجي.
- اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين.

رابع عشر: الصوم مع القرآن والذكر

الصوم إذا اجتمع مع القرآن والذكر قوي أثره في القلب، لأن الشهوة تضعف بالصوم، والقلب يحيا بالقرآن، والنفس تطمئن بذكر الله.
قال تعالى:﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ ﴿سورة البقرة﴾
وقال سبحانه:﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ﴿سورة الرعد﴾

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
« الصيامُ والقرآنُ يَشْفَعانِ للعبدِ، يقولُ الصيامُ : أَيْ رَبِّ ! إني مَنَعْتُهُ الطعامَ والشهواتِ بالنهارِ، فشَفِّعْنِي فيه، ويقولُ القرآنُ : مَنَعْتُهُ النومَ بالليلِ، فشَفِّعْنِي فيه ؛ فيَشْفَعَانِ» رواه أحمد والطبراني

ومن أراد علاج الفاحشة بالصوم فليجعل مع صومه وردًا من القرآن والذكر، حتى لا يكون صومه مجرد جوع، بل تزكية كاملة للقلب والجوارح.

خامس عشر: الصوم بداية لا نهاية

الصوم من أعظم وسائل العلاج، لكنه ليس العلاج الوحيد؛ بل هو جزء من منظومة العفة وهي: التوبة، والمراقبة، وغض بصر، وقطع الأسباب، والصحبة صالحة، وملء الوقت، والزواج عند القدرة.

قال تعالى:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وقال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿سورة العنكبوت﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«احرِص على ما ينفعُكَ واستعِن باللَّهِ ولا تعجِزْ» رواه مسلم

فمن صام، واستعان بالله، وقطع أسباب الفتنة، وجاهد نفسه، وأكثر من الدعاء، ورجع إلى الله كلما ضعف، وجد أثر الصوم في قلبه وبصره وفرجه، وصار الصوم له جُنَّة من الفاحشة، كما جعله النبي ﷺ جُنَّة من النار والشهوة.

باب دور الأسرة

الأسرة هي الحصن الأول في حفظ الدين والأخلاق، وهي البيئة التي يتشكل فيها الوعي، وتُغرس فيها معاني الحياء والعفة ومراقبة الله. وإذا كانت الفاحشة المعاصرة قد دخلت إلى كثير من البيوت عبر الشاشات، والهواتف، والعلاقات المفتوحة، والإعلام الموجَّه، فإن مواجهة هذا السيل لا تبدأ من الخارج فحسب، بل تبدأ من داخل البيت؛ من التربية، والقدوة، والمتابعة، والدعاء، وإقامة الحياة الأسرية على الإيمان والستر والانضباط.

أولًا: استشعار الأسرة للمسؤولية الشرعية

جعل الله الأسرة أمانة، وحمَّلَ الوالدين مسؤولية حماية من تحت أيديهم من أسباب الفساد والهلاك.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (سورة التحريم)

وقد رُوي عن عليٍّ رضي الله عنه في تفسيرها: أي علِّموهم وأدِّبوهم

وذكر ابن كثير رحمه الله في تفسيرها: أن على المؤمن أن يأمر أهله بطاعة الله، وينهاهم عن معصيته، ويقيم عليهم ما يكون سببًا في نجاتهم.

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ فالأميرُ الذي على الناسِ راعٍ عليهم وهو مسؤولٌ عنهم والرجلُ راعٍ على أهلِ بيتِهِ وهو مسؤولٌ عنهم والمرأةُ راعيةٌ على بيتِ بعلها وولدِهِ وهي مسؤولةٌ عنهم وعبدُ الرجلِ

راعٍ على بيتِ سيدِهِ وهو مسؤولٌ عنهُ ألا فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ» متفق عليه

وهذه النصوص تجعل دور الأسرة في مقاومة الفاحشة واجبًا شرعيًا، لا مجرد خيار تربوي.

ثانيًا: بناء الإيمان

لا يمكن للأسرة أن تحاصر الفاحشة المعاصرة من غير بناءٍ إيماني صادق؛ لأن الرقابة الظاهرة قد تغيب، ولا يبقى عند الخلوة إلا الدافع الإيماني ومراقبة الله.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ (سورة العلق)

وقال سبحانه:

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (سورة غافر)

وقال تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (سورة الإسراء)

وعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في جواب جبريل عليه السلام عن الإحسان:

«أن تَعبُدَ اللهَ كَأنَّك تَراه، فإن لم تَكُنْ تَراه فإنَّه يَراك» متفق عليه

فإذا نشأ الأبناء على هذا المعنى، صار في داخلهم رقيب يحرسهم إذا غابت أعين الناس. وقد قرر ابن القيم رحمه الله أن أصل الاستقامة حياة القلب بمراقبة الله وتعظيمه.

ثالثًا: غرس الحياء والعفة

الحياء من أعظم الأسوار التي تحمي النفس من الفاحشة، فإذا ضعف الحياء تجرأت النفس على الحرام، وإذا قوي الحياء انكسرت دواعي الفساد قبل أن تتحول إلى فعل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ» متفق عليه

وعن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«الحَياءُ لا يَأتي إلَّا بخَيرٍ» متفق عليه

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّ ممَّا أدرك النَّاسُ من كلامِ النُّبوَّةِ الأولَى : إذا لم تستحْيِ فاصنَعْ ما شئتَ» رواه البخاري

وقال ابن القيم رحمه الله:
الحياء مادة حياة القلب، وذكر أن ذهابه من أعظم عقوبات الذنوب
فمن واجب الأسرة أن تغرس هذا الخلق في اللباس، والكلام، والنظر، والعلاقات، واستخدام الأجهزة، وطريقة المزاح، وحدود التعامل بين الجنسين.

رابعًا: التربية على غض البصر وحفظ الفرج

جعل الله معالجة الفاحشة تبدأ من النظر قبل الفعل، لأن البصر باب القلب، وأكثر الانحرافات تبدأ من صورة ثم فكرة ثم ميل ثم تعلق.
قال تعالى:
﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾
وقال تعالى:
﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (سورة النور)
فواجب الأسرة أن تشرح هذا الأصل للأبناء والبنات، وأن تربيهم على كفّ البصر، وعدم الاستهانة بالمشاهد والمقاطع والصور والصفحات التي تُهيّج الشهوة وتضعف الحياء.

خامسًا: إحكام الرقابة على الوسائل الحديثة

إن الفاحشة المعاصرة لم تعد تحتاج إلى خروج، بل تدخل إلى البيت عبر الهاتف الشخصي، أو الحاسوب، أو التطبيقات، أو الرسائل، أو المقاطع القصيرة.

ولهذا صار من أهم أدوار الأسرة ضبط البيئة الرقمية في المنزل
قال تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(سورة النور)

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء)

فالنهي هنا عن القربان يشمل الوسائل الموصلة، لا الفعل وحده. وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن كل ما كان سببًا إلى الفتنة والفساد وجب منعه إذا لم تعارضه مصلحة راجحة.

ومن هنا كان على الأسرة أن تمنع الخلوة الطويلة بالأجهزة، وأن تضبط أوقات الاستخدام، وأن تمنع الحسابات والمواقع التي تفتح أبواب الشهوة، وأن تجعل التقنية في البيت تحت قدر من المتابعة والوعي لا تحت سلطان الإهمال.

سادسًا: بناء الحوار الآمن داخل البيت

الفاحشة المعاصرة تتغذى كثيرًا على الصمت، والفراغ، والخوف من السؤال، والبحث عن المعلومة خارج البيت. ولهذا فإن من أعظم أدوار الأسرة أن تجعل البيت موضع حوار واحتواء، لا موضع رهبة وانغلاق.

قال تعالى في وصايا لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ (سورة لقمان)

وتكررت هذه النداءات في السورة في سياق التربية والوصية والرفق.

عن عائشة وأنس بن مالك رضي الله عنهم قالوا: قال رسول الله ﷺ:

«ما كان الرِّفْقُ في شيءٍ إلَّا زانَه ، ولا نُزِعَ من شيءٍ إلَّا شانَه»

رواه مسلم

وعن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن اللهَ رفيقٌ ، يُحِبُّ الرفقَ ، ويُعْطي عليه ما لا يُعْطي على العُنْفِ»

رواه أبو داود وأحمد

فالأسرة التي تسمع، وتحاور، وتفسر، وتحتوي، وتفتح باب السؤال، أقرب إلى وقاية أبنائها من تلك الأسرة التي لا يظهر دورها إلا في العقوبة بعد السقوط.

سابعًا: شغل الأبناء بالنافع وسد فراغ النفوس

إن الفراغ من أخطر المداخل إلى الفاحشة، وخاصة إذا اجتمع مع عزلةٍ رقمية، وضعف رقابة، واضطراب عاطفي، وقلة أهداف.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ منَ النَّاسِ الصِّحَّةُ والفراغُ» رواه البخاري

وقال ابن القيم رحمه الله:

نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل

فالأسرة التي تملأ حياة أبنائها بالقرآن، والصلاة، والرياضة، والعلم، والمهارات، والصحبة الصالحة، والعمل النافع، تقل فيها فرص الانزلاق، لأن النفس إذا وُجهت إلى الخير ضعف سلطان الشهوة عليها.

ثامنًا: اختيار الصحبة ومراقبة البيئة المؤثرة

لا يكفي أن يكون البيت صالحًا إذا كانت البيئة المحيطة فاسدة، لأن الصحبة كثيرًا ما تهون المعصية، وتزين الانحراف، وتكسر الحواجز النفسية أمام الحرام.

قال تعالى:

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة الزخرف)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«المرءُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ» رواه أبو داود

فواجب الأسرة أن تعرف أصدقاء أبنائها، ومجموعاتهم، ومتابعاتهم، ومن يتأثرون بهم، لأن كثيرًا من الفواحش الحديثة لا تدخل من باب الشهوة المجردة فقط، بل من باب الصحبة الرقمية أو الواقعية التي تطبع النفس على الحرام.

تاسعًا: التيسير في الزواج وإعانة الأبناء على العفاف

إذا كانت الأسرة تريد زيادة القضاء على الفاحشة المعاصرة، فلا يكفي أن تحذر من الحرام، بل يجب أن تفتح أبواب الحلال، وأعظمها الزواج.

قال تعالى:

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة النور)

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« يا معشَرَ الشَّبابِ، مَنِ استطاع منكم البَاءَةَ فلْيتزوَّجْ [فإنَّه أغَضُّ للبصَرِ، وأحصَنُ للفَرْجِ، ومَن لم يستطِعْ فلْيصُمْ؛ فإنه له وِجاءٌ»

رواه النسائي

وقد بين أهل العلم أن في هذا الحديث دلالة ظاهرة على أن الزواج من أعظم أسباب العفة، وأن تعسيره مع كثرة المثيرات يفتح بابًا من أبواب الفتنة. ولهذا كان من واجب الأسرة أن تعين على الزواج، وألا تكون سببًا في تعطيله بالمغالاة في المهور، أو التعقيد في الشروط، أو تأخير الحلال بلا مسوغ.

عاشرًا: إقامة القدوة العملية

من أعظم ما يعين الأسرة في هذا الباب أن تكون قدوة في الحياء، والعفة، وضبط النظر، واستخدام الوسائل، وأدب العلاقة بين الزوجين، لأن الأبناء يتربون بالأحوال أكثر مما يتربون بالأقوال.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (سورة الصف)

وحال الرجل في بيته أبلغ في تربية أهله من كثير من كلامه

فإذا رأى الأبناء في البيت احترام الحرمات، وغض البصر، والابتعاد عن المقاطع الفاسدة، وحسن المعاشرة، والصدق في النصيحة، كان ذلك أوقع في نفوسهم من المواعظ المجردة.

حادي عشر: معالجة أخطاء الأبناء

إذا وقع أحد الأبناء أو البنات في شيء من الفاحشة أو مقدماتها، فواجب الأسرة أن تجمع بين الرحمة والحزم، وأن تكون عونًا على التوبة، لا سببًا في مزيد من الانكسار والخفاء.

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (سورة البقرة)

وقال سبحانه:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة الزمر)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« اللهُ أفرَحُ بتَوبةِ عَبدِه مِن أحَدِكُم سَقَطَ على بَعيرِه، وقد أضَلَّه في أرضِ فَلاةٍ» متفق عليه

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« يَسِّروا ولا تُعَسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا» متفق عليه

فإذا أخطأ الابن، فالحكمة أن لا يُدفع إلى اليأس، بل يُفتح له باب التوبة، ويُعان على قطع الأسباب، وتبديل البيئة، وإشغال وقته، وتقوية صلته بالله.

ثاني عشر: الإكثار من الدعاء والاستعانة بالله

إن القلوب صناديق مغلقة وهى بين أصابع الرحمن، ومهما بذلت الأسرة من تربية ومتابعة فلن تستغني عن سؤال الله الحفظ والهداية والثبات

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (سورة الفرقان)

وقال سبحانه:

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة الأحقاف)



وقال إبراهيم عليه السلام:

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (سورة إبراهيم)

فإذا كان الخليل عليه السلام سأل ربه أن يجنب بنيه أعظم الفتن، فكيف بزمنٍ صارت فيه الفاحشة قريبة من السمع والبصر في كل لحظة؟ لهذا كان الدعاء، مع الأخذ بالأسباب، من أعظم ما ينبغي أن تقوم به الأسرة.

باب دور الإعلام

الإعلام من أخطر أدوات التأثير في العقول والقلوب، فهو لا ينقل الأخبار فقط، بل يصنع التصورات، ويشكل الذوق العام، ويؤثر في الحياء، ويقرب المنكر أو يبعده، ويجعل العفة محبوبة أو غريبة في أعين الناس. وإذا كان الإعلام قد يكون بابًا لنشر الفاحشة وتطبيعها، فإنه يستطيع كذلك أن يكون بابًا عظيمًا في علاجها، وحماية المجتمع منها، وبناء الوعي الشرعي والأخلاقي، ورد الناس إلى معاني الطهر والحياء والمسؤولية.

أولًا: الإعلام أمانة ومسؤولية

الكلمة والصورة والمشهد ليست أشياء عابرة، بل أمانة يُسأل عنها صاحبها، وينظر الله إلى أثرها في الناس.

قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ﴿سورة ق﴾

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

فالإعلامي، والكاتب، والمخرج، وصانع المحتوى، وصاحب المنصة، كلهم داخلون في مسؤولية الكلمة والصورة والأثر.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كَفَى بالمرءِ كذِبًا أن يحدِّثَ بِكُلِّ ما سمِعَ» رواه مسلم وأبو داود

فإذا كان نقل كل ما يُسمع بلا تثبت مذمومًا، فكيف بمن ينشر ما يثير الشهوات، أو يهون الفواحش، أو يفسد القيم والحياء؟

ثانيًا: الإعلام الصالح دعوة إلى الخير

يمكن للإعلام أن يكون منبرًا للدعوة، ووسيلة لنشر الهدى، وتعليم العفة، وتذكير الناس بالله، وتقديم البدائل النافعة.

قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿سورة فصلت﴾

وقال سبحانه:

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

﴿سورة النحل﴾

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

« بلِّغوا عنِّي ولو آيةً وحدِّثوا عن بني إسرائيلَ ولا حرجَ ومن كذبَ عليَّ متعمِّدًا فليتبوَّأ مقعدَهُ من النَّارِ» رواه البخاري

وكل وسيلة إعلامية تُستعمل في نشر العفة، أو تصحيح المفاهيم، أو هداية الشباب، أو حماية الأسرة، فهي داخلة في باب الدعوة إلى الله بحسب نية صاحبها وأثرها.

قال ابن القيم رحمه الله:

الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد، وهي وظيفة الرسل وأتباعهم.

ثالثًا: علاج الفاحشة بتغيير الصورة الذهنية

من أخطر ما تفعله الفاحشة أنها تلبس ثوب الجمال والحرية والمتعة، فيأتي دور الإعلام الصالح ليكشف حقيقتها: ظلمة في القلب، وفساد في الأسرة، وانكسار في الحياء، وندم في الدنيا، وحساب في الآخرة.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

وقال سبحانه:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ﴿سورة فاطر﴾

وقال تعالى:
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾
فالإعلام العلاجي لا يكتفي بالتحريم المجرد، بل يزيل الزينة الكاذبة عن الفاحشة، ويعيد تسميتها باسمها الشرعي: فاحشة وسوء سبيل.
قال ابن القيم رحمه الله:
تغيير الأسماء لا يغير حقائق المسميات ولا أحكامها.

رابعًا: الإعلام يحمي الحياء العام

الحياء خلق إيماني واجتماعي، وإذا حافظ الإعلام عليه حفظ المجتمع، وإذا كسره سهُل على الناس قبول المنكر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«الحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ» متفق عليه

وعن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«الحَياءُ لا يَأْتي إلَّا بخَيرٍ» متفق عليه

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّ ممَّا أدرك النَّاسُ من كلامِ النُّبوَّةِ الأولَى : إذا لم تستحْيِ فاصنَعْ ما شئتَ» رواه البخاري

فمن واجب الإعلام الصالح أن يعظم الحياء، لا أن يسخر منه؛ وأن يصون صورة المرأة والرجل المتعففين، لا أن يحول الجسد إلى سلعة، والعلاقة المحرمة إلى مشهدٍ عابر، والوقاحة إلى جرأة محمودة.
قال ابن القيم رحمه الله:
الحياء مادة حياة القلب، وهو أصل كل خير، وذهابه ذهاب كل خير

خامسًا: منع إشاعة الفاحشة لا المشاركة فيها

من أعظم أدوار الإعلام في العلاج أن يمتنع عن بث ما يشيع الفاحشة أو يثيرها أو يطبعها في وعي الناس.

قال تعالى:
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

﴿سورة النور﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَن دعا إلى هُدًى كان له مِن الأجرِ مِثْلُ أجورِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن أجورِهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه مِن الإثمِ مِثْلُ آثامِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن آثامِهم شيئًا» رواه مسلم وأبو داود وأحمد

فالمشهد، والصورة، والموسيقى المحرمة، واللقطة العابثة، والحوار الفاسد، والعلاقة المحرمة حين تُعرض في صورة جذابة، قد تكون دعوة غير مباشرة إلى الضلالة.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير آية النور:
أي يحبون ظهور الفواحش وانتشارها في المؤمنين

سادسًا: الإعلام يعالج ولا يفضح

من فقه الإعلام في علاج الفاحشة أن يحارب المنكر دون أن يفضح التائبين أو الضحايا، وأن يفرق بين كشف الظاهرة للتحذير منها وبين نشر تفاصيلها بطريقة تثير الفضول أو تكسر الحياء.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ ﴿سورة الحجرات﴾

وعن مسلمة بن مخلد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«من ستر مسلمًا في الدنيا ستره اللهُ في الدنيا والآخرةِ ومن نجَّى مكروبًا فكَّ الله عنه كربةً من كُربِ يومِ القيامةِ ومن كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ عزَّ وجلَّ في حاجتِه» أخرجه ابن المقريء وأحمد

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:
«اجْتَنِبوا هذه القاذوراتِ التي نَهى الله عنها، فمَن أَلَمَّ فلْيَستَتِرْ بسِترِ اللهِ، ولْيَتُبْ إلى اللهِ؛ فإنَّه مَن يُبدِ لنا صَفحَتَه، نُقِمْ عليه كتابَ اللهِ عزَّ وجلَّ»

رواه الطحاوي وهو مرسلٌ عن زيد بن أسلم

فالإعلام الراشد يستر الأشخاص، ويعالج الأفكار والسلوكيات، ويحذر من المنكر دون تحويله إلى مادة فضائح أو إثارة أو تشهير.

سابعًا: الإعلام يفتح باب التوبة ولا يغلقه

من العلاج الصحيح أن يقدم الإعلام خطابًا يوقظ الخوف من الله، ولا يدفع الناس إلى اليأس، ويفتح أمامهم باب التوبة والرجوع.

قال تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿سورة الزمر﴾

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

والإعلام العلاجي لا يكتفي بعرض الانهيار والانحراف، بل يعرض طريق النجاة من: التوبة، والصبر، وغض البصر، والصوم، والزواج، وطلب العلم، وترك الصحبة الفاسدة.

قال ابن رجب رحمه الله:

المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير

ثامنًا: صنع قدوات العفة

كثير من الناس يتأثرون بمن يظهر أمامهم في الإعلام، فإذا لم تُقدَّم القدوات الصالحة، ملأ أهل الشهوة والفساد المساحة.

قال تعالى:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ﴿سورة الأحزاب﴾

وقال سبحانه:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿سورة الأنعام﴾

فمن دور الإعلام أن يبرز نماذج الشباب العفيف، والأسرة المستقرة، والداعية الحكيم، والعالم الرباني، والتائب الصادق، والمرأة العفيفة،

والرجل الغيور، بدلًا من جعل الشهرة حكرًا على أهل الفساد والمجون والإثارة.

عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَن دَلَّ على خيرٍ ، فلَهُ مِثلُ أجْرِ فاعِلِهِ» رواه مسلم
ومن قدم قدوةً صالحةً دل الناس على الخير بصورة عملية ومؤثرة.

تاسعًا: رد الشبهات المعاصرة

الفاحشة اليوم لا تنتشر بالشهوة وحدها، بل بالشبهة أيضًا مثل: الحرية الشخصية، والتمثيل فقط، والاسترزاق، والتطبيع الثقافي، والجندر، والعلاقات الرقمية، والواقع الجديد.
ومن هذا المنطلق يأتي دور الإعلام الصالح في الرد على هذه الشبهات بلغة واضحة، ورحيمة، وقوية، ومفهومة.
قال تعالى:
﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾
وقال سبحانه:
﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ﴿سورة الأنبياء﴾
وقال تعالى:
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النحل﴾
والرد على الشبهات لا يكون بالصراخ وحده، بل بالعلم، والحكمة، والبيان، وحسن العرض، واستضافة أهل الاختصاص والدين.
قال ابن القيم رحمه الله:
الشبهات إنما تُدفع بالعلم، والشهوات إنما تُدفع بالصبر.

عاشرًا: بناء الإعلام للوعي الأسري

من أعظم ميادين العلاج الإعلامي توعية الأسرة: كيف تربي الأبناء على الحياء، وكيف تضبط الأجهزة، وكيف تفتح الحوار، وكيف تكتشف مقدمات الانحراف، وكيف تعالج الخطأ برحمة وحزم.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿سورة التحريم﴾

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ فالأميرُ الذي على الناسِ راعٍ عليهم وهو مسؤولٌ عنهم والرجلُ راعٍ على أهلِ بيتِهِ وهو مسؤولٌ عنهم والمرأةُ راعيةٌ على بيتِ بعلها وولدِهِ وهي مسؤولةٌ عنهم وعبدُ الرجلِ راعٍ على بيتِ سيدِهِ وهو مسؤولٌ عنهُ ألا فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ» متفق عليه

وقال علي رضي الله عنه في تفسير الآية: علموهم وأدبوهم

والإعلام يستطيع أن يجعل الأسرة أكثر وعيًا بخطر الإباحية، والعلاقات الرقمية، والاستدراج، والابتزاز، وضعف الرقابة، دون إثارة فزع أو فضول، بل بتوجيه عملي نافع.

حادي عشر: تقديم البديل النظيف

لا يكفي أن يُمنع الناس من الحرام، بل لا بد من تقديم بديل نافع ومصلح، لأن النفوس تحتاج إلى ما يشغلها ويرتقي بها.

قال تعالى:

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ ﴿سورة الشرح﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«احرِص على ما ينفعُكَ واستعِن باللَّهِ ولا تعجِزْ» رواه مسلم وابن ماجه

ومن دور الإعلام أن يقدم محتوى نافعًا جذابًا مثل: القصص الهادفة، والبرامج الأسرية، والدراما النظيفة، والمسابقات الدينية والعلمية، والحوارات الشبابية، وحملات عفة، والمواد التربوية، والمحتوى الذي يعلي قيمة الطهر دون جفاف أو ضعف في التأثير.

قال ابن القيم رحمه الله:

القلوب إذا لم تُشغل بالحق شغلتها الشهوات والباطل.

ثاني عشر: إعادة الاعتبار لقيمة الزواج

من العلاج الإعلامي أن يقدم الزواج بصورة شرعية واقعية جميلة، لا أن يجعله موضع سخرية أو رعب أو عبء، ولا أن يتم تجمل العلاقات المحرمة على حساب الحلال.

قال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿سورة الروم﴾

وقال سبحانه:

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿سورة النور﴾

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قال لَنا النَّبيُّ ﷺ:

«يا مَعشَرَ الشَّبابِ، مَنِ استَطاعَ منكمُ الباءةَ فليَتَزَوَّجْ، ومَن لم يَستَطِعْ فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّه له وِجاءٌ» متفق عليه

فالإعلام الصالح يعالج أزمة الفاحشة بتشجيع الحلال، وتيسير مفاهيم الزواج، ومحاربة المغالاة، وتصحيح صورة الأسرة، وإظهار بركة السكن والمودة والرحمة.

ثالث عشر: التحذير من الإباحية بلا ترويج لها

ينبغي للإعلام أن يحذر من الإباحية وآثارها دون أن يعرض مشاهدها، أو يصف تفاصيلها بطريقة تثير الخيال، أو تفتح أبواب الفضول.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

وقال سبحانه:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«العينانِ تزنيانِ وزناهما النظرُ» متفق عليه

فالتحذير من الحرام لا يكون باستعراضه، ولا علاج السموم بتقديم جرعات منها للناس، بل ببيان خطرها، وطرق الوقاية منها، وفتح باب العلاج لمن ابتلي بها.

قال ابن تيمية رحمه الله:

كل ما كان سببًا للفتنة والفساد فإنه يُنهى عنه، فإن الشريعة جاءت بسد الذرائع المفضية إلى الحرام.

رابع عشر: الإعلام واللغة النظيفة

الكلمات تصنع الوعي، فإذا استعمل الإعلام ألفاظًا تزين الفاحشة، ضعف إنكار الناس لها. وإذا استعمل الألفاظ الشرعية المنضبطة، عاد للمعاني وزنها الصحيح.

قال تعالى:

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وقال سبحانه:

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فليَقُلْ خَيرًا أو ليصمُتْ» متفق عليه
فلا ينبغي أن تسمى الخيانة حبًا، ولا الفاحشة حرية، ولا التبرج ثقة، ولا الدياثة انفتاحًا، ولا الإباحية ترفيهًا.
فاللغة النظيفة هي جزء من العلاج، والاسم إذا فسد فسد التصور.

خامس عشر: محاربة المجاهرين لا التائبين

ينبغي أن يوجه الإعلام خطابه ضد المنكر والمجاهر والمروج، لا ضد من تاب أو ابتلي ويريد النجاة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
« كلُّ أُمَّتي مُعافًى إلا المجاهرين ، و إنَّ من الجِهارِ أن يعملَ الرجلُ بالليلِ عملًا ثم يُصبِحُ و قد ستره اللهُ تعالى فيقولُ : عملتُ البارحةَ كذا و كذا ، و قد بات يسترُه ربُّه ، و يُصبِحُ يكشفُ سِترَ اللهِ عنه» متفق عليه
وقال سبحانه:
﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿سورة المائدة﴾
فمن العلاج أن يُحاصر خطاب المجاهرة، وأن يُمنع تحويل الفاحشة إلى بطولة وشهرة، وأن يُدعم التائبون والباحثون عن العفة.
قال ابن القيم رحمه الله:
العبد بين ذنب ونعمة، ولا يصلحهما إلا الاستغفار والشكر.

سادس عشر: الإعلام يربي على المسؤولية لا الاستهلاك

من أخطر أمراض الإعلام الفاسد أنه يجعل الإنسان مستهلكًا للشهوة، متلقيًا للصور، منقادًا للمؤثرات.
أما الإعلام الصالح فيربي على المسؤولية، والاختيار الواعي، ومحاسبة النفس.
قال تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ﴿سورة الزلزلة﴾

وقال سبحانه: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ ﴿سورة القيامة﴾

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الكَيِّسُ مَن دان نفسَه وعمِل لما بعدَ الموتِ والعاجِزُ مَن أتبَع نفسَه هَواها وتمنَّى على اللهِ الأمانيَّ» رواه الترمذي وأحمد

فالإعلام العلاجي يوقظ الضمير، ولا يخدره؛ ويجعل المشاهد يسأل نفسه: ماذا أشاهد؟ ولماذا أتابع؟ وما أثر هذا على قلبي وبيتي وديني؟

سابع عشر: الإعلام وأثر القدوة السيئة

إذا جعل الإعلام أهل الفاحشة نجوماً، وأهل الجرأة على الحرام قدوات، فإنه يصنع انحرافًا واسعًا في الذوق العام.

قال تعالى:

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ﴿سورة الكهف﴾

وقال سبحانه:

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿سورة الأنعام﴾

فليس كل مشهور يصلح أن يكون مؤثرًا في أخلاق الأمة، وليس كل من حاز المتابعين يستحق أن يوجه الأجيال.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله:

اتبع طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين.



ثامن عشر: الإعلام شريك في بناء بيئة العفة

علاج الفاحشة لا يقوم على الفرد وحده، بل يحتاج إلى بيئة تعين على الخير: أسرة، ومسجد، ومدرسة، وإعلام، وقانون، ومؤسسات. والإعلام من أقوى عناصر هذه البيئة.

قال تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ﴿سورة المائدة﴾

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« مَن دَلَّ على خيرٍ ، فلَهُ مِثلُ أجْرِ فاعِلِهِ» رواه مسلم

فإذا تعاون الإعلام مع العلماء والمربين والأسر وأهل الاختصاص، أمكن بناء خطاب علاجي متكامل: يحذر، ويعلم، ويحتوي، ويقدم البديل، ويقود الناس إلى العفة.

تاسع عشر: ضوابط الإعلام في علاج الفاحشة

حتى يكون الإعلام علاجًا لا سببًا للمرض، لا بد أن يلتزم بضوابط، منها:

- عدم عرض المشاهد المثيرة أو الألفاظ الفاحشة.
- عدم تحويل الفواحش إلى مادة تشويق أو تسلية.
- عدم تسمية الحرام بأسماء تجمله.
- ستر الأشخاص والضحايا والتائبين.
- استضافة أهل العلم والاختصاص لا أهل الإثارة.
- تقديم حلول عملية لا مجرد صدمات عاطفية.
- مراعاة أعمار الجمهور وحالهم.
- عدم نشر تفاصيل تفتح الفضول أو التقليد.
- ترسيخ الحياء والعفة والغيرة المحمودة.

- تقديم بدائل نافعة وجذابة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فليَقُلْ خَيرًا أو ليصمُتْ» متفق عليه
فما لا يحقق خيرًا ظاهرًا، أو يفتح باب شر غالبًا، فالصمت عنه أولى من نشره.

عشرون: الإعلام صدقة جارية أو سيئة جارية

المادة الإعلامية لا تنتهي بانتهاء عرضها، بل قد تبقى وتنتشر وتؤثر في أجيال. فإن كانت خيرًا كانت باب أجر وثواب، وإن كانت شرًا كانت باب وزر.

قال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿سورة يس﴾

فكل من ملك قلمًا أو شاشة أو كاميرا أو منصة عليه أن يتق الله؛ لأن أثره قد يبقى بعد موته، إما نورًا يهدي الناس، وإما ظلمة تجر عليهم الفتنة.باب دور العلماء والدعاةالعلماء والدعاة هم أصحاب الدور العظيم في حماية الأمة من الفاحشة ومقدماتها؛ لأنهم ورثة الأنبياء، وحملة البيان، وأهل البلاغ عن الله ورسوله ﷺ.

فإذا قام العلماء والدعاة بواجبهم في التعليم، والبيان، والتحذير، والرد على الشبهات، وإحياء الحياء، وتوجيه الشباب، وحفظ الأسرة، ضعف سلطان الفاحشة، وانكشفت زينتها، وبقي في الأمة صوت الحق الذي يميز بين الطهر والخبث، وبين الحرية المنضبطة بشرع الله والانفلات الذي يفسد القلب والمجتمع.

وليست مواجهة الفاحشة مسؤولية فردية فحسب، بل هي واجب شرعي وعلمي وتربوي، يحتاج إلى علم راسخ، وبصيرة بالواقع، ورحمة بالخلق، وصدق في النصيحة، وحكمة في الخطاب.

فإن الفاحشة المعاصرة لا تنتشر بالشهوة وحدها، بل تنتشر بالشبهة، والتزيين، والإعلام، والضغط الاجتماعي، وتغيير الأسماء، وتطبيع المنكر، والسخرية من العفة والحياء.

قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾

(سورة آل عمران)

وهذه الآية دليل على عظم أمانة البيان، وأن العلم ليس للستر والكتمان عند حاجة الناس إليه، بل ليظهر به الحق، ويُكشف به الباطل، وتُصان به الأمة من الفتن.

قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

(سورة التوبة)

وهنا جعل الله من مقاصد التفقه في الدين إنذار الناس وتحذيرهم، حتى يحذروا أسباب الهلاك، ومن أعظم ما يحتاج الناس إلى التحذير منه في هذا الزمان هي أبواب الفاحشة ومداخلها المعاصرة.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من سلك طريقًا يطلبُ فيه علمًا ، سلك اللهُ به طريقًا من طرقِ الجنةِ، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتَها رضًا لطالبِ العلمِ، وإنَّ العالِمَ ليستغفرُ له من في السماواتِ ومن في الأرضِ، والحيتانُ في جوفِ الماءِ، وإنَّ فضلَ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ ، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، ورَّثُوا العِلمَ فمن أخذَه أخذ بحظٍّ وافرٍ» رواه أبو داود والترمذي

ومن ورث علم الأنبياء ورث معه مهمة البلاغ، والدعوة، والتحذير، والرحمة بالناس، وإخراجهم من ظلمات الجهل والهوى إلى نور الوحي والهداية.

باب دور المجتمع

الدولة في التصور الإسلامي ليست جهازًا إداريًا محايدًا تجاه أخلاق المجتمع، بل هي راعية للدين، حامية للأعراض، قائمة على العدل، مسؤولة عن حفظ الضروريات، ومن أعظمها: حفظ الدين، والعرض، والنسل، والأمن، والأخلاق العامة. وإذا كانت الفاحشة المعاصرة قد اتخذت صورًا واسعة عبر الإعلام، والتقنية، والأسواق، والتعليم، والعلاقات الرقمية، فإن علاجها لا يكتمل بجهد الفرد والأسرة والعلماء وحدهم، بل لا بد من دورٍ عام يحمي المجتمع، ويمنع أسباب الفساد، ويفتح أبواب العفة، ويردع الناشرين المتاجرين بالشهوات.

أولًا: رعاية الدين والأخلاق

جعل الشرع الولاية مسؤولية وأمانة، لا تشريفًا مجردًا، ومن أعظم ما يدخل في هذه المسؤولية حماية المجتمع من الفساد والفاحشة.

قال تعالى:

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ ﴿سورة الحج﴾

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿سورة النحل﴾

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ فالأميرُ الذي على الناسِ راعٍ عليهم وهو مسؤولٌ عنهم والرجلُ راعٍ على أهلِ بيتِهِ وهو مسؤولٌ عنهم والمرأةُ راعيةٌ على بيتِ بعلها وولدِهِ وهي مسؤولةٌ عنهم وعبدُ الرجلِ راعٍ على بيتِ سيدِهِ وهو مسؤولٌ عنهُ ألا فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ» متفق عليه

فمن تولى أمر الناس فهو مسؤول عن دينهم وأمنهم وأخلاقهم بقدر ما يستطيع، وليس له أن يترك المجتمع فريسة لأهل الشهوات والفساد.

قال ابن تيمية رحمه الله:

ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها

ثانيًا: إقامة المعروف والنهي عن المنكر من وظائف الدولة

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب عام، لكنه في حق الدولة أعظم أثرًا؛ لأنها تملك من الوسائل والسلطان ما لا يملكه الأفراد.

قال تعالى:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

وقال سبحانه:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ ﴿سورة آل عمران﴾

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من رأى منكم منكرًا فليغيرْه بيدِه فإن لم يستطعْ فبلسانِه فإن لم يستطعْ فبقلبِه وذلك أضعفُ الإيمانِ» رواه مسلم وابن ماجه

وقال الإمام النووي رحمه الله:

هذا الحديث أصل عظيم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ودور الدولة هنا أن تمنع المنكرات العامة التي تفسد المجتمع، وأن تقيم من الأنظمة والمؤسسات ما يحفظ العفة والحياء والأعراض.

ثالثًا: منع إشاعة الفاحشة في المجتمع

من أعظم واجبات الدولة منع كل طريق يؤدي إلى إشاعة الفاحشة، سواء كان عبر إعلام، أو تجارة، أو منصات رقمية، أو أعمال فنية، أو شبكات استغلال، أو أماكن فساد.

قال تعالى:
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النور﴾
وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ ﴿سورة المائدة﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَن دعا إلى هُدًى كان له مِن الأجرِ مِثْلُ أجورِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن أجورِهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه مِن الإثمِ مِثْلُ آثامِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن آثامِهم شيئًا» رواه مسلم وأحمد
وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير آية النور:
أي يحبون ظهور الفواحش وانتشارها في المؤمنين.
وكل جهة أو مؤسسة أو منصة أو تجارة تجعل الفاحشة مادة نشر أو ربح أو ترفيه أو تطبيع، فهي داخلة في باب الإفساد العام الذي يجب منعه بحسب الشرع والقدرة والمصلحة.

رابعًا: بناء الأنظمة التي تحمي العفة والحياء

من دور الدولة أن تضع من القوانين والأنظمة ما يمنع الاعتداء على الأخلاق العامة، ويحمي المجتمع من المواد الفاسدة، ويصون الأطفال والنساء والرجال من الاستغلال، ويمنع المتاجرة بالشهوات.
قال تعالى:
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾
وقال سبحانه:
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ﴿سورة الأنعام﴾
وقال تعالى:
﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ﴿سورة الأعراف﴾
فالنهي عن قربان الفواحش يدل على وجوب سد أبوابها، لا الاكتفاء بعقوبة نهاياتها.

قال ابن القيم رحمه الله:
الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها.
ولهذا فإن منع أسباب الفاحشة من أعظم أبواب السياسة الشرعية العادلة.

خامسًا: حماية الإعلام من نشر الفاحشة

الإعلام قد يكون أداة إصلاح أو أداة إفساد، ومن واجب الدولة أن تمنع ما يفسد الحياء ويزين الفاحشة، وأن تدعم المحتوى النافع الذي يعزز العفة والأسرة والقيم.
قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فليَقُلْ خَيرًا أو ليصمُتْ» متفق عليه
فإذا كانت الكلمة الفردية مسؤولية، فالكلمة الإعلامية أعظم مسؤولية؛ لأنها تصل إلى ملايين الناس، وتؤثر في الأطفال والشباب والبيوت.
قال ابن تيمية رحمه الله:
كل ما كان سببًا للفتنة والفساد فإنه يُنهى عنه، فإن الذريعة إلى الفساد يجب سدها

سادسًا: مكافحة الإباحية والمنصات المفسدة

من صور الفاحشة المعاصرة انتشار الإباحية عبر المواقع والتطبيقات والحسابات، ومن دور الدولة أن تكافحها بالتشريع، والحجب، والمتابعة، والتوعية، وملاحقة من يصنعها أو ينشرها أو يتربح منها ويستغل بها الناس.
قال تعالى:
﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

وقال سبحانه:
﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ﴿سورة غافر﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«كتب على ابنِ آدمَ حظُّه من الزنا فهو مدركٌ ذلك لا محالةَ ، فالعينانِ تزنيانِ وزناهما النظرُ ، والأذنانِ تزنيانِ وزناهما السمعُ ، واليدان تزنيان وزناهُما البطشُ ، والرِّجلانِ تزنيانِ وزناهُما المشيُ ، والقلبُ يتمنى ويشتهي ، والفرجُ يصدقُ ذلك أو يكذبُه» متفق عليه

فإذا كانت الشريعة تحاسب الفرد على نظره، فكيف بمن يصنع المنصات التي تفتح أبواب النظر المحرم على الأمة كلها؟

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنَّ اللهَ تعالى إذا حرَّمَ شَيئًا حرَّمَ ثَمَنَه» رواه الدارقطني وأحمد

فكل صناعة قائمة على الفاحشة، أو نشرها، أو التربح منها، كسبها خبيث، ومنعها من حماية الدين والمجتمع.

سابعًا: حماية الأطفال من الاستغلال والانحراف

من أعظم واجبات الدولة حماية الأطفال من الاستغلال الجنسي، ومن المحتوى الإباحي، ومن الاستدراج الرقمي، ومن كل بيئة تهدد براءتهم وفطرتهم.

قال تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿سورة التحريم﴾

وعن جد عمرو بن شعيب رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ:
«ليسَ منَّا من لم يرحَم صغيرَنا ويعرِفْ شرفَ كبيرِنا» رواه أبو داود والترمذي وأحمد

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:
«كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ» متفق عليه

فإذا كانت الأسرة مسؤولة عن أطفالها، فالدولة مسؤولة عن حماية البيئة العامة التي يعيش فيها الأطفال، وعن ردع من يستغلهم أو يفسدهم أو يبيع براءتهم بثمن خبيث.

قال ابن القيم رحمه الله:

الصغير أمانة عند والديه، وقلبه جوهرة نفيسة ساذجة، فإن عُوّد الخير نشأ عليه، وإن عُوّد على الشر شقي وهلك به.

ثامنًا: محاربة الاتجار بالبشر والاستغلال الجنسي

الاتجار بالأعراض، واستغلال النساء أو الأطفال أو الضعفاء في الفاحشة، من أعظم صور الظلم والعدوان والإفساد في الأرض، ولا يليق بدولة تقيم الدين والعدل أن تتهاون فيه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وقال سبحانه: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ ﴿سورة الشعراء﴾

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« اتَّقُوا الظُّلمَ ؛ فإنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ، واتَّقُوا الشُّحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلكَ مَن كانَ قبلَكُم، حملَهُم على أنْ سَفكُوا دِمائَهم، واستَحَلُّوا مَحارِمَهم» رواه مسلم

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿سورة النور﴾

وهذه الآية أصل عظيم في تحريم استغلال الضعفاء في الفاحشة، وفي ذم من يتاجر بأعراض الناس طلبًا للمال.

تاسعًا: دعم الزواج وتيسيره

علاج الفاحشة لا يكون بالمنع فقط، بل بفتح أبواب الحلال، وأعظمها الزواج. ومن دور الدولة أن تعين على الزواج، وتخفض أعباءه، وتدعم الشباب، وتقاوم العادات التي تعسر الحلال.

قال تعالى:
﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿سورة النور﴾

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قال لَنا النَّبيُّ ﷺ:
«يا مَعشَرَ الشَّبابِ، مَنِ استَطاعَ منكمُ الباءةَ فليَتَزَوَّجْ، ومَن لم يَستَطِعْ فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّه له وِجاءٌ» متفق عليه

وعن أبي حاتم المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إذا جاءَكُم مَن تَرضَونَ دينَهُ وخُلقَهُ، فأنكِحوهُ، إلَّا تَفعلوهُ تَكُن فِتنةٌ في الأرْضِ وفَسادٌ كبيرٌ، وفي روايةٍ: عَريضٌ: قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ وإن كانَ فيهِ قالَ: إذا جاءَكُم مَن تَرضَونَ دينَهُ وخلقَهُ فأنكِحوهُ قالَها ثَلاثَ مرَّاتٍ» رواه البخاري والترمذي وابن معين

فمن دور الدولة أن تعالج أسباب تأخر الزواج، وأن تنشئ المبادرات والصناديق والبرامج التي تعين على العفة، وأن توجه المجتمع إلى اليسر وترك المغالاة.

عاشرًا: إصلاح التعليم وبناء الوعي

التعليم من أعظم ميادين العلاج؛ فمن خلاله تُغرس قيم الحياء والعفة، وتُصحح المفاهيم حول الأسرة والجسد والشهوة والهوية، ويُحمى الشباب من الشبهات المعاصرة.

قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿سورة طه﴾

وقال سبحانه:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿سورة الزمر﴾

وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:
«مَن يُرِدِ اللهُ به خَيرًا يُفَقِّهْه في الدِّينِ، وإنَّما أنا قاسِمٌ ويُعطي اللهُ، ولَن يَزالَ أمرُ هذه الأُمَّةِ مُستَقيمًا حتَّى تَقومَ السَّاعةُ، أو: حتَّى يَأتيَ أمرُ اللهِ» متفق عليه

فالدولة التي تريد علاج الفاحشة تحتاج إلى تعليم يحفظ الفطرة، ويشرح للطلاب أخطار الإباحية والعلاقات المحرمة، ويعلمهم غض البصر، والحياء، والمسؤولية، وتعظيم حدود الله، بأسلوب يناسب أعمارهم وواقعهم.

قال ابن القيم رحمه الله:

حاجة الناس إلى العلم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس.

حادي عشر: دعم الأسرة وتقوية دورها

الأسرة هي خط الدفاع الأول، لكن كثيرًا من الأسر تحتاج إلى دعم وتوجيه، ومن دور الدولة أن تقوي الأسرة، وتساند الوالدين، وتوفر برامج إرشاد وتوعية وحماية.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ ﴿سورة النحل﴾

وقال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ﴿سورة الفرقان﴾

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«الرجلُ راعٍ على أهلِ بيتِهِ وهو مسؤولٌ عنهم والمرأةُ راعيةٌ على بيتِ بعلها وولدِهِ وهي مسؤولةٌ عنهم» متفق عليه

ومن واجب الدولة أن تجعل الأسرة قوية لا متروكة وحدها أمام طوفان الإعلام والشهوات، وذلك بالتوعية، والدعم، والاستشارات، والسياسات التي تحفظ استقرار البيت والأسرة.

ثاني عشر: حماية الفضاء الرقمي

لم تعد الفاحشة محصورة في مكانٍ ظاهر، بل صارت تدخل عبر الهاتف والإنترنت، ولذلك صار من واجب الدولة أن تحمي الفضاء الرقمي من

المحتوى الفاسد، والابتزاز، والاستدراج، والإباحية، وشبكات العلاقات المحرمة.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿سورة الإسراء﴾

وقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ﴿سورة النور﴾

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ﴿سورة النساء﴾

فحماية المجتمع اليوم لا تقتصر على الشوارع والأسواق، بل تشمل التطبيقات والمنصات والمواد الرقمية التي تصل إلى البيوت والجيوب.

قال ابن تيمية رحمه الله:

ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

فإذا كان حفظ الأعراض والناشئة واجبًا، فإن الوسائل التي لا يتم الحفظ إلا بها تدخل في هذا الواجب بحسب القدرة والاستطاعة.

ثالث عشر: إقامة العدل وردع المعتدين

من دور الدولة أن تردع من يعتدي على الأعراض، أو يبتز الناس، أو ينشر الفاحشة، أو يستغل الأطفال والنساء والضعفاء، أو يتاجر بالإباحية.

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

﴿سورة النساء﴾

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ ﴿سورة الأنعام﴾

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

«إنما هلك الذين قبلَكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهمُ الشريفُ تركوه، وإذا سرق فيهمُ الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ، وأيمُ اللهِ لو أن فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقتْ لقطعتُ يدَها» متفق عليه

فالعدل في هذا الباب أن يُحمى الضعيف، وأن لا يُترك صاحب النفوذ أو المال يفسد في أعراض الناس، وأن لا يُظلم أحد، وأن تكون الأحكام منضبطة بالشرع والقضاء لا بالفوضى والتشهير.

رابع عشر: الستر على الضحايا والتائبين

الدولة مطالبة بمحاربة الفاحشة، لكنها مطالبة أيضًا بحفظ كرامة الضحايا، وستر التائبين، ومنع تحويل المعاصي إلى فضائح عامة، لأن المقصود الإصلاح لا التشهير.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ ﴿سورة الحجرات﴾

وعن مسلمة بن مخلد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من ستر مسلمًا في الدنيا ستره اللهُ في الدنيا والآخرةِ ومن نجَّى مكروبًا فكَّ الله عنه كربةً من كُربِ يومِ القيامةِ ومن كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ عزَّ وجلَّ في حاجتِه» رواه ابن المقريء

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«اجْتَنِبوا هذه القاذوراتِ التي نَهى الله عنها، فمَن أَلَمَّ فلْيَستَتِرْ بسِترِ اللهِ، ولْيَتُبْ إلى اللهِ؛ فإنَّه مَن يُبدِ لنا صَفحَتَه، نُقِمْ عليه كتابَ اللهِ عزَّ وجلَّ»

رواه الطحاوي الحاكم والبيهقي

فالسياسة الشرعية الحكيمة تفرّق بين التائب المستتر الذي يحتاج إلى ستر وإصلاح، وبين المجرم المجاهر أو المعتدي أو المفسد الذي يجب ردعه وحماية الناس من شره.

خامس عشر: فتح مراكز العلاج والإرشاد

من ابتُلي بالإباحية أو الإدمان السلوكي أو العلاقات المحرمة أو الشذوذ أو غير ذلك من أبواب الفتنة يحتاج أحيانًا إلى علم شرعي، وإرشاد نفسي، وبيئة علاجية، ومتابعة تربوية. ومن دور الدولة إنشاء مؤسسات آمنة تعين على التوبة والعلاج.

قال تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿سورة المائدة﴾

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما أنزل اللهُ داءً إلا أنزل له شفاءً علمَهُ من علمه وجهلَه من جهِله» رواه البخاري

فالعلاج لا يكون بالوعظ وحده دائمًا، بل قد يحتاج إلى برامج تجمع بين الإيمان، والعلم، والتربية، والاستشارة، وحماية الخصوصية، ومتابعة السلوك.

سادس عشر: محاربة الفقر والبطالة المؤدية للانحراف

الفاحشة لا تنشأ من الفقر وحده، لكنها قد تستغل حاجة الناس وضعفهم.

ولذلك من دور الدولة أن تحارب أسباب الاستغلال، وتفتح أبواب العمل الحلال، وتحمي المحتاجين من أن يدفعهم الفقر إلى أبواب الحرام.

قال تعالى:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿سورة البقرة﴾

وقال سبحانه:

﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ ﴿سورة النور﴾

وعن المقدام بن معدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« ما أكلَ أحدٌ طعامًا قطُّ ، خيرًا من أنْ يأكلَ من عمَلِ يدِهِ وإنَّ نبيَّ اللهِ داودَ كان يأكلُ من عمَلِ يدِهِ» رواه البخاري

ففتح أبواب الكسب الحلال، ودعم الفقراء، وحماية النساء والأطفال والضعفاء من الاستغلال، كل ذلك من العلاج العام للفاحشة.

سابع عشر: رعاية الشباب وملء أوقاتهم بالنافع

الشباب أكثر الفئات تعرضًا للفتنة، ومن دور الدولة أن توفر لهم بيئات نافعة: تعليمًا، ورياضة، ومهارات، ومراكز شبابية، وبرامج تطوعية، وفرص عمل، ومحتوى هادفًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«سَبعةٌ يُظِلُّهمُ اللهُ يَومَ القيامةِ في ظِلِّه يَومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه وذكر منهم: وشابٌّ نَشَأ في عِبادةِ اللهِ» متفق عليه

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لرجلٍ وهو يَعِظُه:

«اغتنِمْ خمسًا قبل خمسٍ : شبابَك قبل هَرَمِك، وصِحَّتَك قبل سَقَمِك، وغناك قبل فقرِك، وفراغَك قبل شُغلِك، وحياتَك قبل موتِك»

رواه ابن أبي الدنيا والحاكم

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

« نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ منَ النَّاسِ الصِّحَّةُ والفراغُ» رواه البخاري

فإذا تُرك الشباب للفراغ والشاشات والبطالة، سهلت عليهم أبواب الفاحشة، وإذا فُتحت لهم أبواب الخير والعمل والرياضة والعلم، قويت فيهم العفة والمسؤولية.

ثامن عشر: التعاون مع العلماء والدعاة وأهل الاختصاص

علاج الفاحشة المعاصرة يحتاج إلى تكامل: علماء يبينون الحكم، ودعاة يخاطبون القلوب، ومربون يوجهون السلوك، ومختصون يفهمون الإدمان والاضطرابات، وإعلاميون يحسنون البيان.

قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة النحل﴾

وقال سبحانه:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿سورة المائدة﴾

وعن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«الدِّينُ النَّصيحةُ. قُلنا: لمَن؟ قال: للَّهِ ولكِتابِه ولرَسولِه، ولأئِمَّةِ المُسلِمينَ وعامَّتِهم» رواه مسلم وأبو داود

فالدولة الراشدة لا تعالج الفاحشة بمنظور أمني فقط، ولا بمنظور ثقافي فقط، بل بمنهج متكامل يجمع بين الشرع، والتربية، والوقاية، والعلاج، والردع.

تاسع عشر: حماية الهوية والفطرة من الغزو الأخلاقي

من واجب الدولة حماية هوية المجتمع من المفاهيم التي تهدم الفطرة، كالتطبيع مع الفاحشة، وإلغاء الفروق بين الذكر والأنثى، وتقديم الانحراف على أنه نمط حياة مقبول.

قال تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿سورة الروم﴾

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ ﴿سورة النجم﴾

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال:
«لَعَنَ رَسولُ اللهِ ﷺ المُتَشَبِّهينَ مِنَ الرِّجالِ بالنِّساءِ، والمُتَشَبِّهاتِ مِنَ النِّساءِ بالرِّجالِ» رواه البخاري

فحماية الفطرة ليست حربًا على الأشخاص، بل حماية للمجتمع من المفاهيم التي تفسد الأسرة، وتربك الأحكام، وتطعن في حكمة الخالق.

عشرون: الدولة بين الرحمة والحزم

العلاج الشرعي يجمع بين الرحمة والحزم؛ رحمة بالمبتلى والتائب والضحية، وحزم مع المفسد والمعتدي والمروج للفاحشة.

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿سورة النحل﴾

وقال سبحانه:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾

﴿سورة المائدة﴾

وعن مغفل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ اللهَ رَفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، ويُعطي على الرِّفقِ ما لا يُعطي على العُنفِ، وما لا يُعطي على ما سِواه» متفق عليه

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«انصُرْ أخاك ظالِمًا أو مَظلومًا. فقال رَجُلٌ: يا رَسولَ اللهِ، أنصُرُه إذا كان مَظلومًا، أفَرَأيتَ إذا كان ظالِمًا، كيفَ أنصُرُه؟ قال: تَحجُزُه -أو تَمنَعُه- مِنَ الظُّلمِ؛ فإنَّ ذلك نَصرُه» رواه البخاري

فمن الرحمة بالمجتمع أن يُمنع المفسد من فساده، ومن الرحمة بالمذنب أن يُفتح له باب التوبة، ومن الرحمة بالضحية أن تُحمى كرامتها وحقوقها.

حادي وعشرون: إقامة القدوة في مؤسسات الدولة

من أعظم ما يعين الدولة على علاج الفاحشة أن تكون مؤسساتها قدوة في النزاهة والحياء والعدل وصيانة الكرامة، لأن التناقض بين الخطاب والواقع يضعف أثر الإصلاح.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿سورة الصف﴾

وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« خِيارُ أئِمَّتِكُمُ الَّذينَ تحبُّونَهُم ويحبُّونَكُم وتُصلُّونَ علَيهِم ويصلُّونَ علَيكُم وشرارُ أئِمَّتِكُمُ الَّذينَ تبغَضونَهُم ويبغَضونَكُم وتلعنونَهُم ويَلعنونَكُم قُلنا : يا رسولَ اللَّهِ أفلا نُنابذُهُم ؟ قالَ : لا ما أقاموا فيكُمُ الصَّلاةَ ألا مَن ولِيَ علَيهِ والٍ فرآهُ يأتي شَيئًا مِن معصيةِ اللَّهِ فليَكْرَهْ ما يَأتي مِن معصيةِ اللَّهِ ولا ينزِعَنَّ يدًا مِن طاعةٍ» رواه مسلم وأحمد والدارمي

فالناس يتأثرون بالفعل قبل القول، فإذا رأوا عدلًا، وسترًا، وحزمًا، وطهرًا في المؤسسات، قوي فيهم احترام القانون والشرع والقيم.

ثاني وعشرون: ليست العقوبات وحدها علاجًا

العقوبة قد تكون واجبة في مواضعها، لكنها ليست العلاج الوحيد.

فالعلاج الكامل يبدأ بالوقاية، ثم التعليم، ثم تيسير الحلال، ثم العلاج، ثم الردع عند الحاجة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿سورة الأنبياء﴾

وقال سبحانه:

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

﴿سورة النحل﴾

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَسِّروا ولا تُعَسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا» متفق عليه

فالدولة الراشدة لا تنتظر انتشار الفاحشة ثم تعاقب فقط، بل تغلق أسبابها، وتفتح أبواب العفة، وتربي الناس، وتبني منظومة طاهرة تعينهم على النجاة.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبرحمته تُفتح أبواب الهداية والتوبة والبركات.

وبعد؛ فبعد بيان خطر الفاحشة على العباد وفطرتهم والأسرة والمجتمع، فأوصي وأنصح نفسي وإياكم بأمور وهي:

أولاً: وصية الله للأولين والأخرين

قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ (سورة النساء)

ثانيًا: أن يحفظ الشباب بصرهم وقلوبهم، وأن تحفظ الفتيات حيائهن وعفتهن، وأن تحفظ كل أسرة أبناءها بالحب والرقابة الرحيمة، وأن يقوم المجتمع على نشر العفة وتيسير الحلال ورفض تطبيع المنكر.

ثالثًا: أذكر من وقع في الذنب أن باب التوبة مفتوح، وأن رحمة الله أوسع من خطيئته.

قال تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة الزمر)

اللهم طهر قلوبنا، واحفظ شباب المسلمين وفتياتهم، واجعل بيوتنا بيوت عفة وحياء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا مزيدًا.

الفهرس

الفاحشة المعاصرة 3

المقدمة 5

مقدمات الفاحشة 11

(الهاتف والإنترنت) 19

باب الفراغ 27

باب صحبة السوء 35

باب تعسر الزواج 45

باب ضعف الرقابة الأسرية 55

باب أثر الفاحشة على الفطرة 76

باب أثر الفاحشة الأسرة 82

باب أثر الفاحشة على المجتمع 88

باب الاستمناء (العادة السرية) 95

باب الزنا 103

باب زنا المحارم 112

باب الدياثة 118

باب تبديل الزوجات 127

باب اللِّواط والسِّحاق 132

باب الاستغلال الجنسي للأطفال 138

باب انتشار الجرائم الجنسية 147

باب تصوير الفاحشة ونشرها 155

باب شبهة "الحرية الشخصية" 164
باب شبهة "التمثيل فقط" 173
باب شبهة "الاسترزاق" 180
باب شبهة "لا أؤذي أحدًا" 186
باب تعظيم الله 191
باب عدم اليأس وتجديد الأمل 200
باب التوبة الصحيحة وشروطها 209
باب الدعاء 221
باب الصبر والمجاهدة 230
باب طلب العلم الشرعي 239
باب الطاعة 250
باب تضييق الوصول 255
باب إشغال الوقت 273
باب الصحبة الصالحة 282
باب الزواج 293
باب الصوم 306
باب دور الأسرة 316
باب دور الإعلام 324
باب دور المجتمع 339
الخاتمة 354

الفاحشة المعاصرة

في ضوء القرآن والسنة

يتناول هذا الكتاب واحدة من أعظم القضايا التي تهدد الفرد والمجتمع، وهي الفاحشة بكل صورها وأشكالها المعاصرة، ويبين خطرها وآثارها على الدين والدنيا، مستندًا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، مع بيان سبل الوقاية والعلاج، والحلول الشرعية التي تحفظ للفرد طهارته، وللمجتمع استقامته.



جميع الحقوق محفوظة للكاتب ©